أنطوان دي سانت إكسوبري

القلعة

رواية



دار الشروق

أنطوان دي سانت إكسوبرى

القلعة

رواية

أشرف على تحرير وتهذيب هذه الطبعة

ميشيل كينل

ترجمة

أحمد علي بدوي

دار الشروق

مقدمة المترجم

القرن العشرون: كيف نستطيع «شرحه وتحليله» هو وأعلامه فى قرننا هذا؟ كلما توالت سنوات القرن الحادى والعشرين، والتفتنا خلفنا؛ ازددنا ارتياعا مما حدث فى القرن الماضى؛ ثم والحق يقال، انبهارا بشخصياته!

حربان عالميتان قبل أن يبلغ القرن منتصفه؟! وشخص من طراز أنطوان دى سانت إكسوبرى، الذى طالما انطلق من الأرض طائرا إلى السماء؛ ليلقى فى النهاية حتفه فيها!! ولد مع القرن، فى سنة ١٩٠٠ (فى التاسع والعشرين من يونيو)، وقاب قوسين أو أدنى من انتهاء الثانية من الحربين العالميتين ـ ومن جرائها أيضا ـ تنتهى حياته، فى سنة ١٩٤٤ (فى الحادى والثلاثين من يوليو)؛ هو الذى صمم على مواصلة عمله كطيار حربى رغم إشفاق رؤسائه من كبر سنه النسبى، وألح على الخروج فى رحلة الاستطلاع التى قضى أن تكون رحلته الأخيرة؛ بعد ان استوفى عدد الرحلات المقرر أن يقوم بها. وفى حياته نشرت من أعماله الأدبية عشرة، لم يكن من بينها هذا الكتاب الذى بين يدينا. وعنه بلغ ما كتب ـ فى السنوات العشر التالية لرحيله وحدها ـ ضعف ما كتبه هو، ولا يزال

يكتب عنه حتى اليوم! وعمله «الأمير الصغير» ـ الذى أتحفه برسومات بريشته هو نفسه ـ ترجم إلى أكثر من مئة وتسعين من اللغات المكتوبة والدارجة، من بينها لغة السكان الأصليين لبقاع الأرجنتين (قبل استيطان العنصر الأسبانى بها). وإلى هذه اللغة لم يترجم غيره، سوى الإنجيل!!

وكما عجلت رحلة نهاية يوليو سنة ١٩٤٤، بنهاية حياة أنطوان دى سانت إكسوبرى؛ فقد وضعت أيضا لعمله الأخير، «القلعة» ـ ذى الشكل الأدبى الخارق لكل ما هو معتاد ـ نهاية غير تلك التى كان هو مزمعا أن يضعها له! إذ كان آخر ما كتب ـ قبل تحليقه فى رحلته الأخيرة ـ صفحة واحدة أضافها إلى نص الكتاب. كانت الصفحة آخر ما كتب، ولكن لم يكن مستهدفا بها أن تكون الصفحة الأخيرة فى هذا الكتاب! وبمثلما لم تكتب للكتاب نهاية؛ يكاد من يقرؤه يظن أنه بلا بداية!! وكيف يمكن أن يكون هذا؟

إن كثيرا من مقاطع الكتاب، بل المقطع الأول منها نفسه يبدأ بكلمة Car التى تعنى ـ مثلما تعنى مرادفتها فى اللغة الفرنسية، Parce-que ـ «لأن» أو «إنما» أو «فإنما»، «بل» «ذلك أن»؛ وكلها مرادفات فى اللغة العربية لكلمة يراد بها ـ فى جميع الأحوال ـ تعليل ما أنبئ عنه قبلها. فكيف ولم يرد قبلها شىء؟!

يلهمنا بالإجابة واحد من الكثيرين الذين كتبوا عن أنطوان دى سانت إكسوبرى، وهو جان ايوجيه Jean Huguet فى كتابه «سانت إكسوبرى وتعاليم الصحراء» Saint-Exupéry et l’enseignement du desert حيث قال ذلك الكاتب ما معناه بالعربية: «أمن حاجة إلى التذكير بأن هذه الكلمة تمهد دائما لافتراض مترتب على سابقه؟ افتراض مؤيد لسابقه

وداعم له؟ وهنا [يقصد: فى نص «القلعة»] لم يتم تبيان هذا السابق! لقد ظل مضمرا لدى سانت إكسوبرى، فى صمت سانت إكسوبرى. بيد أن هذا المضمر، تزداد عظمته بقدرته على الإقناع؛ معضدا بكل من هذه الكلمة [التبريرية] والافتراض اللاحق»!!

هذا عن جانب من شكل النص. أما عن مضمونه فإن واحدا من أهم جوانب هذا المضمون، يقوم على مفهوم لـ «العمل الإنسانى»، بالغ السمو! نجد أنطوان دى سانت إكسوبرى يقول فى إحدى فقرات الكتاب (هى السادسة) على لسان بطله الذى تخيله أميرا على شعب جعله هو شغله الشاغل ليل نهار: «... تأملت قومى وهم على عتبات محالهم المتواضعة، متخففين شيئا ما من نشاطهم الدؤوب كنشاط النحل. وقد نال إتقان كعكة العسل التى تعاونوا عليها طيلة النهار، منى اهتماما... هكذا طفقوا هم يكدون طيلة حياتهم فى سبيل إثراء، ما له من نفع مباشر! باذلين كل ما فيهم من أجل الرونق خالصا؛ غير مخصصين لما هو معتاد، غير جانب من عملهم؛ ومكرسين سائر الجوانب [من عملهم] كلها للإتقان... وأثناء جولاتى الممتدة فهمت تمام الفهم أن الكيفية التى تكون بها مملكتى متحضرة، لا تتوقف على كيفية الإمدادات، بل على تلك التى للمتطلبات، وعلى العمل بورع. [الكيفية التى تكون بها المملكة متحضرة] ليس قوامها التملك بل العطاء. أول من يوصف بالتحضر هو الحرفى؛ والذى يعيد فى صنعه للشىء إيجاده لنفسه، فيصير له الخلود جزاء على صنيعه؛ ولا يعود يخشى الموت... وما وفاة السلف ليصبح ترابا ـ بعد أن بذل من نفسه كل ما استطاع بذله ـ إلا روعة! إنما هى الأداة التى تدفن وقد باتت بلا جدوى، ولكن الصنيع نفسه باق». فيعيد قول أنطوان دى سانت إكسوبرى هذا ترديدا فى ذاكرتنا لعبارات قيلت فى

القرن التاسع عشر، فى منتديات كان من بينها «النادى العمالى» بالعاصمة البلجيكية بروكسل، والذى استضاف فى شهر أغسطس سنة ١٨٤٧ ـ على وجه التحديد ـ حلقات دارت فيها مناقشات، افتتحت واحدة منها بعبارة: «العمل سلعة يبيعها مالكها»! واسترسل مفتتح المناقشة قائلا «إن مالك هذه السلعة يبيعها. لماذا؟ لكى يعيش؛ شأن كل من يملك شيئا يمكن أن يقايض بغيره من الأشياء التى تنقصه. إلا أنه ـ فى الحالة تلك ـ تكون السلعة هى النشاط الحيوى الخليق بصاحبه، العاكف على العمل. هذا النشاط الحيوى هو ما يبيعه لآخرين. إنه التجلى لحياة لا يملكها إلا هو، ولا يملك هو غيرها! وعندئذ فإن نشاطه هذا لا يمثل له إلا وسيلة للقدرة على الوجود: إنه يعمل لكى يعيش. هو لا يعتد بالعمل فى حد ذاته كمشارك فى حياته، بل بالأحرى يكون العمل تضحية بحياته!» وهى عبارة تبدو وكأنها هى التى أوحت إلى سانت إكسوبرى بعبارته تلك! بينما يعيد قول سانت إكسوبرى الآخر (فى الفقرة التاسعة من نصه) «إن هذا الشعب العاكف ـ شاء أو أبى ـ على العمل، يقيم القصور أو الصهاريج أو الحدائق المعلقة. صنائعه تولد كأنما بالضرورة، من صنع أنامله» ترديدا فى ذاكرتنا لعبارة أخرى وردت فى المناقشة التى دارت فى نادى بروكسل، إذ قيل «إن ما ينتجه العامل لنفسه ليس الحرير الذى ينسجه. ليس الذهب الذى يستخرجه من المنجم. ليس القصر الذى يشيده. ما ينتجه لنفسه هو الأجر! والحرير والذهب والقصر يختزلون فى عرفه إلى كم محدد من وسائل البقاء...» وهو قول يبدو بدوره وكأنه هو الذى أوحى إلى سانت إكسوبرى بعبارته الأخرى! وهذا رغم أنه يكاد يبدو مجزوما به أنه لم يطلع على سطور هذه الصفحة من صفحات الفكر الاقتصادى (أو الفقه النقابى، إن صح التعبير!)، والتى ظلت فيما نعلم

حبيسة أضابير لم يحط بها إلا عتاة المتخصصين! أو على الأقل لم تظهر أدنى إشارة ـ للمتأهب لاقتحام الكم الكبير من الصفحات التى كتبت عن أنطوان دى سانت إكسوبرى، بقلمه هو نفسه أو بأقلام غيره ـ إلى احتمال لقيان ما يثبت هذا الاطلاع! ولكنه «الروح الأوروبى» كما وصفه مفكر القرن العشرين الفرنسى العظيم ليون برنشفيج (فى كتابه الصغير والشهير، الذى بهذا العنوان). أجل: الروح الأوروبى، وما تميز به من «تماسك»؛ والذى قد تعين محاولة تفهمه، من يتخبطون إزاء تماثلات من هذا القبيل؛ فيندفعون إلى وصفه بأنه «توارد خواطر»!!

لا بد لفهم الروح الأوروبى أن نستوعب القرون الثلاثة الأخيرة كلها، وأعلامها: القرن الثامن عشر؛ وفيه ـ من أصحاب الأقلام الفرنسية وحدهم ـ شخصيات مثل «روسو» و»ديدرو» و»فولتير» و»مونتسكيو» و»كوندورسيه» و«هلفسيوس» و«كوندياك»، بل و«ساد» و«دولباخ»! والقرن التاسع عشر الذى توسط القرنين: الثامن عشر الذى اصطلح على وصفه بأنه «قرن الأنوار»؛ لما بزغ فيه من نهضة فكرية، والعشرين الذى بات يحق لنا الآن ـ فى القرن اللاحق له ـ أن نصفه بأنه "قرن التقلبات (بل والتقلبات الكبرى!)" أما القرن التاسع عشر فقد وصف عن حق بأنه «قرن التفاوتات فى المعيشة (أى المظالم!)»، والعبرة فيه ليست بالفكر الذى ساده حتى قارب القرن منتصفه؛ وإنما بالفكر الذى خلفه عندئذ، وعليه كان ثائرا؛ ومنتصرا! بدءا أيضا مما قبل منتصف القرن، ليتم نضجه فى النصف الثانى منه؛ وبفعل إقدام العلم على خلع الفلسفة عن عرشها الذى ظلت متربعة عليه منذ ما قبل التاريخ (الميلادى). وطيلة القرون الثلاثة الأخيرة هذه، كان جهاد الفكر الأوروبى ـ متماسكا كعادته ـ فى مثابرته على التحول إلى الفهم الصائب للإنسان باعتباره

«الكائن الحى الصانع» Homo faber أى باعتبار القدرة على «الصنع» وحدها ما يشكل الفارق بين الإنسان وسائر الكائنات الحية. وقد بلغ هذا الجهد بالثورة الفكرية التى قامت فى القرن التاسع عشر؛ والتى كان قيامها رد فعل على ما تفاقم فى ذلك القرن من مظالم، من ناحية؛ ومن ناحية أخرى امتدادا للنهضة الفكرية التى بزغت فى القرن السابق عليه: هذا الجهد بلغ بالثورة الفكرية فى القرن التاسع عشر ما أضفى عليها وهجا؛ به استوجبت وصفها بأنها وليدة تضافر كل من المذهبين الروحى والمادى معا. فإن بتنا اليوم ندين بتفتيح وعينا بهذا التضافر لواحد من أكثر أصحاب الأقلام فى فرنسا القرن العشرين عقلانية ودأبا والتصاقا بأرض الواقع، وهو المفكر ماكسيميليان روبل، فإننا أيضا ندين بالعثور على شواهده فى سطور ذلك الذى كان أكثر أصحاب الأقلام فى فرنسا القرن العشرين عاطفية وطموحا وتحليقا فى سماء الخيال، بمثلما كان أكثرهم تحليقا فى السماء، بالمعنى الحرفى لا المجازى. أو لعله الوحيد منهم الذى حلق فيها قائدا طائرته بنفسه، وفيها لقى حتفه! يقول أنطوان دى سانت إكسوبرى (فى مطلع الفقرة الخامسة والستين من الكتاب): «والجهاد الأكبر؛ الذى هو ضد الأشياء... فإن أولئك الذين يقتاتون من استخراج الماس الخالص مرة فى كل عام، أشهد بحماسهم وأعتد بهم كأناس سعداء؛ وهم الذين يقلبون الأراضى الجرداء اليابسة؛ بغية الاكتشاف، وتشققهم الشمس، مثلما تفعل بالفاكهة الذابلة، وتجرحهم الصخور، ويحفرون فى أعماق الطين». وفى موضع لاحق من الفقرة يحلق بعيدا عن الواقعية؛ إذ يقول بين قوسين: «(فإنما يكون من الشمس مقدم الماس؛ ليصير بذورا [!!] ثم ليلا حالكا [إذ يكون فحما فى أعماق الأرض، أو «فى أحشاء الكرة الأرضية»؛ بتعبير سانت إكسوبرى نفسه

فى نفس الفقرة] ثم يعود فيبزغ كالضوء)»!! وفى نفس الفقرة أيضا يقول أنطوان دى سانت إكسوبرى - بين هذين الموضعين - على لسان بطل عمله الأدبى هذا: «إذا أردت فسأستطيع إنشاء حضارة تراها متقدة بالحماس: كتائبها مفعمة بالبهجة، وتنبعث الضحكات الصافية من العمال العائدين فى نهاية النهار. حب الحياة فيها شديد، والأمل قوى فى معجزات يأتى بها الغد، وقصائد يسمع فيها للنجوم صدى!».

ولعله بات يحق لنا نحن قراء العربية، أن نحلم بدورنا بـ «إنشاء حضارة متقدة بالحماس»، وطالما أفعمت «كتائبها بالبهجة»؛ فعندئذ سيتحقق لنا ما حلمنا به وتطلعنا إليه من معيشة «حب الحياة فيها شديد، والأمل قوى فى معجزات يأتى بها الغد، وقصائد يسمع فيها للنجوم صدى!».

أحمد على بدوى

القلعـــة

١

إنما قد رأيت ـ فى أحيان بالغة الكثرة ـ الرأفة تخطئ مقصدها. بيد أننا نحن الذين نحكم البشر قد تعلمنا كيف نسبر قلوبهم؛ بحيث لا نولى عنايتنا سوى ما هو جدير بأن يراعى. لكن هذه الرأفة أنكرها على النساء النائحات من جروح تبرح قلوبهن، بمثلما على المحتضرين وعلى الموتى؛ وأنا أعلم لِمَ.

لقد جاء على حين من شبابى فيه رأفت بالمتسولين وبقروحهم؛ ومن أجلهم استأجرت مطببين وابتعت بلاسم، وجعلت القوافل تجلب لى فى جزيرة وأخرى أدهانا ـ أساسها الذهب ـ تلأم جلد الجسم فوق اللحم.

على هذا النحو تصرفت حتى يوم أدركت فيه أنهم يعدون تنتنهم ترفا نادرا؛ إذ ضبطهم يحكون ما بهم ويتبللون بالروث، شأن ذلك الذى يبخر أرضا كى يقتلع منها الزهر القرمزى اللون! راحوا يظهرون بعضهم لبعض قروحهم متفاخرين، مفتونين بما يتلقون من عطايا؛ هى لدى من يفوز بأكبر عدد منها، كقرابين يتلقاها كبير الكهان، كاشف الحجب عن أجمل الأوثان! فإذا ارتضوا أن يستشيروا طبيبى؛ فإنما آملين أن يدهشه تقيحهم بفوحانه وجسامتـه، وقد دأبوا على التلويح بما أبقى عليه البتر من أطرافهم التماسا منهم لمكانة فى مجامع الناس.

وهكذا كانوا يتقبلون الرعاية وكأنها تكريم؛ عارضين منهم أعضاء الجسد كى تأتيهم المداهنة. بما يزيدهم افتتانا بأنفسهم. لكنهم ما يكادون يبرأون من الداء إلا ويكتشفون فى أنفسهم انعدام أهميتها؛ وأنها لا تعود ـ فى ذاتها ـ تجود بأى قوت، كأنها لم تعد ذات جدوى؛ وعندئذ يغدو شاغلهم الشاغل، هو: أولا ـ إحياء ذلك القرح الذى طالما استهلكهم، ومتى عادوا فاكتسوا بالعاهات؛ راحوا يستأنفون طريق القوافل فخورين مفتونين، والقصعة فى اليد! وباسم ما يعبدون من أدناس: يبتزون المسافرين.

وأيضًا جاء حين فيه رأفت بالموتى؛ ظانًا أن من اخترت أن أضحى به فى الصحراء، هو موغل فى عزلة يائسة؛ إذ لم أكن بعد قد أدركت أنه لا توجد أبدًا عزلة لأولئك الذين يموتون، أنا الذى لم أكن بعد قد اصطدمت بتفضلهم المهين.

إلا أن بصرى امتد فأدرك أنانيا أو بخيلا كان هو نفسه يزعق بأيما قوة محتجا على أى اختلاس كان، فراح إذ حانت ساعته الأخيرة؛ يتضرع كى يجمع حوله أهل بيته، ثم يقسم خيراته بإنصاف مستخف كمن يوزع على أطفال لعبا تافهة.

والجريح الجبان، هو نفسه الذى يصيح مستغيثا إذا أحدق به أدنى الأخطار: رأيته ـ وقد تيقن دنو أجله ـ يأبى من غيره أىَّ عون متى وجد احتمال تعريض ذاك العون رفاقه لخطر ما! نحن نبتهج بالتفانى الذى فى هذا القبيل، ولكننى هنا أيضًا لم أجد إلا معلما خفيًا من معالم الاستهانة. أنا لم يخف علىَّ من راح يشرك غيره فى إنائه بينما واصل هو معاناة الجفاف تحت الشمس، أو من راح يتقاسم كسرة خبزه وجوعه قد بلغ أقصاه! وهذا أولا؛ لأنه لا ذا ولا تلك يظلان موضع احتياج! ثم إن من ملك أيا منهما

لبالملقى به، وقد أفعم بجهل كجهل الملوك بمعاناة شعوبهم... كمن يلقى إلى غيره بقطعة من العظام لينهشها.

لِمَ إذن أكون بالذى يرثى لهم؟ لِمَ أكون بالذى يضيع وقته فى بكاء من يقضون؟ ما أبلغ معرفتى أنا بما يعزى إلى الموتى من كمال!

أليس أن الأقل إثقالا علىَّ من بين كل ما مر بى، هو موت تلك الأسيرة؛ الذى أريد به إبهاجى، وأنا فى السادسة عشرة من عمرى؟ تلك التى كانت ـ حتى من قبل أن يجاء بها إلىَّ ـ مأخوذة بما يشغلها من موتها... تلتقط أنفاسا ما أقصرها! وتخبئ سعالها فى أقمشة؛ مجهدة مثل ظبية تم الإطباق عليها، لكنها عن ذا غافلة؛ لأنها تؤثر أن تبتسم!! بيد أنه ابتسام كمثل ما يعلو النهر من ريح، وما يتركه الحلم من أثر، وما تشقه فى الثرى بجعة على الأرض حطت، ويوما تلو يوم يتلاشى أثره: يزداد ندرة وتعسرا على الاستبقاء، حتى لا يصير باقيا منه غير خط بالغ الصفاء؛ متى استأنفت البجعة تحليقها.

أيضًا موت أبى؛ إذ انتهت حياته وصار من حجر! قيل إن السفاح ابيض شعره عندما قدر لخنجره لا أن يريق ما فى ذلك الجسد الفانى من دم، بل أن يفعمه بذاك الجلال! وقد اكتشفوه مختبئا فى الغرفة الملكية، وجها لوجه، لا مع ضحيته، بل مع ما هى صائرة إليه من تابوت من صوان، جبار! اكتشفوا القاتل عند طلوع الشمس حبيس كمين من الصمت كان هو وحده الباعث عليه، مكرها على السجود بفعل سكون الجثمان فقط!!

إذن، فإن أبى الذى دفع به مغتاله إلى الأبدية دون إبطاء، قد خطف ـ حين انقطعت أنفاسه ـ أنفاس الآخرين طيلة أيام ثلاثة؛ فلم تنطلق الألسنة التى عقلت، ولم تستقم الأكتاف التى تدلت إلا بعد أن جعلنا مثواه الثرى. لكن بلغ من مدى ما لاح لنا من خطر شأنه ـ هو الذى ما حكم وإنما أقام

الوزن ونقش وسمه راسخا ـ أننا خلنا أنفسنا ونحن نوسده قبره على طول حبال تنذر بتقصفها، نمد مستودعا بمخزونه من الحصيد، لا نوارى جثمانا! كان ـ وهو معلق ـ فى زنة عتبة معبد؛ وما دفناه ولكن به ختمنا الثرى، هو الذى صار أخيرا ما هو: حجر الأساس ذاك.

إنما بفضله هو كان علمى بالموت، ونزولا على إرادته واجهت المنايا دون أن يطرف لى جفن؛ ذلك أنه هو لم يغض الطرف قط!

أبى كان من دماء النسور ما يجرى فى عروقه!!

أعنى ما وقع إبان العام الملعون، ذلك الذى كنى بـ «وليمة الشمس»؛ ففيه اتسعت الصحراء بفعل الشمس التى سلطت أشعتها على الرمال بين العظام الرمائم، والعوسج اليابس، وجثث الزواحف ذات الأهب الشفافة، وعشب تقتات عليه الإبل: أضحى يضاهى وبرها فى خشونته. الشمس التى تقيم بها الأزاهير أعوادها، افترست نسلها واستوت على عرشها فوق ما بعثرت من جيف! كمثل طفل بين لعب أتلفها.

بل لقد تشربت الشمس ما فى جوف الأرض من موارد وما فى الآبار القليلة من ماء، وحتى البريق الذهبى للرمال التى بلغ من ضوئها وابيضاضها أننا سمينا تلك البقعة بالمرآة؛ فإنما المرآة هى الأخرى لا تحوى شيئًا، والصور التى تعج بها لا زنة لها ولا دوام. فإنما المرآة أحيانا ـ كمثلما بحيرة الملح ـ تلفح الأعين!

إن رعاة الإبل إذا ضلوا فإنهم فى البداية لا يتبينون حقيقة ما وقعوا فيه من شرك لا يفرج أبدا عما فى حوزته؛ ذلك أن شيئًا لا يميزه، وفيه يجرجرون أطيافا تتبعهم كمثلما ـ تحت الشمس ـ تتبع الظلال الموجودات؛ ظانين أنهم ماضون فى سيرهم بينما هم مشدودون إلى إشعاع جاذب، يحسبون أنهم أحياء وغرقهم فى لجة الآخرة قد بدأ سلفا! يدفعون قدما قافلتهم

فى هذا المتسع الساكن؛ حيث لا يفلح أى جهد كان، سائرين صوب بئر لا وجود لها. يبتهجون بنداوة الغسق؛ وما عادت ملاقاتهم إياها إلا مهلة بلا جدوى! ولربما ينوحون بشكواهم ـ ويا للسذج! ـ من بطء الليالى، والليالى سرعان ما ستمر عليهم متلاحقة كمثلما يتلاحق اختلاج الجفون. وإذ يسبون بعضهم بعضا بشأن مظالم طفيفة، مصعدين صيحاتهم من حلوقهم: يجهلون أن العدالة من قبل قد اتخذت بشأنهم مجراها!!

أتحسب هنا موضع تعجل القافلة سيرها؟

انتظر انصرام عشرين من القرون، ثم عُد؛ لترى!

هكذا اكتشفتهم أنا: يذيبهم الزمن فيصيرون رمالا!

رأيتهم أطيافا جرعتها المرآة، وأبى يمضى بى ـ وقد أردفنى ـ ليجعلنى عليما بالموت.

ويقول لى أبى: «هنا ـ يومًا ما ـ وُجِدَتْ بئر». فى جوف إحدى الفتحات الضيقة والعميقة حتى يبلغ من عمقها أن نجما واحدا فقط هو أقصى ما يمكن استشفاف صورة له منها: حتى الوحل تصلب، والنجم الحبيس بداخلها خبا. لكن، أليس غياب النجم الفريد كافيا للإيقاع بقافلة أثناء سيرها، بنفس إحكام أعتى الكمائن؟!

عبثا تزاحم الإنس والوحش حول الحافة الضيقة كى ينالوا من باطن الأرض ما ترتوى به دماؤهم! وهل يجدى التشبث بالحبل السرى بعد انقطاعه؟! إذن، فإنهم لما أنزلوا إلى قرار تلك الهوة أجدر العمال بالثقة؛ فعبثا كان كشط هؤلاء قشرة الأرض اليابسة! وبئر وحيدة خاوية سمرت فى الأرض القافلة، كأنها بعض تلك الحشرات التى تثبت حية؛ وتنثر حولها ـ فى ارتجافة الموت ـ ما فى جناحيها من حرير ولقاح وذهب! وبما تعرضت

له مرابط الجياد من انفصام، والحقائب من شق، والماسات من تناثر حتى كادت تلتبس بالحصى، وسبائك الذهب الثقيلة من زحف الرمال عليها: فإن القافلة قد بودرت بالشيخوخة!!

وأثناء تأملى تحدث أبى: «تعرف أنت وليمة العرس، وقد غادرها العروسان ومن استضافـاهم؛ إذ يكشف أول ضوء للنهار ما خلفوه من فوضى: الجرار مهشمة، والموائد مقلوبة ونار الجمر خامدة! كل شىء يحمل علاقة صخب، همد؛ دون أن يؤدى أى مما يمكن استقراؤه من علائم كتلك، إلى إبلاغك شيئًا واحدًا عن حب توج بذاك القران. كذلك، فإن الجاهل إذ يحمل سفرا من أسفار الرسل، فيقدر زنته ويقلبه بين كفيه ويطيل النظر إلى رسم حروفه أو إلى زخارفه المذهبة؛ يفوته الجوهر، وهو حكمة السماء، لا الشىء الفانى! كذلك، فإن جوهر الشمعة ليس الشمع ـ الذى يخلف بقايا ـ بل الضياء!»

ذات مرة قضى قضاة المدينة على فتاة اقترفت جريمة ما؛ بأن تتعرى تحت الشمس حتى إهابها الرقيق، وحسبها بعدئذ أن توثق بوتد فى البيداء.

أبى قال لى: «سأعلمك ما ينحو البشر صوبه».

ومضى بى ثانية. رحلنا تاركين الفتاة طيلة يوم كامل فيه تجرعت الشمس كل ما فى عروقها من دم، وما بقى فى فمها من لعاب وتحت إبطيها من عرق. تجرعت الشمس ما تذرفه عيناها فيلتمع على خديها. ثم جاء الليل برأفته الوجيزة ساعة بلوغى وأبى سفح الهضبة المحرمة، والفتاة ناجمة من سطحها الصخرى بيضاء عارية؛ برهافة تفوق حتى تلك التى فى نبت لم يعد يرتوى بغير الندى؛ إذ انفصم بلا رجعة عن موارد المياه

التى جعل باطن الأرض مودعها. تلتوى منها الذراعان مثلما عرش أعناب يستمر بفعل الحريق تقصفها، ضاجة بآهاتها؛ كى يرحمها الخالق.

قال أبى: «اسمعها! إنها تكتشف الجوهر...»

لكننى كنت طفلا وجبانا.

أجبته: «ربما أنها تتعذب، وربما أيضًا أنها خائفة...».

ـ لقد تجاوزت العذاب والخوف اللذين هما من أمراض الحظيرة.. جعلا للقطيع المتضع!

إنها تكتشف الحقيقة!» هكذا أجابنى أبى.

وسمعتها تشكو، هى أسيرة الليل ذاك الذى لا حدود له: تدعو إليها المصباح الذى يوقد فى الدار متى حل المساء، وحجرة قدر أن تؤويها وبابا يحكم إغلاقه عليها. هى المقدمة قربانا إلى كون شاسع لا يكشف منه الوجه: تدعو الطفل الذى يعانق قبل أن يأوى إلى النوم، وفيه ينطوى العالم! هى الملقاة على تلك الهضبة المهجورة، خاضعة لما يجىء به المجهول: تتغنى بخطوة الزوج، التى يسمع وقعها فى المساء على عتبة الدار ولا تخطئها الأذن، والتى تبعث الاطمئنان. هى المطروحة أرضًا فى انفساح المدى دون أن يظل بعد فى مقدورها التشبث بأى شىء كان: تضرع أن تعاد إليها تلك الموانع التى بها وحدها يدوم الوجود!!

حزمة الصوف تلك كى تغزلها، ذلك الوعاء كى تغسله، ذاك وحده! ذلك الطفل ـ لا غيره ـ كى تؤويه إلى فراشه. آهاتها تروم بها استرجاع العمار للدار واستبقاءه؛ إذ تكتسى الدار ليلا ـ ومعها القرية كلها ـ ببركات نفس الصلوات.

٢

إذن، فمن أعلى برج، هو أعلى بروج القلعة قد اكتشفت أنه لا العذاب، ولا الموت الملحق بالرفيق الأعلى - بل ولا تألم الأحياء بتأثير الفقدان - مما يجدر الرثاء له؛ ذلك أن الفقيد إذا بجلت ذكراه فقد أمسى يفوق الحى حضورًا واقتدارًا. إنما لم تفتنى هموم البشر؛ ورثيت للبشر، وعزمت على مداواتهم.

عليه وحده أشفق: ذلك الذى يصحو فى الليل العظيم العريق ظانا أنه فى حمى كواكب فاطر السماوات، وبغتة يجد نفسه على سفر.

أحظر الاستجواب؛ عالما أنه ما على الإطلاق من إجابة تبرد الغليل! من يستجوب فإنما هى الهاوية ما ينشده أولا.

أدين اللص الذى لا يشغله من الهموم سوى الجريمة؛ إذ تعلمت استقراء ضميره وضمائر أمثاله، وأدركت أننى ما بقادر على إنقاذهم، ولو بإنقاذهم مما هم فيه من فاقة؛ ذلك أنهم يخدعون أنفسهم؛ إذ يمدون أعينهم إلى ما يتمتع به غيرهم من ذهب. وإنما يضاهى بريق الذهب بريق النجوم؛ وحبهم هذا الجاهل بحقيقته، لا يجتذبه إلا وميض لن يأسروه أبدا؛ ويمضون من صورة إلى صورة كى يسلبوا خيرات لن تجديهم، مثل المخبول الذى يغترف ماء النبع القاتم كى يحوز بدرا طالع فيه صورته،

ويلقون إلى لهب سريع الزوال ـ يبغون أن يعربدوا حوله ـ بمسروقاتهم فتصير رمادا لا جدوى منه. ثم يعودون لشغل مواقعهم المسائية، شاحبين، وكأنهم على عتبة ملتقى يتهيبونه، ساكنين حتى لا يثيروا الرعب؛ ظانين أنه هنا ـ أو هناك ـ مكمن ما يمكن أن يجدوه يوما ما فيغنيهم إلى آخر العمر.

هؤلاء إذا حررت أحدهم فسيظل على عهده! وغدًا؛ سيباغته رجال شرطتى وهم يدهسون فى سيرهم الأغصان المتساقطة فيهشمونها، سيباغتونه ثانية فى حديقة يملكها غيره؛ وهو مكتظ بدقات قلبه، مخدوعا بالأمل فى هبوط ثروة عليه فى تلك الليلة.

لا شك أن حبى لهم يسبق أيا مما أريد إنزاله بهم! إذ أعرف فيهم حمية يتميزون بها حتى عن الأمناء من التجار!! ولكننى مؤسس مدن؛ وهنا الوضع الذى قررت أن أرسى قلعتى فيه، وقد استوقفت القافلة السائرة؛ وما كانت تلك سوى بذرة فى مهب الريح! والريح تنشر بذور الأرز كما تفعل بالعطر، أما أنا فأتصدى للريح، وأدس البذرة حتى تزدهر أشجار الأرز تمجيدًا للخلاق.

لا بد للحب أن يعرف هدفه! ووحده ذلك الذى يحب ما هو كائن ـ والذى يمكن إشباعه ـ هو الذى أنقذه.

لذا ـ أيضًا ـ أعقل المرأة فى الزيجة. فإذا خانت الرباط المقدس أمرت برجمها. لا شك أننى أدرك تحرقها، ومدى إلحاح ما يدعوها إليه. ليس ما يشغلها بخاف علىَّ وهى واقفة بالشرفة ترتفق حافتها؛ والمساء آت بما يشبه المعجزة، والأفق يطبق عليها كأعتى أمواج البحار؛ وهى أسيرة حنين يعذبها كأنما يستبد بها جلاد.

أستشعرها مختلجة كلها!! مثل السمكة الملقاة على الرمال تنتظر موج

البحر العارم: تتطلع المرأة بدورها إلى عباءة زرقاء عرف بارتدائها فارس الأحلام. ونداؤها تطلقه فى كل مكان تدركه أسماع الليل. من يبزغ منه ـ أيا من كان ـ سيلبيه! بيد أنها ـ عبثا ـ ستمضى من عباءة إلى عباءة؛ فما من رجل سيشبعها. كذلك تتوق الضفة إلى فيض من موج البحر يرطبها، والأمواج تتتابع أبدا؛ والموجة تلو الموجة تبلى. فيم يجدى إذن الإقرار للمرأة بأن تبدل زوجا بزوج؟ إن تلك التى تؤثر التطلع إلى الحب لن تعرف معنى اكتمال اللقاء.

أنا لا أنقذ سوى من لها المقدرة على الصيرورة، وعلى التناسق حول الفناء الداخلى للدار، كمثل شجرة الأرز الجاعلة من بذرتها قوام بنياتها؛ مستمدة ازدهارها مما تصونه حدودها. أنقذ من تحب الربيع! لكن حبها له يفوقه حبها لتنسيق زهرة انطوى فيها الربيع، من تحب الحب! لكن حبها إياه يفوقه حبها وجها بذاته اتخذه الحب!!

لذا، فإن تلك الزوجة المشتتة فى الليل أقيم عودها أو أعيدها سيرتها الأولى. أجعل حولها موانع قوامها الأشياء المألوفة: الموقد، والمغلاة وصحفة النحاس الذهبى اللون؛ كى يتكشف لها هذا الحشد شيئا فشيئا عن وجه تذكره.. وتألفه، عن ابتسامة ذاك موضعها لا غيره؛ وعندئذ، فبطئًا سيتجلى لها الحق، فتستجيب لصرخات الوليد طالب الإرضاع، وتحس فى أطراف الأنامل دغدغة الصوف المغرى بإتمام حلجه، وتستشعر حاجة الجمر إلى النفخ فيه. ومنذئذ سيؤهلها ما هى أسيرته؛ لأداء مهمتها. ذلك أننى أنا من يقيم القارورة حول العطر. أنا الوتيرة التى بها تنضج الثمرة. أنا من يرغم المرأة على اتخاذ صورة وكينونة؛ حتى أكون فيما بعد شفيعها لدى القدوس؛ إذ أسلمه ما فيها من حمية ورقة ومعاناة، لا تلك الزفرة الخافتة المشتتة فى الريح.

لذا تفكرت مليا فى معنى السكينة، وأن مبعثها ليس إلا من الأنجال متى قدموا، ومن المحاصيل متى جمعت، ومن الدار متى استكمل ترتيبها. مبعثها الأبدية؛ إذ يستقر كل ما بلغ منتهاه. سكينة مستودعات الحصيد متى ملئت، والنعاج متى نعست، وكساء البيت متى طوى بعناية. سكينة الكمال الفريد، سكينة ما سوف يبذل لإله السماوات؛ متى أتقن عمله.

فقد لاح لى أن الإنسان تام الشبه بالقلعة! إنه يقوض الجدران لضمان حريته. لكن لا يبقى سوى حصن منهدم مكشوف لنجوم السماء. عندئذ يبدأ الفزع من الفناء. فلينشد الإنسان حقيقته مما تفوح به الكرمة فى الحر، أو يتبدى من صوف النعجة الواجب حلجه؛ فإنما الحقيقة مثل البئر: تستلزم حفرًا!! والنظرة إذا تشتتت، ضلت عن مشهد العليم. والحكيم الذى أقام عوده وجعل مبلغ علمه زنة الأصواف، يزيد علمه بعلام الغيوب أضعافا مضاعفة عما تدريه الزوجة الخائنة للرباط المقدس... المصيخة لما يعد به الليل.

أيتها القلعة! سأشيدك فى قلب الإنسان!!

٣

ذلك أننى اكتشفت حقيقة عظمى، وهى أن البشر قاطنون! وأن دلالة الأمور تتغير لدى أى منهم وفقا لما يقطن به من دار. وأن للإنسان مفهومًا للدرب ولحقل الشعير، ولسفح التل، يختلف بحسب كون أى منها يشكل جزءا من أملاكه؛ فإذا تلك المادة المشتتة تصبح جمعا ذا قيمة يستشعرها القلب، فماذا إذا تشكل من الموجودات ملكوت الرحمن؟ وما أشد تفوق القاطن به عمن سواه! وكم يخطئ المارقون... الساخرون منا؛ ظانين أن لما يطاردونه من الثروات وجودا حقيقيًا، ويخيب ظنهم؛ فما تلهفهم على هذا القطيع أو ذاك إلا لإرضاء غرورهم، وما لأى من مصادر إرضاء الغرور من وجود محسوس.

كذلك بشأن الظانين فى أنفسهم القدرة على إدراك مقاطعتى بتقسيمهم إياها؛ فإنهم بعد أن يحصوا قطعان الخراف وغيرها، وحقول الشعير، والديار والتلال: يتساءلون قائلين «وماذا غير هذا؟»؛ ثم طالما افتقروا إلى ما يزيد عن هذا كى يحوزوه، فإنهم يحسون برد العرى. وقد اكتشفت أنهم مثل ذلك الذى يقطع أوصال الجثة قائلا « هاكم الحياة: أبينها كأوضح ما يكون! ليست إلا خليطا من عظام ودماء وعضلات وأمعاء»!! وإنما الحياة نور العيون، هذا الذى لا يعود يشع منها وهى رماد. وإنما مقاطعتى شىء

مغاير تماما لتلك الأنعام، والحقول، والديار، والهضاب؛ فإنها ما يسودها ويحكم ترابطها. إنما هى موطن حبى! ولسيكون سعيدا من يعرف هذا؛ فكل من عرف هذا بات من أهل دارى.

والطقوس هى فى الزمان ما تكونه الدار فى المكان! ذلك أنه حسن ألا يظهر الزمن ـ إذ ينصرم ـ بمظهر المستهلك إيانا: مضيعنا كأننا قبضة من رمال؛ بل أن يكون به كمالنا. حسن أن يكون الزمن تشييدا! وهكذا أمضى من عيد إلى عيد، ومن احتفال بميلاد إلى احتفال آخر، ومن موسم لجنى الكرم إلى موسم لجنى الكرم يليه؛ مثلما كنت أمضى طفلا من قاعة إلى قاعة ـ من بين قاعات منها ما هو للاجتماع، ومنها ما هو للاستجمام ـ فى رحاب قصر أبى؛ حيث كانت لكل خطوة دلالة.

لقد فرضت قانونى؛ مثلما فعلت بترتيبى دارى، وهيئة حوائطها. وأخرق جاءنى قائلا: «حررنا من فروضك! عندئذ سنشب فنكبر» !! لكننى عليم بما يمكن أن يخسره بذاك أفراد شعبى: أولا: ما عرفوه من وجه، وبعد خسارتهم ذاك الحب، فإنهم خاسرون ما عرفوه من أنفسهم. وقررت أن أثريهم بحبهم، مهما أبوا؛ لأنهم كانوا يقترحون على ـ كى يتنزهوا على سجيتهم بأكثر من ذى قبل ـ أن أقوض حوائط قصر أبى، حيث كانت لكل خطوة دلالة.

كان قصرا شاسعا، أفرد أحد أجنحته للنساء. وبه الحديقة المخفية؛ حيث يشدو منبع الماء (وآمر بأن يجعل هكذا قلب للدار؛ حتى يمكن كل من الدنو من شىء ما والابتعاد عنه، حتى يمكن كل من الخروج منه والإياب إليه؛ وإلا فلن يكون المرء فى أى موضع، وما من حرية للمرء فى ألا يكون!) وأيضا المستودعات، والحظائر. وجاء حين فيه خلت

المستودعات ولم تشغل الحظائر. ولم يكن أبى يقر استخدام أى منهما لغاية خصصت لها الأخرى، وأذكر قوله «إن المستودع هو ـ قبل كل شيء ـ مستودع؛ والمرء لا يحسب قاطنا بدار إن لم يعد واعيا بالموضع الذى هو فيه»، وأيضًا قوله «إنه ما من أهمية لكثرة الاستخدام أو قلته؛ فما الإنسان من الماشية المعتاد تسمينها!! إن للحب فى عرف الإنسان أهمية تفوق تلك التى للاستخدام؛ وما المرء بقادر على حب دار لا وجه لها، وحيث لا ترتبط بأى من الخطوات دلالة.

فى قصر أبى وجدت قاعة أفردت لاستقبال الوفود المبجلة دون سواها؛ ولم تكن تفتح ليدخلها ضوء الشمس إلا فى الأيام التى شهدت تصاعد غبار الرمال بفعل سنابك خيول القادمين من الفرسان، وفى الأفق تلك الرايات العريضة؛ خفاقة بفعل ريح تهزها مثلما تفعل بالبحر. تلك القاعة تركت مهجورة متى وفد على القصر صغار الأمراء ممن لا أهمية لهم! أيضًا وجدت القاعة التى يقضى فيها حكم العدالة، وتلك التى يحمل إليها الموتى. ووجدت الحجرة الخاوية، تلك التى لم يعرف أحد ـ قط ـ جدواها، والتى ربما لم تكن لها جدوى؛ إلا فى تعليم البشر معنى السرية، وأن من الأشياء ما يستحيل فيه بلوغ الصميم.

والعبيد الذارعون الردهات بأحمالهم، ناقلين بسطا ثقيلة تنوء بها أكتافهم: يصعدون مدارج ويرفعون أبوابا، ويعودون إلى الهبوط من مدارج أخرى؛ وبقدر دنوهم من منبع الماء يغالون فى الصمت بمزيد من الحذر. فإن تخلوا عن حذرهم متى ابتعدوا عنه ـ عادوا متوجسين صامتين كالأطياف، قرب حرم النساء؛ اللائى يمكن أن تكلف معرفة العبد ـ عن غير عمد ـ بأى منهن، حياته!! والنساء أنفسهن يتفاوت هدوء أى منهن بحسب موقعها من الدار، وكذلك ثقتها بنفسها أو إسراعها بالهرب!

ويجيئنى صوت الأحمق، القائل: «كم من متسع لا يستغل، ومن ثروات لا يفاد منها، ومن فرص يضيعها الإهمال! يجب أن تقوض الحوائط التى لا تجدى، وأن تتم توطئة السلالم القصيرة التى تعوق السير؛ وعندئذ سيصير البشر أحرارا!» وأجيب أنا قائلا: «عندئذ سيصير البشر بهائم، كالتى ترى فى الميادين؛ ومخافة سأم ـ قد لا ينقطع ـ سيبتكرون ألعابا حمقاء!! أجل، تحكمها قواعد، بيد أنها قواعد ليس فيها سمو؛ فإن البلاط الملكى قد يشجع القريض، لكن من سيقرض قصيدة عن حمق ما يلعبون به؟! وقد يحيون طويلا بعد فى ظل جدران تستثير القصائد الحنين إليها. ثم فى النهاية سينقضى الظل نفسه ولن يعودوا يفقهون أى دلالة؛ وعندئذ فبم سيواصلون ابتهاجهم؟!»

تلك حال الإنسان التائه فى أسبوع لا يميز أيامه شىء، أو فى سنة لا تميزها أعياد؛ سنة لا يظهر منها وجه. تلك حال الإنسان الذى لا ينتظم فى مرقى،والذى يغار من جاره؛ إذا أحس تفوق جاره ذاك عليه فى أمر أو آخر، ويجهد كى يرده إلى ضآلة كضآلته هو! ولكن إذا تلاحموا جميعا بلا تمييز فى مستنقع راكد؛ فأى بهجة سيستمدون؟!

آخذ على عاتقى توجيه القوى إلى مجالاتها: أقيم السدود فى الجبال لحجز المياه؛ وهكذا أعترض بظلمى ما هو كائن من منعطفات طبيعية... أعيد إرساء المراقى عند بقاع تجمع فيها البشر مثل المياه، وأصلح الأقواس ليجاد إطلاق السهام. وعبر ظلم الحاضر أنشئ عدالة المستقبل! أعيد إقرار توجيهاتى عند كل موقع استقر فيه أى منهم، داعين ذلك الركود سعادة. أنا أزدرى ضحالة عدالتهم، وأخلص ذاك الذى أسسته عدالة نزيهة؛ وهكذا أسبغ النبل على مملكتى.

ذلك أننى عليم بما لديهم من حجج: أولا: يعجبون بالإنسان الذى أسسه أبى، متسائلين «من ذا الذى يجرؤ على الاستخفاف بنجاح بلغ ذاك الكمال؟» وفى نفس الوقت يخرقون تلك الفروض نفسها كى يشب نفس ذاك الإنسان عن طوقها. وهى طالما بقيت فى القلوب فقد دام بعد مفعولها. ثم شيئًا فشيئًا طواها النسيان، ومات من أرادوا أن يحرروه!

لذا أمقت التهكم الذى ينحط بالإنسان فيغدو بليدا؛ فإن البليد يقول لهم «إن ما اصطلح على التعامل به هنا لا يتشابه بما اصطلح عليه فى أماكن أخرى؛ ففيم يجدى الإبقاء على الأمور دون تغيير؟ » بمثلما يقول لهم: «ما الداعى إلى جعل المستودع للحصير، والحظيرة للماشية؟!» ولكنه هو المخدوع بالمسميات؛ لأنه، يجهل ما لا تستطيع الكلمات أن تحيط باسم له.. يجهل كون الإنسان قاطنا بدار!

وها هم ضحاياه الذين لم تعد للدار لديهم دلالة، يشرعون فى تقويضها؛ ومن ثم يبدد البشر أثمن خيراتهم: دلالة الأشياء.

أتذكر ذلك المجدف الذى زار أبى، وقوله « أنت تأمر بأن تؤدى الصلاة فى دارك بمسبحة ذات ثلاث عشرة خرزة، وما أهمية ثلاث عشرة خرزة؟ أليس الخلاص واحدا، مهما تغيرت الأعداد؟!»

ثم دفع بأسباب وجيهة كى يصلى الواحد من الناس بمسبحة ذات اثنتى عشرة خرزة.

أنا، الطفل ـ وقد مستنى وجاهة المقولات ـ رحت أرقب أبى؛ مرتابا فى استطاعة إجابته خسف البريق الذى بدا لى مما جاء من حجج على لسان المجدف.

وذاك استأنف حديثه قائلا: «قل لى عما تزيد به المسبحة ذات الخرزات الثلاثة عشرة ثقلا!»

وأجاب أبى قائلا «إن فى المسبحة خرزات بعدد الرءوس التى قطعتها؛ فى سبيل ما ترمز إليه المسبحة!»

رأى المجدف نور الجبار فعرف الطريق إلى الهدى.

٤

أى موئل البشر! من سيؤسسك على التعقل؟ من سيكون قادرا وفق المنطق على تشييدك؟ توجد أنت، ولا توجد.. تكون، ولا تكون! أنت مصنوع من مواد متباينة. لكن للتوصل إليك وجب أن يوجد الابتكار؛ بمثلما يدرك ذلك الذى يقوض داره ظانا أنه بذاك سيزداد بها علما، فلا يعود يملك سوى كوم من الصخور والأحجار والحصى؛ غير عاثر على الظل ولا على الصمت ولا على الألفة، وكلها نتاج تلك المواد. ولا يعود يعلم ما يتوقع أن ينتجه ذاك الكوم من الصخور والأحجار والحصى؛ إذ ينقصها ابتكار يسودها. ينقصها ما لبانيها من ذات وفؤاد. الحجر تنقصه ذات الإنسان وفؤاده.

لكن بما أن التفكير ينصب على الأحجار والصخور والحصى فقط، لا على ما يسود تلك من ذات وفؤاد؛ ويحولها ـ بما فيهما من قدرة ـ إلى صمت.. بما أن قواعد المنطق وقوانين الأرقام لا تنطبق على الذات والفؤاد؛ فعندئذ طالع أنا ومع سلطانى! أنا البانى.. أنا الذى أملك ذاتًا وفؤادًا.. أنا وحدى صاحب القدرة على تحويل الحجر إلى صمت. آتى، وأشكل ذلك الطين ـ وما هو إلا مادة ـ وفقا للصورة الخلاقه التى أستلهمها من الإله، لا من سواه، وخارج دروب المنطق. أنا أشيد حضارتى، مأخوذا

بمذاقها المنتظر ولا شيء غيره؛ كما يقرض آخرون القصيد، ويطوعون العبارة، ويغيرون الكلم؛ دون أن يكونوا مرغمين على تبرير التطويع أو التغيير، غير مأخوذين بسوى ما هو منتظر من مذاق لقصيدهم؛ تهديهم قلوبهم إليه.

أيتها القلعة! لقد شيدتك ـ إذن ـ كسفينة. ثبتك وجهزتك، ثم أطلقتك فى الزمن؛ الذى لم يعد إلا ريحا مواتية.

سفينة البشر، التى بدونها ستفوتهم الأبدية.

بيد أننى أعرفها: الأخطار الماثلة المعادية لسفينتى؛ هى المعاينة دائما من البحر الدامس فى الخارج، ومما هو محتمل من الرؤى الأخرى؛ ذلك أنه من الممكن فى أى وقت تقويض المعبد، وبناء معبد آخر بنفس أحجاره. إلا أن ذاك الآخر لن يكون نصيبه من الحقيقة أكبر ولا أقل، ولن يكون أكثر عدالة ولا أكثر ظلما، ولن يعرف آخر بالكارثة؛ لأن طبيعة الصمت لم يوسم بها كوم الحجارة!

لذا، أرغب أن يشتدوا فى تعضيد دعامتى السفينة؛ حتى أفلح فى إنقاذ الجيل تلو الجيل منهم! ذلك أننى لن أستطيع استكمال تجميل المعبد؛ إذا جُعلت مضطرًا إلى استئناف بنائه فى كل وقت.

٥

لذا، رغبت أن يشتدوا فى تعضيد دعامتى السفينة؛ كى يُحمى صنيع البشر من طغيان الطبيعة العمياء، تحيط قواها ـ طائشة عاتية ـ بالسفينة؛ ومن ينسى سطوة البحر ـ يخاطر بالاستسلام لاطمئنان مبالغ فيه.

إنهم يظنون الموئل الذى وهبوه منيعا فى حد ذاته؛ لما يبرهن على هذا من أدلة لا حد لقوتها متى تجلت، إن من يسكن السفينة لا يعود يرى البحر، أو إذا رأى البحر فإنه لا يعود يرى فيه إلا زينة تتحلى بها السفينة! تلك هى سطوة العقل: يدرك البحر كشىء جعل لحمل السفينة!

بيد أنه يخطئ!

ذلك أن الذى لا يعود يعير انتباها، ولا يعود يعى كونه قاطنا بسفينة، هو كالذى انحلت أوصاله أصلا؛ ولن يلبث أن يرى زبد البحر يعلو وأمواجه تطغى على ما توهمه فيه فى مزاح أحمق.

ذلك أننى قد عرضت لى أنا، هذه الصورة ذاتها لإمبراطوريتى؛ ما إن صرنا فى عرض البحر بهدف القيام بحج: بعض من أفراد شعبى وأنا نفسى.

وإذن، فقد وجدوا أنفسهم حبيسى متن إحدى سفن أعالى البحار، وفوقه اعتدت من حين لحين أن أتجول بينهم.. صامتا، وهم مقرفصون

حول صحف الطعام، أو منجذبون إلى الصلاة بفعل ما يشتبكون فيه من خرزات المسابح، والنساء منهن من تلقم رضيعا ثديها. لقد جعل الكل من أنفسهم قاطنين بالسفينة. السفينةُ غدت لهم دارا!

ولكن ها هى ليلة فيها هبت الريح والنار والماء والتراب. وإذ ذهبت لزيارتهم ـ يجللنى صمت حبى ـ رأيت أنه ما من شيء قد تغير؛ فمنهم من واصلوا صقل الخواتم ومن ظلوا يغزلون صوفهم، ومنهم من راحوا يتحدثون بصوت خفيض؛ ناسجين ـ بلا كلل ـ أواصر ذاك المجتمع من البشر: تلك الشبكة من الصلات التى بفعلها يكون من جراء موت أحدهم يوما؛ اقتلاع شىء ما من الجميع!

وما أكثر ما سمعتهم يتحدثون ـ يجللنى صمت حبى ـ وإن قليلا ما اهتممت بمضمون أحاديثهم؛ بمروياتهم عن التفاصيل اليومية من قبيل ما يجرى فى المطابخ أو حول أسرَّة المرضى، عالما أن المعنى لا يكمن فى الشىء، وإنما فيما يتخذ إزاءه من مسلك؛ فهذا الذى يبتسم برزانة، هو فى الحقيقة من المضحين بأنفسهم، وذاك الذى تملكه الهم كان جاهلا أن مبعثه الحقيقى هو خشية الجبار، أو افتقاد الوهاب. هكذا طفقت أرقبهم، يجللنى صمت حبى!

وإذا هذا الذى لم يدروا بشىء منه، البحر الذى يعلوهم ويزاحمهم، يتخللهم بهزاته.. بطيئة رهيبة. ولما بلغ موج البحر أقصاه راح الكل يطفو؛ حتى لكأنها الغيبوبة، والسفينة بأجمعها تصطك، وكأن هيكلها انشق. وطالما ظلت الحقائق تتلاشى على هذا النحو، ترك أفراد شعبى ما بأيديهم؛ وكأن التشتت بلغ بهم أقصاه، فانقطعوا عن الصلاة وعن الحديث وعن صقل الفضة الخالصة، والنساء انقطعن عن إلقام الرضع أثداءهن. بيد أن السفينة ـ فى المرة تلو الأخرى ـ قد تخللت أخشابها من

ناحية إلى الآخرى قعقعة لا يدانيها فى عنفها سوى الإعصار؛ وتتهاوى السفينة كأنها تقعى، متثاقلة حتى لتكاد تتحطم فوق دعائمها كلها؛ وهذا الانسحاق ينتزع من البشر قيئا.

وعندئذ يتقاربون بعضهم من البعض، مثلما فى حظيرة تُخالُ متأرجحة أسفل مصابيح الزيت التى يصيب اهتزازها بالغثيان.

وخشية أن يجزعوا، بعثت بمن يقول لهم: «من منكم يشتغلون بالفضة، فليسبكوا لى إبريق، ومن منكم يعدون للآخرين الطعام فليبذلوا مزيدا من الجهد، ومن يقيمون الصلوات، فلينغمسوا فى الصلاة بأكثر من ذى قبل.

ومن رأيته شاحبًا يستند إلى إحدى العوارض؛ ليستمع عبر أخشاب السفينة المتلاصقة بسمك - إلى ما لا يباح للبحر أن يتغنى به، قلت «اهبط إلى قاع السفينة بأمرى لتحصى الخراف النافقة؛ فأحيانا يختنق منها البعض عندما تفزع، فتتزاحم».

ويجيبنى: « إن الجبار يمرج البحر. لقد قضى علينا. أسمع صرير دعامات السفينة، وما أسوأ هذا النذير؛ إذ ينبعث من ذات الأساس والهيكل! فكأنما تنذرنا أسس الدنيا التى عهدنا إليها بديارنا، وبمزروعاتنا فى الزيتون منذ الأجيال الأولى، وبنعاجنا الوادعة ذات الصوف، تلك التى في العشية تقضم - بطيئة - ما أنعم به عليها من عشب. حسن أن تدوم العناية بالزيتون المزروع وبوجبة الطعام وبالمحبة التى تعمر الدار، ولكنه ليس حسنا أن يعصف بنا الأساس ذاته! أن يعود ما تم صنعه فيستلزم أن يصنع من جديد!! وها قد نطق ما وجب عليه أن يصمت! فما الذى سيكون من أمرنا متى أصعدت الجبال هديرًا؟ أنا قد سمعت ذاك الهدير ولن أستطيع نسيانه أبدا!»

وأسأله: «أى هدير؟»

ويجيبنى قائلا: «مولاى، فيما مضى أقمت فى قرية على سفح تل آمن، قرية راسخة الجذور فى الأرض ملتحفة بالسماء، قرية أسست لتدوم، ودامت؛ وعلى حواف آبارنا، وعلى أحجار عتبات ديارنا، وحول المنحدرات المحيطة بينابيعنا: وميض من خيرات الأرض لا ينقطع! وإذا فى إحدى الليالى يهب شيء تحت أرضنا من الباطن؛ وتبادر إلى ذهننا أن الأرض تحت أقدامنا تستعيد حياتها وتتبدل. ما تم صنعه عاد يصنع من جديد! وخفنا؛ لا على أنفسنا بقدر ما خفنا على ذاك الذى أتقنا عمله، ذاك الذى بذلنا أنفسنا فى سبيله طوال العمر. خفت أنا الصائغ على إبريق الفضة الكبير الذى ظللت أشكله طيلة سنتين، الذى بذلت فى سبيله سنتين من السهاد. وارتجف الآخر فزعا على بسط من الصوف الرفيع ابتهج بنسجها: فى صبيحة كل يوم كرر تعريضها لضياء الشمس؛ يملؤه الفخر بما بذله من بدنه الواهن فى سبيل ذاك الفيض الغزير نابعا من الأعماق. وثالث تملكه الخوف على أشجار الزيتون التى زرعها. ولى أن أزعم أن واحدا منا على الإطلاق لم يخف الموت، لكننا جميعا هزنا الخوف على أشياء صغيرة تافهة. بتنا نكتشف أن الحياة لا معنى لها؛ ما لم نبذلها قليلا قليلا. إن موت البستانى ليس بما يؤذى الشجرة، لكن من يهدد الشجرة يذيق البستانى ضعف الممات!! وكان بين ظهرانينا راوية مسن يعرف أجمل حكايات الصحراء، ويزيدها طلاوة، ولم يورث معرفته إياها أحدا؛ لأنه لم يوهب أبناء. وإذ شرعت الأرض تزلج، راح يرتجف خوفا على حكايات هزيلة لن يعود أحد يشدو بها. لكن الأرض ظلت تحيا وتتشكل، وبدأ مد هائل أصفر اللون يتكون ويهبط؛ وما الذى يمكن للواحد منا أن يبذله من نفسه مقابل تجميل مدٍ زاحف ينقلب ببطء ويبتلع كل شيء! ما الذى أمكن تأسيسه على ذلك الكيان المتحرك؟!

بفعل الثقل راحت الديار تتمايل ببطء؛ وبتأثير التواء لا يكاد يلاحظ تفجرت عوارضها بغتة وكأنها براميل ملأى بالبارود الأسود، كما بدأت الحوائط ترتج حتى انفلتت بغتة. وأولئك الذين بقوا منا على قيد الحياة لم يعودوا يجدون لأنفسهم معنى، ما عدا الراوية الذى طفق يشدو؛ وقد جُنَّ جنونه!!

وأنت، إلام تمضى بنا؟ إن هذه السفينة ستغرق، ومعها ثمار ما اجتهدنا فيه! وأحس الزمن خارجها ينصرم عبثا!! أحس الزمن ينصرم! يجب ألا يجعل الزمن انصرامه على هذا النحو، بل باشتداد عود، ونضج، ثم شيخوخة. يجب على الزمن أن يستجمع الصنيع شيئًا فشيئًا. لكن ما الذى منَّا بعد الآن سيشد الزمن عوده فيدوم؟!»

٦

ورحت بين قومى ملقيا البال إلى البذل الذى لا يعود ممكنا؛ عندما لا يكون لأى مما هو ثابت دوام عبر الأجيال، وإلى الزمن الذى ينصرم عندئذ بلا جدوى؛ مثلما الساعة الرملية: تكون أحيانا بلا جدوى!

بيد أنه يجب إنشاء الخزانة الكبرى لتلقى ما سيبقى منهم، والمركبة كى تقلها؛ ذلك أننى أبجل ما يفوق البشر دواما، وبذا أحفظ للبذل ـ الذى يقومون به ـ معناه، وأؤسس «الهيكل النقال» الذى سيعهدون إليه بكل ما بذلوا أنفسهم فى سبيله. أؤسسه كأكبر ما يكون.

هكذا تأملت قومى، وأنا أجول بينهم فى نهاية المساء حين يتراخى كل شىء، وهم فى ملابسهم القديمة المجعدة على عتبات محالهم المتواضعة؛ متخففين شيئًا ما من نشاطهم الدءوب كنشاط النحل. وقد نال إتقان كعكة العسل ـ التى تعاونوا عليها طيلة النهار ـ منى اهتماما أكبر من اهتمامى بهم هم. وتفكرت، وأنا مواجه لواحد منهم كفيف البصر، بل ومبتورة ساقه أيضًا. ما أشد شيخوخته، ودنوه من الموت! وكلما رام الحركة أصعد منه بأجمعه أنينا مثلما قطعة قديمة من الأثاث، ولا يتبادل الحديث إلا بطيئا؛ فقد مسه الكبر بالغا ولم يعد بقادر على إيضاح القول. إلا أنه يواصل تضحيته فى سبيل نفس ما بدأ يبذل ذاته فى سبيلها، مُضيئا أكثر فأكثر، وواضحا أكثر فأكثر، وواعيا أكثر فأكثر؛ لأنه يضيف بيديه المرتجفتين

مزيدا إلى صنيعه، وقد أمسى هذا جوهرا أكثر صفاء فأكثر! وهو ـ المفلت بأيما روعة من بدنه المسن المتغضن ـ يمسى أكثر سعادة فأكثر، وأكثر صمودا فأكثر، وأطول بقاء فأطول! ودون أن يعلم، يفارق الحياة ويداه مليئتان بالنجوم!!

هكذا طفقوا هم يكدون طيلة حياتهم فى سبيل إثراءٍ ما له من نفع مباشر! باذلين كل ما فيهم من أجل الرونق خالصا؛ غير مخصصين لما هو معتاد، غير جانب من عملهم؛ ومكرسين سائر الجوانب كلها للإتقان: إتقان الصورة.. والصقل، وجودة المعدن؛ دون أن تكون له بالضرورة فائدة، ورقّة المنحنيات. وكلها أمور لا جدوى منها إلا فى بلوغ ما يبذلونه من أنفسهم مداه؛ كى يدوم بعد أن يهلك الجسد!

وأثناء جولاتى الممتدة فهمت تمام الفهم أن الكيفية التى تكون بها مملكتى متحضرة، لا تتوقف على كيفية الإمدادات؛ بل على تلك التى للمتطلبات، وعلى العمل بورع. ليس قوامها التملك بل العطاء. أول من يوصف بالتحضر هو الحرفى الذى أتحدث عنه؛ والذى يعيد ـ فى صنعه للشىء ـ إيجاده لنفسه؛ فيصير له الخلود جزاء على صنيعه.. ولا يعود يخشى الموت، ثم إنه جدير بنفس الوصف من يناضل ويبذل نفسه فى سبيل المملكة. لكن ذاك الآخر يتدثر بالترف الذى ابتاع مقوماته من التجار؛ وما من منفعة ستعود عليه، حتى وإن اغتذت عينه على الكمال وحده؛ طالما فاته أن يبدأ بالإبداع. وأعرف تلك الشعوب المنحطة التى لا تعود تكتب القصيد، بل تقرؤه. التى لا تعود تزرع ثراها بل تعتمد على العبيد أولا. إنما هو للتحريض على أمثال هؤلاء؛ ما تواصل به رمال الجنوب إعداد أبناء القبائل النابضة بالحياة، المستلهمين من عوزهم القدرة على الخلق والابتكار؛ كى يهبُّوا ليسلبوا أولئك، مدخراتهم العقيمة. أنا لا أحب جاعلى الدنيا فى قلوبهم! إن من لا يبادلون غيرهم شيئًا لا يكون

لهم مصير، ولن تكون للحياة أى جدوى فى إنضاجهم. وبهم سيمر الزمان كمثل قبضة من رمال؛ ويضيعهم. وما الذى أسلمه منهم إلى القدوس إذا كنت شفيعا لهم؟

هكذا عرفت عوزهم؛ والمستودع يتحطم قبل أن يمتلئ.وما وفاة السلف ليصبح ترابا بعد أن بذل من نفسه كل ما استطاع بذله، إلا روعة!

إنما الأداة هى التى تدفن وقد باتت بلا جدوى؛ ولكن الصنيع نفسه باق. وأيضًا شهدت من أبناء القبائل صغارا تنقطع أنفاسهم وتتحشرج أصواتهم وتغتمض عيونهم على بقية من وهج لا تفلح أهدابهم الغزيرة فى إخماده. ذلك أن مالك الملك عندما يعود لحصد الشعير وقد نضج؛ فإنه يقطف أحيانا زهورا يانعة اندست بين أعواده. وإذا الباقة الزاخرة بالحبوب تتكشف عن ترف زائد لا يغني.

ويوما سمعتهم يقولون: «إنه طفل إبراهيم الذى يدنو من الموت»؛ ودون أن يدروا، مضيت بخطى بطيئة إلى مسكنه؛ عالمًا أن من ينغلق فى صمت الحب لا يعود متهيبا ما يتوهمه من حيلولة اللغة دون الفهم. ولم أسترع انتباهم بتاتا؛ إذ هم منشغلون بما يبلغهم من نذر موته.

ويدور الحديث فى الدار خفيضا، وهم يمضون منزلقين بأخفافهم؛ وكأن بعض من فى الدار يخاف خوفا شديدا من أن يؤدى أدنى صوت فيه بعض الوضوح، إلى إرغامه على الفرار!! ولا أحد يجرؤ على أن يأتى بحركة، بل ولا يجرؤون على فتح باب أو إغلاق آخر، كأن ما هناك شعلة راجفة، وقودها قليل من الزيت! وعندما أبصرته أيقنت أننى أرى راحلا، زهرة يانعة اندست بين أعواد الشعير!! أنفاسه قصيرة وقبضتاه الصغيرتان كل منهما مضمومة، وعيناه مغمضتان بإصرار رافض للإبصار. ولمحتهم حوله؛ يسعون لاستئناسه، كمن يسعون لاستئناس الحيوانات

البرية الصغيرة، يقدمون له على استحياء ـ حتى ليكادون يرتجفون ـ وعاء اللبن (ربما راودته الرغبة إذا أغرته رائحته الطيبة؟) راجين منه تناولا؛ كما اعتادوا أن يفعلوا بظبية يغرونها بقضم ما فى راحة اليد!! لكنه يظل بأيما رزانة وامتناع. ما اللبن باللازم له! عندئذ بدأت العجائز برفق بالغ ـ كمثل من يخاطبن الحمائم ـ فى الغناء بصوت خفيض؛ فشدون بأغنية من بين ما أحبه من أغنيات، وهى التى عن تسع من نجوم السماء استحممن فى نبع، لكن غلب على الظن أنه ممعن فى التنائى، ولم يعد يصغى. بل يظل هاربا لا ينظر خلفه. ما أشد حرصه على الموت! عندئذ اقتصر ما طلب منه على تلك اللفتة: تلك النظرة الأخيرة يلقيها المسافر دون أن يبطئ الخطى، يلقيها على الصديق، دلالة على الامتنان. وفى فراشه قلبوه ومسحوا عن وجهه عرقه، ورووه مرغما؛ وكل هذا ربما لإيقاظه من الموت.

فارقتهم مشغولين كما هم بنصب الفخاخ له كى يبقى حيا. أوه! وما أقدر هذا الطفل ذا السنوات التسع على كشف سر تلك الفخاخ! هم أيضًا يغرونه بما يمكنه اللهو به؛ كى يجذبوه إلى السعادة. إلا أن يده الصغيرة تقسو عليهم إذ ترد ما يبالغون فى فرضه عليه؛ كما تزيح يد العدّاء الأشواك التى تتهدده فى الطريق.

قمت عائدا إلى خارج الدار. ما كان هذا الطفل إلا برهة.. ومضة.. ملمحا من بين غيره من ملامح المدينة. الطفل الذى استدعى خطأ: أجاب الدعوة! استدار إلى الجدار؛ ولم يعد حاضرا منه بينهم ما يزيد على حضور عصفور!! وتركتهم يصطنعون صمتا به يستأنسون الطفل الماضى إلى الموت.

سلكت فى الدرب طريقى. وسمعت عبر الأبواب التوبيخات الموجهة إلى الخادمات! الدار يجرى ترتيبها، وفيها تعد الأمتعة من أجل الرحلة

الليلية. لم أبال بكون التوبيخ عن حق أم عن باطل. ما أدركت سوى الحماس. وأبعد من ذلك وجدت قبالة النبع فتاة صغيرة تبكى، وتحتضن جبهتها بذراع تخفيها. لمست بيدى شعرها برفق ورفعت وجهها إلىَّ، لكن دون أن أسألها عن سبب حزنها؛ عالما تمام العلم أنها غير قادرة على معرفته!! ذلك أن الحزن هو دائما صنيع الزمن المنصرم، والذى لم يثمر صورة جلية. إنه حزن على أيام مضت، أو على حلية فقدت؛ وهو حزن سببه انصرام الزمن، أو على أخ اختطفه الموت؛ وهو حزن على عجز الزمن عن العوض! وعندما تكبر الفتاة فسيكون سبب حزنها رحيل الحبيب، هو الذى مثل فى عقلها الباطن السبيل إلى الاستقرار الحقيقى: إلى الدار الآمنة، والأطفال الراضعين من لبن الأم، والإناء الذى يعد فيه الطعام الساخن. وإذا هى تشهد انصرام الزمن عبرها دون جدوى، مثلما عبر الساعة الرملية.

ولكن ها امرأة تظهر على عتبة دارها، متألقة، وفى اكتمال بهجتها تواجهنى بنظراتها؛ ولربما رجع ابتهاجها إلى إخلاد طفل إلى نوم هنيء، أو إلى التوفيق فى طهى حساء ذى نكهة طيبة، أو لم يكن له من باعث سوى استقبال غائب عاد من سفره. ومررت بصاحبى الإسكافى ذى الساق الوحيدة، وهو منهمك فى تزيين خفيه بشعيرات من الذهب؛ وأدركت عن بينة ـ رغم أنه لم يعد بذى صوت يسمع ـ أنه يغنى!!

«أى من أمور الدنيا أيها الإسكافى، يجعلك بهذا الابتهاج؟»

بيد أننى لم أسمع إجابته؛ عالما أنه سيقع فى خطأ الحديث إلى عما ربحه من مال، أو عما يعول عليه من استقرار فى دار ينتظره فيها المأكل، غافلا عن سر سعادته؛ والذى هو فى تحوله إلى خفين من ذهب!

٧

ذلك أننى اكتشفت تلك الحقيقة الأخرى، وهى أنه باطل ظن من لا يبرحون ديارهم أنهم يستطيعون السكنى بسلام فى ديارهم؛ فإن كل دار معرضة للخطر! وكذلك المعبد الذى شيدته فوق الجبل ـ معرضا لريح الشمال ـ قد استهلك قليلا قليلا مثل صدر سفينة قدم بها العهد، وكاد يأتى عليه البلى. فهذا المعبد تحاصره الرمال، وشيئًا فشيئًا ستستولى عليه؛ ولن نعود نجد عمده إلا مطمورة بصحراء لها ثقل البحر. وكذلك كل بناء، بدءا من قصرى المتماسك؛ المكون من خراف وماعز ودور تعلو التلال، وهو ـ أولا ـ مجهود بذله حبى، ولكنه ـ إذا مات العاهل الذى به يبلغ هذا الوجه منتهاه ـ سينحل من جديد إلى خراف وماعز ودور وتلال؛ وإذا راح يضيع فى شتات الأشياء، فلن يبقى منه سوى مواد مبعثرة متاحة للاحقين من مبدعى النحوت. سيجىء من الصحراء ذووها فيهبون المواد وجها جديدا. سيجيئون حاملين تلك الصورة فى قلوبهم؛ كى ينسقوا وفقا لما يستجد من معان، حروف الكتاب القديمة.

يا أيتها الليالى الرائعة، التى شهدت حملاتى العسكرية، لن أستطيع ـ مهما فعلت ـ الوفاء بما تستحقين من احتفاء! هكذا ـ إذن ـ تصرفت أنا نفسى؛ إذ شيدت ـ على رمال لم تطأها قدم ـ معسكرى ذا الأركان الثلاثة. ثم اعتليت مرتفعا أنتظر منه انقضاء الليل، وإذ قدرت بنظرى أبعاد البقعة

الداكنة التى لا تكاد مساحتها تزيد عن مساحة أحد ميادين القرى، وحيث نزلت بمن معى من محاربين، وما معى من مطايا وأسلحة، تفكرت أولا فى وهن ذاك كله!

لم يوجد ما يستحق الوصف بالبؤس أكثر من أولئك الرجال المدثرين بغلائل زرقاء لا تستر الواحدة منها إلا نصف الجسد، يتهددهم صقيع ليل ما ملكت نجومه فكاكا، ويتهددهم الظمأ؛ لوجوب تدبر الشراب من القرب طيلة أيام تسعة تفصل بينهم وبين أقرب بئر، وتتهددهم رياح متى هبت أرتنا كيف تكون ثورة الرمال! وأخيرا تتهددهم الجروح التى تجعل بدن الإنسان يتغضن مثلما تعطن الفاكهة، فيلفظ الإنسان عندئذ وقد غدا بلا جدوى! أيضًا لم يوجد ما يستحق الوصف بالبؤس أكثر من تلك الأكياس ذات القماش الأزرق، التى لا يكاد فولاذ الأسلحة يكسبها أى صلابة، والموضوعة مكشوفة فوق مساحة تحكمها بحدودها!

لكن، فيم يهمنى هذا الوهن؟ أنا أربط بينهم وأنقذهم من التشتت ومن الهلاك. وبمجرد تهيئى لليل بمعسكرى ذى الأركان الثلاثة: ميزت بين المعسكر وبين الصحراء. المعسكر ينغلق كالقبضة، وعلى نفس النحو رأيت شجرة الأرز تتأسس بين حصى وحجارة، وتنقذ اكتمال تفرعها من الدمار؛ ذلك أن شجرة الأرز هى الأخرى لم تعد تعرف النوم، وهى تناضل ليل نهار بما لها من سمك، وتغتذى ـ فى عالم يناصبها العداء ـ على نفس العناصر المدمرة لها! شجرة الأرز تتأسس فى كل لحظة. وأنا فى كل لحظة أؤسس دارى حتى تدوم. ومن هذا التجميع الذى لأمكن لأى عصف ريح أن يشتته: أخرج بهذا الأساس الثلاثى؛ الصامد كالبرج والباقى على الدهر كصدر السفينة. وخوفا من أن يغشى النعاس معسكرى ويتساقط فى الغفلة، حصنته بعسس يلقون أسماعهم إلى همهمة الصحراء، ومثلما تستوعب شجرة الأرز ما حولها من حصى كى تجعل منه مادة لها؛

يغتذى معسكرى على الأخطار القادمة من الخارج. بوركت الإدلاءات الليلية! وناقلوها الكتم[1] الذين يظهرون حول حلقات الاستدفاء بالنار؛ قبل أن يشعر أحد بقدومهم، ويقرفص الواحد منهم تلو الآخر؛ ليروى هذا عن مسيرة أولئك الذين يتقدمون شمالا، وذاك عن مضى قبائل فى الجنوب بحثا عن إبلها المختطفة، ويذكر ثالث ما يتردد لدى آخرين عن جريمة ما، ورابع يفيض فى الحديث عن مشروعات أولئك الذين يجللون صمتهم بغلائلهم ويتفكرون فى الليالى المقبلة. سمعتهم أنت: الرسل الذين يجيئون ليحلوا السرد محل الصمت. بورك هؤلاء الذين يظهرون فى ضوء نيران استدفائنا بأيما مباغتة؛ وفى كلماتهم الفاجعة ما يؤدى إلى إخماد النيران بالرمال وانبطاح الرجال خلف بنادقهم جاعلين المعسكر يتحلى بأكليل من سحب البارود.

ذلك أن الليل ما أن ينسدل إلا ويصير مصدرًا للخوارق!

هكذا رحت كل مساء أتأمل قواتى حبيسة المساحة المحدودة مثلما السفينة فى البحر، ولكنها باقية على الأيام، وأنا عالم تمام العلم أن النهار سيظهرها مصونة سالمة، ومفعمة على أكملها ببهجة الاستيقاظ مثلما الديكة. عندئذ؛ فبينما تجهز المطايا يسمع دوى أصوات لها فى الصباح الطازج رنين الأبواق النحاسية، ويملأ الرجال رئاتهم من جديد بالهواء وكأنهم منتشون برحيق النهار الوليد؛ ويلتذون بمتعة الاتساع الفجة.

وأمضى بهم إلى الواحة المراد غزوها. إن أيا ممن لا يفهمون البشر؛ لباحث فى الواحة نفسها عن عقيدة أهلها، لكن ذوى الواحة يجهلون موئلهم! وإنما هو فى قلب معسكر تنهشه الرمال، ذلك الموضع الواجب اكتشافها فيه. لأن هذا الحب هو ما أسعى أنا إلى التعريف به.

---

(١) «الكتم» (بضم التاء): جمع «كتوم». المترجم.

وأقول لرجالي: «هناك ستجدون العشب العطر، وشدو المنابع ونساء ذوات غلائل طويلة ملونة؛ يهربن خائفات كقطيع من ظباء رشيقة، ولكنها هينة متى استولى عليها؛ إذ جعلت للوقوع في الأسر..».

وأقول لهم: «يحسبن أنهن يمقتنكم، وسيستخدمن الأنياب والأظافر لصدكم. ولكن ستكفيكم لإخضاعهن قبضاتكم المشتبكة بخصل زرقاء من شعر رءوسهن!»

وأقول لهم: «ستكفيكم ممارسة قوتكم هونا لكي تبقوهن ساكنات؛ وسيواصلن إغماض الأعين كي يتجاهلنكم، ولكن صمتكم سيثقل عليهن مثلما ظل النسر.. عندئذ فأخيرا سيفتحن أعينهن ليبصرنكم، وستملأونها دموعا!

لتكونَنّ أنتم أقصى ما يبلغن من عظمة! كيف ـ إذن ـ سيغفلن عنكم؟!»

وختاما قلت لهم؛ لكي ينتشوا بريح تلك الجنة: «إذن، فستلاقون هناك بساتين النخيل العامرة، وطيورا مختلفة ألوانها.. ستستسلم لكم الواحة؛ لأنكم تحملون في قلوبكم عقيدتها؛ بينما لم يعد من تطاردونهم جديرين بحمل عقيدة الواحة في قلوبهم!!ونساؤهم أنفسهن سيعتقدن ـ وهن يغسلن أقمشتهن في النهر الذي يشدو، فوق أحجار صغيرة بيضاء مستديرة ـ أنهن يؤدين أحد الواجبات العامة التي لا تبعث الفرح؛ حين يحتفلن بأي من الأعياد. لكنكم أنتم؛ وقد صارت جلودكم خشنة بفعل الرمال، وجففت الشمس أبدانكم، وجُعلتم لاذعين كالملح؛ بفعل الملاحات وما يعلو كلا منها من سطح حارق: ستتزوجونهن وتستملحون انتصاركم وأنتم تشاهدونهن وأيديكم على خصوركم: يغسلن الأقمشة في الماء الأزرق.

اليوم تدومون فى الأرض، كما تدوم شجرة الأرز مستمدة مما حولها فى الرمال قوتها. وأنتم ستستمدون قوتكم مما يحيط بكم من أعداء يجعلونكم أكثر صلابة. ستدومون فى الواحة، وقد قهرتموها! على ألا تكون الواحة لكم المأوى الذى يحتبس فيه المرء ويغفل، بل انتصارا مستديما على الصحراء.

أولئك قد قهرتموهم لأنهم احتبسوا فى أنانيتهم، راضين بما لديهم من مؤن. ما أدركوا إكليل الرمال المحيط بهم إلا كزينة للواحة؛ ساخرين ممن ألحوا عليهم وسعوا إلى استنفارهم كى يهبّ العسس من نومهم، ويستعيدوا مواقعهم على عتبة وطن عامر بالمنابع.

لقد قبعوا فى وهم سعادة استقوها من خيرات ملكوها، بينما السعادة ليست إلا وليدة دفء المعاملات بين البشر ورضاهم بالخليقة. إن من لا يعودون يبذلون من أنفسهم شيئا ويتلقون من غيرهم زادهم، يستمتعون بالواحة ولا يديمون حياتها؛ حتى إن انتقى لهم من الطعام أفضله وأفخره، وهم أنفسهم الذين يزين لهم حذقهم أن يستمعوا إلى قصائد أجنبية عنهم ولا يكتبوا قصائدهم، وهم ينشدون إنشادا أمدوا بها وليسوا هم مبتدعيها. أولئك قد ارتبطوا بما فى حظائرهم من مزاود، ولم يعد لهم من الأدوار سوى ما يماثل دور البهائم؛ وباتوا مهيئين لأن يستعبدهم غيرهم».

وأقول لأفراد شعبى: «متى تم الاستيلاء على الواحة، فلا يغيرن لكم هذا شيئا ذا جوهر! إن هى إلا صورة أخرى من صور إرساء المخيمات فى الصحراء؛ ذلك أن مملكتى متهددة من جميع الجوانب، وما قوامها إلا تجميع مألوف من ماعز وخراف وديار وربى: لكن إذا انفصم المعقد الرابط بينها بعضها والبعض؛ فلن يبقى غير مواد مبعثرة سلبها متاح».

٨

بدا لى أنهم مخطئون بشأن التبجيل؛ ذلك أننى أنا نفسى لم أنشغل بسوى حقوق الخالق، وفى انشغالى تجاوزت الإنسان. ويقينا أن المتسول نفسه قد فهمت وجوده ـ دون أن أبالغ فى تقديرى لأهميته ـ كوفادة من لدن الإله.

أما عن حقوق المتسول وقروحه، وسائر مظاهر قبحه؛ التى تنال التبجيل: فإن كل هذا الذى يبجل بمثلما الأوثان، لم أعترف به.

أليس أن الأكثر تنفيرا لى من بين كل ما مر بى، هو ذلك الحى من المدينة المبنى على سفح تل، والمنحدر إلى البحر مثلما تتدلى أنابيب الصرف؟!

والمسالك الضيقة المفضية إلى الدروب تبعث نفثات رخوة من رائحة منتنة. ومن تلك الأعماق الكثيرة الثقوب كالإسفنج، لا يبرز الرعاع إلا لبسوا بعضهم بعضا بأصوات متهالكه لا يشحنها غضب حقيقى؛ على نحو الفقاقيع الرخوة التى تنجس بانتظام على سطح المستنقع.

هناك رأيت ذاك الأبرص، كثير الضحك والمنهمك فى مسح عينه بقطعة من القماش قذرة. لا تميزه إلا فظاظة؛ ومن فرط انحطاطه يهزأ بنفسه!! وقرر أبى الحريق؛ وبدأت ثورة تلك الحثالة المستمسكة بالشقوق

العفنة، تستند فى مطالبتها بالكف عن الحريق، إلى حقوقها: الحق فى البرص والحق فى العفن!!

وقال لى أبى: «إن هذا لطبيعى؛ فإن العدالة فى عرفهم هى إدامة ما هو موجود».

ويصيحون باسم حقهم فى القذارة، ذلك أنهم ـ إذ تأسسوا فيها ـ مناصرون لها!!

ويقول لى أبى: «إذا تركت الصراصير تتكاثر، فعندئذ ستنشأ حقوق الصراصير؛ والتى ستبدو جلية!! وسينشأ مرتلون تسمعهم يمجدونها. سيتغنون على مسامعك بمدى عظمة أشجان الصراصير المهددة بالانقراض!»

ويقول لى أبى عن العدالة: «يجب الاختيار: العدل بالملاك أم بالإنسان؟ العدل بالسقم أم بالبدن السليم؟ بأى هدف لقى بسمعى إلى ذلك الذى يجيئنى متحدثا إلىَّ باسم وباء أصابه؟!

بيد أننى سأعالجه بوازع من الحق ـ ذلك أنه هو أيضًا موئل للحق ـ لا بوازع من رغبته هو؛ وما هى إلا رغبة ينطق بها القرح.

ومتى نظفته وغسلت عنه ما به وعلمته فعندئذ ستختلف رغبته؛ وسينكر بنفسه ما كان فى نفسه. ولماذا أكون أنا حليفا لذلك الذى هو منكره بنفسه؟ ولماذا أحول دون ميلاد ذلك المقدر له أن يتجمل؛ نزولا منى على رغبة الأبرص الفظ؟ لماذا أنحاز إلى ما هو كائن ضد ما سيكون... أنحاز إلى ما يتبلد ضد ما يدوم بقوة؟»

ويقول أبى: «إن العدالة فى عرفى هى تكريم المؤتمن بسبب ما أؤتمن عليه بقدر ما أكرم نفسى؛ ذلك أن نفس الضوء يستشف منه، ومهما قلت

القدرة على رؤيته فيه. إن العدالة هى اعتباره وسيلة انتقال، وسبيلا! والإحسان الذى سيبدر منى هو جعله هو يولد من نفسه.

لكن فى أنبوبة الصرف المكبرة تلك المتجهة إلى البحر كى تغوص فيه.. فى ذلك الحى الذى أمرت بإحراقه: أجدنى حزينا أمام القذارة. ما أشد إهانتها للعاطى الوهاب! أنتظر منهم الإشارة التى تظهر لى الإنسان الكامن فى الأعماق؛ وعبثا أنتظر، ولا أتلقى الإشارة!». وأقول لأبى: «لكننى قد رأيت هذا أو ذاك يتقاسم خبزه مع غيره، ويعين من هو أقذر منه على إفراغ حقيبته، أو يبدى الشفقة على طفل مريض..».

ويجيب أبى: «إنهم يجمعون الأشياء كلها بعضها إلى البعض، ومن ذاك المزيج يجىء إحسانهم. إنهم يتقاسمون. إلا أنهم فى حلفهم ذاك الذى تستطيع أن تعقده أيضًا الضباع حول الجيفة: يرومون إعلاء شعور نبيل! يرومون أيها منا بأن ما هناك هو عطاء! بيد أن قيمة العطاء تتوقف على ذلك الذى يوجه العطاء إليه. وهو فى حالتهم يوجه إلى الأشد انحطاطا، مثلما تعطى الخمر للثمل فيجرعها! وبذا فإن العطاء داء! ولكن إذا كنت أنا أعطى العافية؛ فعندئذ أنا أبتر من هذا البدن، وأستجلب على نفسى البغضاء. إن المعنى الذى تربطه مملكتى بالعدالة هو التعاون!».

ولكننى استشعرت أيضًا طيبة قلب أبى؛ هو القائل: «إن أيا ممن اعتلوا موقعا رفيعا.. ممن نالوا تكريما، لا يمكن تحقيره. إن أيا ممن سادوا، لا يمكن سلبه ما ساد عليه. لا يمكن تحويل من أعطى المتسولين، إلى متسول؛ ذلك أن شيئا مثل هيكل السفينة وصورتها هو الذى يتعرض عندئذ للعطب! لذا أوقع العقاب بكل مذنب على مستوى ما بلغه ـ يوما ما ـ من مكانة؛ فأولئك الذين قدرت أن أنعم عليهم ثم أجرموا: لا أنحط بهم إلى درك العبيد بل أعدمهم!! لاقيت يوما أميرة صارت تشتغل بغسيل الأقمشة،

وزميلاتها يسخرن منها: «أين مملكتك، أيتها الغاسلة للأقمشة؟ كنت بقادرة على إسقاط الرءوس، ثم فى النهاية نقدر على تلطيخك بإهاناتنا دون تعرض للعقاب. إن هو إلا عدل!»؛ ذلك أن العدل فى مفهومهن هو العوض.

وتسكت المشتغلة بالغسيل؛ ربما شاعرة بالمذلة، حسرة على نفسها، ولكن أولا لشىء هو أعظم منها هى نفسها. وتنحنى الأميرة شاحبة وشديدة التصلب على مغسلها، وزميلاتها يدفعنها بمرافقهن دون تعرض للعقاب.

لم يكن فيها أى مما يمكن أن يحفز ضدها؛ فقد كانت مليحة الوجه، متحفظة اللفتات، تلزم الصمت. وأدركت أن النساء لا يعيرنها إلا بخسارتها؛ ذلك أن من يحسد أحدا ثم يجده واقعا فى براثنه: يفترسه! إذن فقد أمرت بمثولها أمامى.

لا أعرف عنك سوى أنك سدت يوما ما. وبدءا من يومنا هذا سيكون لك حق الاستحياء والإماتة على زميلاتك فى المغسل. أعيد إقرارك على إمارتك. هيا!

وعندما استعادت موقعها على رأس قومها، ومنهم تلك الحثالة الفظة: أبت ـ عن صواب ـ أن تتذكر الإساءة. ونفس تلكن اللاتى كن فى المغسل يغذين سرائرهن على التشفى فيها؛ بتن ينهلن من نبلها ويبجلنها. وأقمن لها احتفالات كبرى تمجيدا لعودتها إلى عرشها؛ وشهدتهن الشوارع ينحنين عند مرور الأميرة بهن؛ وقد أنعم عليهن ـ هن أنفسهن ـ بالنبل؛ لمسهن إياها بأيديهن فى وقت مضى»!!

ويقول لى أبى: «لذا لن أخضع أى أمراء أعاقبهم لإهانات الحشد ولا

لبذاءات السجانين؛ بل سأقطع رءوسهم فى ساحة كبرى تحفها أبواق ذهبية»

ويقول أبى: «إن كل من يسعى إلى الانحطاط بغيره؛ فإنما لأنه هو نفسه منحط».

ويقول أبى: «يستحيل إلى الأبد أن يصير رعايا زعيم، قضاته!».

٩

هكذا حدثنى أبى:

«أرغمهم على أن يشيدوا معا برجا وستجعلهم إخوانا. أما إذا أردت أن يبغضوا بعضهم بعضا فألق إليهم قمحًا!».

ويقول لى أيضًا:

«لقد رأيت راقصات يصممن رقصاتهن؛ ويقينا أن ثمار جهودهن لم تقتطف متى صممت الرقصات وأديت، ولا مضى بها أحد ليستكمل بها مئونات؛ فإن الرقصة وهج يشاهد ثم ينقضى. إلا أننى أصف بالتحضر شعبا يصمم الرقصات، رغم أن الرقصات لا محصول لها ولا مستودع. بينما أصف بالوحشية شعبا يصف فوق رفوفه أشياء نتجت عن صنيع الآخرين، مهما كانت ثمينة؛ وحتى إذا أبدى أفراد هذا الشعب قدرتهم على الانتشاء بكمال تلك الأشياء».

ويقول أبى: «إن الإنسان هو أولا ذلك الذى يبدع؛ وليسوا إخوانا سوى من هم ـ من بنى الإنسان ـ يتعاونون فيما بينهم. ولا يظلون أحياء سوى من لم يكتفوا بما جمعوا من مئونات، وواصلوا سعيهم إلى السلام!»

ويوما ما وُوجه أبى باعتراض:

«ما الذى تدعوه إبداعا؟ إذا كنت تعنى ابتكارا يسترعى الملاحظة؛ فإن قليلين هم القادرون على مثل هذا. ومنذئذ تقتصر إشارتك على البعض فقط. أما غيرهم؟»

وأجاب أبى قائلا:

«الإبداع: هو ربما نقص خطوة ما فى رقصة ما، أو خطأ فى توجيه الأداة أثناء تشكيل الحجر. ما من أهمية لبلوغ البادرة منتهاها! يبدو هذا المجهود عقيما لك أنت، وقد أعماك قربك الشديد. ولكن تراجع! وانظر من مدى أبعد إلى حركة ذاك الحى من البلدة: لم يعد هناك سوى حماس بالغ وغبار ذهبى صاعده العمل؛ والبوادر التى لم تبلغ منتهاها لا تعود تلاحظ! إن هذا الشعب العاكف ـ شاء أو أبى ـ على العمل، يقيم قصوره وصهاريجه أو حدائقه المعلقة. صنائعه تولد كأنما بالضرورة من سحر أنامله. أقولها لك: «إنها تولد من أولئك الذين تطيش بوادرهم بمثلما تولد من أولئك الذين يحالفهم فيها الصواب»!! ذلك أن الإنسان لا يمكن تقسيمه. ومتى أبقيت على كبار النحاتين وحدهم فستحرم من كبار النحاتين!! من ذا الذى سيبلغ به الجنون اختيار مهنة يقل القوت الذى تعود به إلى هذا المدى؟ إن النحات البارع ينجم من طينة النحاتين المخفقين. هم له سلم وهم الذين يرفعونه. والرقص الجميل يولد من الحماس للرقص: والحماس للرقص يقتضى أن يرقص الجميع، حتى أولئك الذين يسيئون الرقص! وإلا فلا يوجد حماس؛ بل متحف للشمع، واستعراض لا دلالة له!! لا تحكم على أخطائهم على نحو ما يفعل المؤرخ الذى يحكم على عصر انقضى سلفا. أما شجرة الأرز فمن ذا الذى سيأخذ عليها كونها بعد بذرة أو ساقا أو غصنا ينمو معوجا؟! دع الأمور؛ ومن خطأ إلى خطأ ستعلو غابة من أشجار الأرز، تنثر ـ يوم تهب الريح عاتية ـ عبق طيورها». وختاما قال أبى:

«قلتها لك من قبل: «خطأ الواحد وصواب الآخر، لا تقلقنك هذه الفوارق. ليس خصبا إلا التعاون العظيم الوثيق بين الواحد والآخر. والبادرة المخطئة تعود بالنفع على البادرة التى يحالفها الصواب. والبادرة التى تنجح تشير إلى الغاية المستهدفة بالتشارك؛ فتتضح لذلك الذى فاته بلوغها. من يدرك البارئ الشافى، فإنما من أجل الجميع؛ ذلك أن مملكتى شبيهة بمعبد، وبنو الإنسان مدعوون لديَّ... استضفت بنى الإنسان ليشيدوا المعبد؛ وإذن فإنه معبدهم. ووجود المعبد يستخلص منهم أرفع ما لهم من دلالة. ويبتكرون الزخارف؛ وذلك الذى سعى فلم يفلح، أيضًا يبتكرها؛ فإنما من الحماس أولا تولد الزخارف الجديدة»!

وأذكر قول أبى فى موضع آخر:

«لا تبتكر مملكة يكون كل شىء فيها بالغ الكمال؛ فإنما الذوق الرفيع ميزة حارس المتحف! وإذا احتقرت الذوق الردىء فلن تملك رسما ولا رقصا ولا قصرا ولا حدائق.

ستكون كالذى جعله خوفه من الاتساخ مشمئزا من كل ما فى الأرض؛ وستحرم صنيع الأرض بفعل ما فيك من خواء سببه إصرارك على الكمال! حسبك أن تبتكر مملكة يكون كل شىء فيها حماسا!!»

١٠

سقطت جيوشى فى قبضة الإعياء كأنما بتأثير حملها عبئا ثقيلا؛ وجاءنى نقباء كتائبى قائلين: «متى سنقفل إلى ديارنا؟ إن مذاق نساء الواحات السلبية لا يدانى مذاق نسائنا!» ويقول لى أحدهم: «مولاى! أحلم بتلك التى جعلت من زمانى، من شحانى. أريد العودة والزراعة على هواى. مولاى! توجد حقيقة لم أعد أستطيع بلوغ أغوارها. دعنى أنمو مجللا بصمت قريتى. أنا فى حاجة إلى تأمل حياتى!»

وفهمت أنهم فى حاجة إلى الصمت؛ فإنما هو فى الصمت وحده ما يكتمل من ترابط حقيقة كل امرىء واكتسابها جذورًا. ذلك أن للزمن أولا حسابه بمثلما عند الإرضاع. والأم يجىء حبها أولا من الإرضاع. ومن ذا الذى يرى الطفل ينمو فى الحال؟ لا أحد. إنما الذين يقدمون من موضع آخر هم الذين يقولون: «ما أشد نموه!». أما الأب والأم، فإنهما لم يرياه ينمو. لقد صار... فى الزمن، وقد كان فى كل لحظة... ما يجب أن يكون.

ها هم إذن رجالى بحاجة إلى الزمن، ولو لفهم شجرة... للجلوس كل يوم فى الموضع نفسه؛ لمشاهدة الشجرة نفسها، ذات الفروع نفسها!

وها هى الشجرة تتكشف قليلا قليلا.

ذلك أنه فى مساء ما، بالقرب من نار للاستدفاء فى الصحراء: حكى

ذاك الشاعر عن شجرة ولا شيء غيرها. ومن رجالي المصغين إليه وُجد كثيرون لم يروا إطلاقا إلا عشبا تقتات عليه الإبل، وأقزاما من نخيل شائك. ويقول لهم الشاعر: «ما أدراك ما الشجر، لقد رأيت منه ما اتفق أن ترعرع داخل دار مهجورة لا نوافذ لها؛ كانت له مأوى، وانطلقت الشجرة بحثًا عن الضوء؛ فإن على الشجرة أن تنغمس فى الضياء، مثلما على الإنسان أن ينغمس فى الهواء، وعلى السمكة أن تنغمس فى الماء؛ ذلك أن الشجرة الضاربة فى الأرض بجذورها، وفى الكواكب بفروعها؛ هى طريق تتخذه التبادلات الجارية بين النجوم وبيننا. وإذن فقد بسطت هذه الشجرة ـ التى ولدت عمياء ـ فى الليل عضلاتها القوية وتخبطت من حائط إلى آخر وترنحت؛ والمأساة قد نقشتها الالتواءات التى طرأت على الشجرة فى نموها الشاق. ثم انبثقت هى منتصبة كساق عمود، بعد أن حطمت موضعا من البناء؛ لتتخذ كوة تخرج منها إلى الشمس المسلطة على ذاك الموضع. وأنا قد شهدت خطوات انتصارها كما يجب أن يشهدها المؤرخ المحايد: متراجعا إلى بعد مناسب!

لم تعد الشجرة تعانى من الالتواءات التى حفلت بها حين جاهد جذعها فى محبسه الشبيه بالتابوت، بل على العكس تجلت روعتها فى ازدهارها بهدوء؛ وقد بسطت خضرة عارمة حيث جادت الشمس، وبعد أن أرضعتها السماء؛ غذتها العناية الإلهية من عليائها.

«شاهدتها كل يوم فى الفجر من رأسها إلى قاعدتها تأخذ فى الاستيقاظ؛ هى المحملة بالطيور! ومنذ الفجر تبدأ الحياة والغناء. ثم ما إن تبزغ الشمس إلا وتطلق حمولتها فى السماء فتنتشر انتشار قطيع يفرج عنه راع مسن حليم!! شجرتى التى هى دار... شجرتى التى هى قصر يظل خاويا حتى المساء!!»

هكذا حكى لنا؛ وبتنا نعرف أن علينا تأمل الشجرة مليا كى تولد بالمثل فينا نحن. ومن حمل فى قلبه كتلة الأوراق والطيور تلك، لم يسلم من غيرة الآخرين.

ويسألوننى: «متى، متى تنتهى الحرب؟ نريد أيضًا أن نفقه شيئًا ما. آن الأوان لنا أن نصير..».

وإذا ما أسر أحدهم ثعلبا من ثعالب الرمال لم يكبر بعد، واستطاع إطعامه بيديه، فإنه داوم إطعامه (وقد يفوز بإحدى الظباء أحيانا؛ متى ارتضت ألا تموت) ويوما تلو يوم يغدو ثعلب الرمال أثيرا لديه بأكثر من ذى قبل، ويعتز باكتنازه فراءه الحريرى، ويستمتع بتخابثه، وقبل هذا وذاك ترضيه استجابته لاحتياج إلى الغذاء يتطلب بالضرورة عناية المحارب. وهو يحيى على توهمه قدرته على نقل شىء من نفسه إلى الحيوان الصغير، كما لو كان هذا يقتات على حبه لا على الغذاء المعتاد وحده؛ ومن هذا الحب يتخذ شكله وتكوينه.

ثم جاء يوم فيه هرب فى الرمال الثعلب الذى رعاه الحب؛ وبضربة واحدة أفرغ فؤاد الرجل.. وهذا رأيته يموت لأنه تراخى فى الدفاع عن نفسه داخل أحد فخاخ العدو. واسترجعت ذاكرتى ـ حين أتانى نبأ موته ـ الجملة الغامضة التى فاه بها بعد هرب ثعلبه، عندما لم يخف حزنه على رفاقه، فاقترحوا عليه أسر آخر؛ فأجاب قائلا «إن الصبر المستلزم ـ لا لحيازته؛ بل لحبه ـ يفوق طاقة المرء».

رغم هذا فها هم قد ملوا الثعالب والظباء، إذ أدركوا بطلان ما يبذلونه؛ فإن الثعلب الهارب بحبهم إلى الصحراء. لا ينفق على الصحراء ـ من حبهم ذاك الذى هرب به ـ ما يثريها!!

١١

هم مخطئون، ولكن ما الذى أنا بقادر عليه بهذا الشأن؟ بخمود اليقين يختفى البر ولا تعود جدواه بادية، وبنفاد حماسم تتفكك المملكة نفسها؛ فإنها من صنيع حماسهم، وما حماسهم هذا بزائف. أمّا إن حسبت صفوفًا من أشجار الزيتون ـ وكوخًا يأوى إليه القائمون عليها ـ أملاكا؛ وأحبها متأملها واحتفظ بصورتها فى قلبه: فإنه متى عاد فلم ير فيها بعد غير صف بين غيره من صفوف الأشجار التى يتوسطها كوخ، يصعب الاهتداء إليه ولم يعد له من دلالة سوى أنه يؤوى من يعتصمون من الأمطار: فلا عاصم عندئذ للأملاك من التشتت؛ فمن ذا الذى سيحميها من أن تباع وتتفرق، طالما يظل الكوخ على حاله ـ كما تظل الأشجار أيضًا ـ إذ لم يمسس البيع هذا أو تلك بأى تغيير؟! إن الواجب على الإنسان هو الاعتداد بمعنى الأشياء فقط.

يقينا، إننى أعرف العامل بالحدادة فى قريتى، ولسان حاله القائل: «إن ما لا يخصنى ليس له عندى من أهمية. إن وهبت ما يفى باحتياجى من مخزون للشاى وللسكر، وإن أحسنت تغذية حمارى وظلت امرأتى فى كنفى، وإن تقدم بأبنائى العمر واكتسبوا فيه الفضائل؛ فقد اكتملت عندئذ سعادتى ولم أعد أطلب أى شيء آخر.

لماذا إذن، هذه المعاناة؟»

وكيف يكون سعيدًا، وهو وحيد فى العالم داخل مأواه؟ كيف يكون سعيدًا، إذا كان يقيم هو وأسرته فى خيمة يصعب الاهتداء إليها وسط الصحراء؟ أرغمه إذن على تصويب أقواله:

«إن كنت تلتقى فى المساء بأصدقاء آخرين فى خيام أخرى، إن كان لدى هؤلاء ما يقولونه لك وما ينبئونك به عن الصحراء...»

ذلك أننى رأيتكم، لا تنسوا هذا! رأيتكم حول حلقات الاستدفاء فى المساء منشغلين بشى الشاة أو الجدى، وسمعت أصواتكم تنطلق؛ وإذن فقد اقتربت منكم بخطى بطيئة، يجللنى صمت حبى. يقينا أن أحاديثكم دارت عن أنجالكم، وعن هذا الذى كبر وذاك الذى مرض. يقينا أنكم تحدثتم عن دياركم، ولكن دون إلحاح زائد. ولم تكن تبدأ استثارتكم إلا عندما يجلس بينكم الرحال الذى ترك قافلته النائية وجاءكم ليأخذ فى تفصيل ما لم تعرفوه من عجائب، وما ملكه أمير من أفيال بيضاء، ويحكى لكم قصة زفاف ـ بعد موقعه بمئات الأميال ـ بطلتها أميرة لا تكادون تعرفون اسمها، أو عن شهاب سقط أو عن عار لحق أو عن غرام أو عن شجاعة فى مواجهة الموت، أو عن حقد عليكم أو عن احتياج شديد لمعونتكم. عندئذ كنتم تكتسبون مساحة وترتبطون بعديد من الأمور؛ وعندئذ ترتبط دلالة بما تملكون من مخيم محبوب وممقوت، متهدد ومصون!! عندئذ اشتبكتم بأحابيل معجزة غيرت ما بأنفسكم، فجعلتكم أرحب مما كنتم!

ذلك أنكم عانيتم الاحتياج إلى اتساع سيفضى بكم إليه التخاطب وحده.

أذكر ما حدث عندما أنزل أبى اللاجئين الأفارقة البالغ عددهم ثلاثة آلاف، فى معسكر بشمال البلدة. لم يكن يريد أن يختلطوا بذوينا. ما أشد

طيبة قلبه! لقد أطعمهم وزودهم بالكساء وبمؤن، منها: السكر والشاى؛ ولكن دون أن يطلب منهم أن يعملوا نظير ما تكرم بإعطائه لهم. وهكذا لم يعد يوجد ما يقلقهم بشأن معاشهم؛ وأمكن لكل منهم أن يقول: «ما لأهمية عندى لما لا يخصنى. إن وهبت ما يفى باحتياجى من مخزون للشاى وللسكر، وإن أحسنت تغذية حمارى وظلت امرأتى فى كنفى، وإن تقدم بأبنائى العمر واكتسبوا فيه الفضائل؛ فقد اكتملت عندئذ سعادتى، وما أطلب أى شيء آخر..».

لكن من ذا الذى أمكن أن يظنهم سعداء؟! كنا نذهب أحيانا لزيارتهم عندما يرغب أبى فى تعليمى.

يقول: «أبصر! إنهم يصيرون بهائم ويبدءون رويدا فى الفساد... لا بأبدانهم، بل بقلوبهم».

ذلك أن كل شىء فقد لديهم دلالته. إن كنت لا تراهن على ثروتك بالنرد فلا يزال من الخير أن تكون للنرد دلالة الأملاك والقطعان وسبائك الذهب والماسات، وكل هذا بعيد عن متناولك. لكن تجىء الساعة التى فيها لا يمكن للنرد أن يمثل شيئًا بعد؛ ولا تعود المراهنة ممكنة!

وهاهم المتمتعون بحمايتنا، لا يعودون يجدون ما يقولونه بعضهم للبعض؛ فقد استهلكوا أقاصيصهم العائلية التى تتشابه كلها بعضها بالبعض، وانتهوا من وصفهم خيامهم بعضهم للبعض؛ وخيامهم كلها متشابهة بعضها بالبعض، ولم يعودوا يخشون، أو يأملون، أو يبتكرون. ظلوا يعتمدون على التخاطب؛ لقضاء حاجات أولية؛ فأمكن أن يقول أحدهم: «أعرنى موقدك»، وأمكن أن يقول الآخر «أين ابني؟». فما الذى يمكن أن يرغب فيه بشر ظنوا أقصى متطلباتهم ـ من مرقد ومأكل ـ قد

أجييت؟ ما الذى فى سبيله قاتلوا؟ الخبز؟ لقد نالوا منه. الحرية؟ ولكنهم فى حدود عالمهم تمتعوا بحرية لا نهاية لها. بل غاصوا فى هذه الحرية المفرطة المشابهة لتلك التى يسىء استخدامها بعض الأثرياء!! الانتصار على أعدائهم؟ ولكنهم لم يعد لهم أعداء!

قال لى أبى: «تستطيع أن تجىء بسوط، وتجوب المعسكر، وتجلد أبدانهم بل وجوههم؛ ولن تستثير منهم أكثر مما يستثار من عصبة من الكلاب؛ إذ تزمجر متراجعة، وقد يود كل منها أن يعقر، ولكن أحدا منها لا يجازف؛ ولا يصيبك أذى ولا يعقرك أى من الكلاب. تقف أنت عاقدا ذراعيك؛ مبديا الاحتقار».

وأيضًا يقول لى: «لا يوجد هنا إلا هياكل عظمية لآدميين. لكن الإنسان لم يعد فيها. قد يقتلونك بنذالة، قادمين من خلفك؛ فإن الحثالة تبدو خطرة. لكنهم لن يحتملوا نظرتك».

وبالرغم من ذلك فإن الشقاق حل بينهم مثلما الوباء. شقاق متنافر لم يقسمهم إلى معسكرين، بل جعل منهم جميعا أعداء لأى منهم! فإن ذلك الذى راح يأكل نصيبه من المؤن، عد مغتصبا. أخذوا يرقبون بعضهم بعضا مثل كلاب تحوم حول مستودع للزاد؛ وها هم باسم عدالتهم يرتكبون جرائم قتل! ذلك أن مفهومهم للعدالة هو أنها أولا مساواة. وأيا كان من يبرز فى أى شىء كان، يسحقه الكم!!

ويقول لى أبى «إن الحشد يمقت صورة الإنسان؛ لأن الحشد متنافر؛ يندفع إلى جميع الاتجاهات فى نفس الوقت ويلغى الجهد المبدع.

«يقينا، إنه سيئ أن يسحق الإنسان القطيع. ولكن لا تظن فى ذا أشنع ضروب العبودية؛ فإنما الأشنع هو سحق القطيع للإنسان!»».

وهكذا، فباسم حقوق مبهمة أمدت الخناجر التى تبقر البطون، بجثث - أضيفت إلى سابقاتها - كلما حل الليل؛ ومثلما يلقى بالقمامة كانت الجثث تسحب فى الفجر إلى حواف المعسكر حيث تعبأ بها مقطوراتنا مثلما تعبأ بالنفايات. وتذكرت كلمات أبى: «إذا أردت أن يصيروا إخوانا؛ فأرغمهم على أن يشيدوا برجا. أما إذا أردت أن يبغضوا بعضهم بعضا فألق إليهم قمحا!».

وأدركنا أنهم يغفلون - قليلا قليلا - استخدام الكلمات التى لم تعد تجديهم. وجال بى أبى بين تلك الوجوه البلهاء الخالية من كل تعبير؛ فنظر أصحابها - وكأنهم مغيبون - إلينا دون أن يعرفونا. لم يعودوا يصدرون غير زمجرة غامضة بها يطالبون بالغذاء. يتبلدون دون أسف ولا رغبة ولا بغضاء ولا محبة. وسرعان ما أقلعوا حتى عن الاغتسال ولم يعودوا يقضون على حشراتهم؛ فتكاثرت! عندئذ بدأت تظهر البثور والقروح. وخاف أبى الطاعون، وعلى الأرجح أنه تفكر أيضًا فى وضع الإنسان.

قال: «إننى لعاقد عزمى على إيقاظ الملاك الراقد مختنقا بقاذوراتهم؛ فإن كنت لا أكن لهم احتراما، فإننى عبرهم أحترم الغفور الودود».

١٢

أرسل أبى أحد المغنين إلى أولئك البشر الآخذين فى الانحطاط. وقرب المساء توسطهم المغنى، وبدأ غناءه جالسا. تغنى بكل ما يدوى فيطغى بدويه على غيره. تغنى بالأميرة المدهشة التى ليس لأحد إليها وصول إلا بنهاية مائتى يوم من السير تحت الشمس فى رمال ليست بها آبار. ويصير غياب البئر تضحية وانتشاء بالحب، وتصير مياه القرب ضراعة؛ لأن فيها الوصال بالمحبوبة. ويشدو المغنى قائلا: «تمنيت بستان النخيل والمطر العذب.. ولكن أقصى ما تمنيته هو الوصال بتلك التى تلقانى بابتسامها.. ولم أعد أميز ما بى من حمى مما هو بى من حب!».

وأحس مستمعوه ظمأ إلى الظمأ؛ ولوحوا فى وجه أبى بقبضاتهم، قائلين: «أيها الجانى! لقد حرمتنا الظمأ الذى هو انتشاء بالتضحية من أجل الحب!!».

وتغنى الشادى بذلك الخطر الذى يلوح عندما تعلن الحرب؛ فيجعل من الرمال عش الأفاعى المهلكة، وتكتسب كثبان الرمال سطوة على الإنسان فيمكن أن يميته أى منها، أو يبقيه بعد حيا! وأحسوا الظمأ إلى خطر الموت الذى يكسب الرمال حياة!! وتغنى بسطوة العدو الذى يتوقع ظهوره من أى موضع والذى يدور من جانب إلى آخر خلف الأفق فيذهل

الرجال؛ حتى لَيصيروا كمن لا يدرون من أين ستطلع الشمس! وأحسوا الظمأ إلى العدو الذى قد يحيطهم بهوله مثلما البحر.

وعندما أحسوا الظمأ إلى الحب متجسدا فى وجه يلقاهم بابتسام؛ استلوا الخناجر من أغمادها، وذرفوا دموع الفرح، وأياديهم على سيوفهم. وبدا لهم أنهم يستردون فحولتهم وهم يستعيدون أسلحتهم المنسية التى علاها الصدأ وأهملت؛ ذلك أنها هى ـ لا سواها ـ ما يتيح للإنسان أن ينشئ عالما!! وكانت تلك إشارة البدء لثورتهم، والتى كانت بجمال اللهب!!

وكلهم ماتوا كرجال!

١٣

هكذا جربنا نحن تأثير شدو الشعراء على ذلك الجيش الذى بدأ تفرقه. لكن وقع أمر غريب، وهو أن الشعراء افتقدوا الكفاءة؛ وسخر منهم الجنود.

كان هؤلاء يجيبون قائلين: «نريد من يتغنون بحقائقنا، بمنبع الماء فى دارنا وبنكهة حسائنا. فيم يهمنا هذا الهراء؟!».

وعندئذ عرفت تلك الحقيقة الأخرى: وهى أن السلطان متى فقد، لا يعود يسترد، وأن صورة المملكة قد فقدت خصوبتها؛ ذلك أن الصور تموت ـ مثل النباتات ـ عندما يستهلك سلطانها ولا تعود سوى مواد هالكة على وشك التشتت، وتربة لنباتات جديدة.

وانتحيت جانبا، لأتفكر فى هذا اللغز. ذلك أنه لا يوجد ما هو أصدق أو أقل صدقا، بل ما هو أدق أو أقل دقة. ولم أعد أملك بيدى المربط المعجز لشتى الأنواع. لقد أفلت منى، ومملكتى تهالكت كأنما من تلقاء نفسها؛ ذلك أن شجرة الأرز متى استسلمت للصحراء ـ إذ حطم الإعصار فروعها، وأصابت جذعها بالتجعدات رياح مثيرة للرمال ـ فليس هذا لأن الرمال قد اكتسبت قوة، وإنما لأن شجرة الأرز سبق أن قررت أن تتنازل وتفتح أبوابها للهمج!

لقد عوتب الشادى عندما تغنى؛ على مبالغته فى المشاعر. وحقا إن الشجن كانت نغمته نشازا، وبدا لنا قادما من زمن آخر. وطرح سؤال عما إذا كانت المخادعة هى التى بلغت به مدى التغنى بحب يكنه للماعز والخراف، للديار وللربى؛ التى ليست إلا أشياء مشتتة، أهو مخادع نفسه إلى درجة التغنى بحب يكنه لمنعطفات الأنهار التى لا تهددها مخاطر الحرب، والتى لا تستوجب إراقة الدماء فداء لها؟ وصحيح أن المغنين أنفسهم قد أنبوا أنفسهم؛ وكأنهم قد قصوا حكايات فظة على أطفال ما أمكن أن يكونوا بهذه السذاجة!

والقواد التابعون لى، جاءونى بغبائهم الشديد؛ كى يعاتبونى على ما أتاه المغنون الذين أوفدتهم. يقولون لى «إن غناءهم نشاز!». لكننى فهمت سبب نشازهم؛ إذ كانوا يمجدون معبودا هالكا.

وعندئذ، فإن القواد التابعين لى، قد استجوبونى بغبائهم الشديد: «لماذا لم يعد رجالنا يريدون أن يقاتلوا؟» على نحو ما يمكن أن يفعله رب مهنة فجع بتكاسل عماله؛ فتساءل «لماذا لم يعودوا يريدون جز القمح؟». وأنا بدلت فى السؤال الذى لم يعد ـ حين طرح على هذا النحو ـ يؤدى إلى شىء؛ فما الأمر بمتعلق بمهنة، وتساءلت ـ مجللا بصمت حبى ـ «لماذا لم يعودوا يريدون أن يموتوا؟» ورحت أنشد إجابة ترضى عنها حكمتى!

ذلك أن الإنسان لا يموت فداء لخراف، أو ماعز، أو ديار، أو ربى؛ فإن الأشياء تظل باقية دون ضرورة لأى تضحية. ولكنه يموت لإنقاذ المربط الخفى الذى يربطها ويجعل منها ممتلكات إمبراطورية.. مملكة.. وجها معروفا ومألوفا. فى سبيل هذه الوحدة يبذل الإنسان نفسه؛ فإنه عندما يموت يقيم أيضًا بناء. والموت يعود بالنفع بسبب الحب. وذاك الذى

ثابر على بذل حياته فى مقابل صنيع متقن يدوم بعد أن تنتهى الحياة... فى سبيل معبد يتخذ طريقه عبر القرون: ذاك يرضى أيضًا أن يموت إذا استطاعت عيناه تخليص القصر من تنافر المواد وفتنه جلال القصر وتمنى أن يذوب فيه؛ إذ إنه عندئذ ينزل ضيفًا على من هو أعظم منه، ويعطى نفسه لحبه.

لكن كيف أمكن لهم أن يرضوا بذل حياتهم فى سبيل اهتمامات فظة؟ إن الاهتمام يأمر بالحياة أولا. ومهما فعل المغنون الذين أوفدتهم فإنهم ما قدموا لرجالى فى مقابل تضحياتهم إلا عملة زائفة.

ومن هنا وهناك، قام مدعون للنبوة استطاعوا حشد بعض الناس. والقلائل الذين اتبعوهم أضحوا متحمسين ومتأهبين للموت فى سبيل معتقداتهم. لكن معتقداتهم لم تساو شيئًا لدى الآخرين. وعلى هذا النحو شيدت معابد استعرت البغضاء بين بعضها والبعض؛ إذ جرت عادة كل منها على تقسيم كل شىء إلى خطأ وحقيقة، وما ليس حقيقة فهو خطأ، وما ليس خطأ فهو حقيقة. لكننى أنا الذى أعلم حق العلم أن الخطأ ليس نقيض الحقيقة بل مجرد ترتيب مختلف.. معبد آخر مشيد بنفس الأحجار، ليس فيه من الحقيقة نصيب أكبر مما للخطأ، ولا من الخطأ نصيب أكبر مما للحقيقة، أنا الذى وجدتهم متأهبين للموت فى سبيل حقائق وهمية: كان قلبى يدمى. وخاطبت خالقى قائلا: «هل لى أن أتعلم منك حقيقة تسود حقائقهم الجزئية وتتلقاها فى كنفها؟ ذلك أننى إذا صنعت شجرة ـ تحييها نفس واحدة ـ من هذه الأعشاب التى يفترس بعضها البعض؛ فعندئذ سينمو هذا الفرع من رخاء الفرع الآخر ولن تكون الشجرة بأجمعها إلا تعاونا رائعا وازدهارا تحت الشمس.

«ألن يكون لى قلب رحب بما فيه الكفاية لكى يتسع لهم؟»

كذلك حلت السخرية بأُولِى الفضيلة ودان النصر للتجار وأصحاب الأموال. واستمر البيع، والعذراوات استؤجرن، ونهبت مخزونات الشعير التى ادخرتها احتياطا للمجاعات. وتكررت جرائم القتل. لكننى لم أكن من السذاجة بحيث أظن نهاية المملكة راجعة إلى تردى الفضيلة؛ عالما بوضوح بالغ أن هذا التردى للفضيلة راجع إلى انتهاء المملكة.

وقلت: «ربِّ، أعطنى تلك الصورة التى فى مقابلها سيبذلون أنفسهم بقلوب راضية، وسيزداد الكل قوة عبر الواحد منهم وستكون الفضيلة علامة على ما يكونونه»!

١٤

قمت ـ مجللا بصمت حبى ـ بإعدام عدد كبير. لكن كل جثة مثلت وقودا لحمم الثورة المستترة. ذلك أن ما هو بديهى مقبول. لكن ما بدر منى لم يكن مقبولا منهم؛ إذ لم تتضح لهم الحقيقة التى باسمها أضيف هذا أو ذاك إلى عداد الأموات، وإن رأيتها أنا جلية. عندئذ جاد على العلى العليم من حكمته بتعاليم عن السلطان.

ذلك أن السلطان لا يفسر بواسطة الفرض الصارم له، بل بواسطة بساطة اللغة وحدها.

أولئك الذين أعدمتهم برهنوا لى على خطأى؛ لأن دلالة إعدامى إياهم هى أننى عجزت عن هدايتهم. عندئذ ألفت هذه الضراعة:

«ربِّ، إن عباءتى بالغة القصر، وأنا راع مخفق لم يفلح فى إيواء شعبه. أجيب هؤلاء إلى طلباتهم ولا أجيب أولئك فأغبنهم..!

«ربِّ، إنى عليم بجمال كل تطلع؛ التطلع إلى الحرية، وذلك الذى إلى النظام.. التطلع إلى الخبز من أجل الأطفال، وذلك الذى إلى التضحية بالخبز.. التطلع إلى العلم الذى تجرى تحت لوائه الأبحاث، وذلك الذى إلى التبجيل الذى يتقبل ويؤسس.. التطلع إلى ترتيب المقامات وصولا إلى الألوهية، وذلك الذى إلى التقسيم الذى يحقق التوزيع العادل.. التطلع

إلى الوقت الذى يتاح بفضله التأمل، وذلك الذى إلى العمل الذى يشغل الوقت.. التطلع إلى الحب بالروح التى تقهر الجسد وتزيد الإنسان عظمة، وذلك الذى إلى الشفقة التى تضمد الجسد.. التطلع إلى المستقبل الواجب بناؤه، وذلك الذى إلى الماضى الواجب الحفاظ عليه.. التطلع إلى الحرب التى تزرع البذور، وذلك الذى إلى السلام الذى يحصد ما ينبت منها.

لكننى أعلم أيضًا أن هذه الخلافات ليست إلا من خلافات اللغة، وأن الإنسان كلما ارتقى، أبصرها من موقع يعلو سابقه شيئا ما؛ ثم لا يعود للخلافات وجود.

ربِّ، إنى أريد تأسى نبل المحاربين وجمال المعابد؛ اللذين فى سبيلهما، يبذل الإنسان نفسه ويعطى حياته معنى! لكننى فى هذا المساء لاقيت فتاة صغيرة وأنا أتجول فى صحراء حبى. كانت تبكى؛ ورفعت وجهها لكى أقرأ ما فى عينيها. وهالنى حزنها. رب، إذا أبيت أن أعرفه فقد أبيت على نفسى جانبا من العالم ولم أكمل صنيعى! ما أنا بمتحول عن أهدافى الكبرى، ولكن فلتلق هذه الفتاة عزاء؛ فإنه عندئذ فقط، يسير العالم بخير. إنها هى أيضًا علامة على العالم».

١٥

إن الحرب أمر عسير عندما لا تعود تمثل مجرى طبيعيا؛ ولا تعود تجسيدا للرغبة. والقواد التابعون لى راحوا ـ بغبائهم الشديد ـ يدرسون خططا بارعة، ويتناقشون وينشدون الكمال قبل أن يتحركوا. ذلك أنهم لم يكونوا مدفوعين بالروح الباعثة، بل بأمانتهم وحرصهم على إتقان عملهم. وإذن فقد أخفقوا؛ وجمعتهم كى أعظهم.

قلت لهم: «لن يكون من نصيبكم النصر؛ فإنكم تنشدون الكمال. لكن الكمال موضعه المتحف. أنتم تحظرون الأخطاء، ولكى تتحركوا تنتظرون معرفة ما إذا كانت البادرة المتجاسر عليها ذات فعالية تأكد البرهان عليها. لكن، أين قرأتم البرهان على المستقبل؟ وبمثلما تحظرون على هذا النحو فى أراضيكم نشوء الرسامين والنحاتين وكل مبتكر خصيب: ستحولون ـ على نفس النحو ـ دون النصر». ذلك أننى أنا أقولها لكم: إن البرج ـ أو المدينة أو المملكة ـ هو مما يكبر؛ مثله مثل الشجرة. إنها كلها تجليات للحياة؛ بما أنه ينبغى وجود الإنسان لكى تولد. والإنسان يظن أنه يستطيع الحساب. إنه يظن أن العقل يحكم قيام تلك الأحجار، بينما كان صعود الأحجار أولا وليد رغبة الإنسان، والمدينة يحتويها الإنسان، فى الصورة التى يحملها داخل قلبه؛ كما أن الشجرة محتواة فى بذرتها. وحسابات الإنسان ليس لها من مفعول سوى تغليف رغبته، وتصويرها. ذلك أن

من يبغى تفسير الشجرة لا يشير إلى الماء الذى رواها، ولا إلى رحيق المعادن الذى غذاها، ولا إلى الشمس التى أمدتها بقوتها. ولا ينجح فى تفسير المدينة من يقول: «ها هو السبب فى أن هذه القبة لا تنهار.. ها هى حسابات المعماريين..» ذلك أن المدينة إذا وجب أن تولد فدائما سيتم العثور على محاسبين يجرون حسابات صحيحة. لكن هؤلاء ليسوا إلا خدمًا؛ وإن دفع بالواحد منهم إلى الصف الأول عن ظن أن المدن من صنائع يديه؛ فما من مدينة ستبرز من الرمال! إنه يعرف كيف تولد المدن ولكنه لا يعرف لماذا! أما الغازى الغافل عن العلم بالحساب، فإذا قذف به مع شعبه على الأرض الفجة والصخور؛ ففيما بعد ستلتمع تحت الشمس مدينة بثلاثين من القباب؛ وستقوم القباب مثل فروع شجرة الأرز.. شامخة؛ ذلك أن رغبة الغازى ستكون قد جسدتها المدينة ذات القباب، وسيعثر هو على كل ما يعوزه من المحاسبين، مثلما سيعثر على سبل وعلى دروب وعلى طرق!».

قلت للقواد: «هكذا ستخسرون الحرب؛ لأنكم لا ترغبون فى شىء، ولا يجذبكم أى منعطف! وأنتم لا تتعاونون بل تقضون بعضكم على البعض بقراراتكم المتنافرة فيما بينها. انظروا إلى الحجر كم هو ثقيل! إنه يتدحرج إلى عمق الوادى؛ ذلك أنه نتاج تعاون بين جميع ذرات الغبار التى تشكل منها، والتى تلقى كلها بثقلها صوب نفس الغاية. انظروا إلى الماء فى الخزان! يبدو هامدا، وبالرغم من ذلك فإنه حى؛ ذلك أنه فوَر حدوث أهون شرخ، ينبجس، ويبدأ جريانه، ويتسلل، وتقابله العقبة فيقلب العقبة إن استطاع، ويعود هامدا فيما يبدو؛ إذا ما لم يكن الطريق مفتوحا. حتى شرخ لاحق؛ يفتح طريقًا آخر. لن تعوزه فرصة قادمة. ومن طرق يستحيل استقراؤها، ولا يقدر أى محاسب على حسابها: سيكفى أهون ثقب لإفراغ الخزان من مئونتكم من الماء.

إن قواتكم شبيهة بمياه لا تثقل على السد. أنتم عجين بلا خميرة..

أرض بلا بذور... حشد بلا مطالب. أنتم تدبرون بدلا من أن تقودوا. لستم إلا شهودا سذجا. والقوى المظلمة التى هى بمثقلة على أسوار المملكة لن تعبأ بالمدبرين؛ وبأمواجها ستغرقكم! وبعد هذا سوف يجيء أصحابكم المؤرخون، وهم يفوقونكم غباء؛ فيفسرون أسباب النكبة ويصفون أساليب الخصم بالحكمة ودقة الحساب والتضلع فى العلم. لكننى أنا أقول إنه ما من حكمة ـ ولا حساب ولا علم ـ للماء عندما يخلع السدود ويغرق أراضى بنى عليها البشر بلدانا.

لكننى أنا سأشكل المستقبل على نحو ما يفعل المبدع الذى يستخلص صنيعه من الرخام بضربات الأزميل؛ وتسقط الواحدة تلو الآخرى من القشور، التى تخفى وجه المعبود. وسيقول الآخرون «إن هذا الرخام كان يحوى المعبود. وقد عثر عليه المبدع؛ وبادرته كانت الوسيلة» لكننى أنا أقول إنه لم يقم بأى حساب بل بتقطيع الحجر. ما ابتسامة الوجه بمجعولة من خليط من العرق والوميض والرخام وضربات الأزميل! ما الابتسامة من الحجر بل من المبدع. حرر الإنسان؛ ولسوف يبدع!».

بغبائهم الشديد اجتمع القواد التابعون لى. وقالوا: «يجب أن نفهم السبب فيما حل برجالنا من انقسام وما استعر بينهم بعضهم والبعض من بغضاء.» وأمروا باستدعائهم. واستمعوا إلى هؤلاء وإلى أولئك؛ ساعين إلى التوفيق بين نظريات كل منهم وإلى تطبيق العدالة وإلى إنصاف هذا وذاك برد ما يجب أن يوفى إلى الواحد وباسترداد ما تحصل عليه الآخر دون وجه حق. وهم يبغضون بعضهم بعضا بدوافع من الغيرة. وسعى القواد إلى تحديد ذلك الذى كان محقا وذلك الذى جانبه الصواب؛ وسرعان ما باتوا لا يفقهون شيئا فى أى شيء من فرط ما تداخلت المسائل بعضها فى البعض.. من فرط إظهار نفس التصرف مختلف الأوجه: النبيل منها فى ضوء حقيقة ما، والخسيس فى ضوء أخرى، القاسى والسخى معا! وتواصلت جلساتهم أثناء الليل. ولأنهم لم يعودوا ينالون نوما؛ فقد

زاد غباؤهم. عندئذ جاءوا لمقابلتى، قائلين: «لم يعد يوجد لهذا اللجاج سوى حل واحد، وهو الطوفان المذكور فى الكتاب المقدس!».

لكننى تذكرت أبى، وقوله: «عندما يدب العفن فى القمح؛ فابذل جهدك فيما هو خارج القمح. اختر له مخزنا آخر! وعندما يتباغض الرجال؛ فلا تلق بالا إلى شرحهم الأحمق لما لديهم من أسباب لكى يتباغضوا؛ فإن لديهم كثيرة غيرها بعد لم يقولوها ولم تخطر ببال أى منهم، ولديهم قدر مماثل من الأسباب لكى يتحابوا!! كما أن لديهم قدرا مماثلا من الأسباب لكى يتعايشوا غير عابئين بعضهم بالبعض». وأنا الذى لا أهتم إطلاقا بالأقوال؛ عالما أن ما تنبئ عنه ليس إلا علامة يصعب استقراؤها، بمثلما تعجز أحجار النصب عن إظهار ما له من ظل أو ما فيه من صمت، وبمثلما تعجز المواد المكونة منها الشجرة عن توضيح الشجرة: كذلك لا أهتم بالمواد المكونه منها البغضاء السائدة بينهم؛ وهل يوجد ما يدعونى لهذا؟ إنهم يشيدونها كالمعبد، بنفس الأحجار التى كانوا مستخدمين إياها، إن شيدوا الحب!».

لم أفعل ـ إذن ـ غير حضور مداولاتهم التى أخذوا فيها يغذون البغضاء بمبررات خاطئة؛ غير آمل فى شفائهم بتطبيق عدالة باطلة، فلن يكون لها من أثر سوى زيادة تمسكهم بمبرراتهم لتعزيز مظالمهم أو مكاسبهم، وإثارة حقد أولئك الذين أدنتهم، وعجرفة أولئك الذين أنصفتهم؛ ومن ثم أكون قد حفرت فجوة. لكننى تذكرت حكمة أبى:

حدث يوما أنه أقام على أراض غزاها، إلى جانب الحكام ـ قوادا يساندونهم؛ لأن أولئك لم يكونوا بعد قد مكنوا لسلطانهم. إلا أن المترحلين، الذين جابوا تلك الأقاليم الملحقة بالمملكة حديثا، عادوا إلى العاصمة وأخطروا أبى، قائلين له: «إنه فى واحد من الأقاليم قد أهان القائد الحاكم؛ ولم يعودوا يتبادلان الحديث».

ومن إقليم آخر جاء من قال له: «مولاى، لقد غضب الحاكم على القائد».

ومن إقليم آخر بعد جاء ثالث يقول: «مولاى، إنهم يلتمسون هناك قضاءك؛ لكى يفض نزاعًا مستفحلاً، إن القائد والحاكم قد اختصم كل منهما مع الآخر».

واستمع أبى أولا إلى بواعث تلك الشقاقات. وفى كل مرة كانت البواعث واضحة؛ فإن أيا ممن عانى تلك الإهانات لمبيت نيته على ردها. بالفعل لم يكن ما فى الأمر إلا مؤامرات شائنة، ونزاعات يتعسر التوفيق بين أطرافها، وانتهاكات وإساءات. ودائما وجب ـ بطبيعة الحال ـ أن يوجد من هو على صواب، ومن هو على خطأ. لكن تلك الأقاويل أعيت أبى.

قال لى: «إن لدىَّ ما هو أهم من العكوف على خصوماتهم الحمقاء. إنها تنشأ فى جميع أنحاء المملكة، تختلف فى كل مرة بعضها عن البعض وبالرغم من ذلك فإنها تتشابه. كيف شاء عبث الأقدار أن يقع اختيارى فى كل مرة على حاكم وقائد لا يستطيع الواحد منهما أن يطيق الآخر؟.

عندما تنفق البهائم التى أقمتها فى الحظيرة واحدة تلو الأخرى؛ فلا تعكف عليها لتتحرى أسباب الداء، بل التفت إلى الحظيرة وأحرقها.

لقد أسأت تحديد سلطاتهم. إنهم لا يعرفون مَنْ مِن الاثنين له الأسبقية على الآخر فى المناسبات الرسمية. إن كلا منهما يرقب الآخر بعين شوساء، حتى لحظة الجلوس، وعندئذ يفوز من هو أشد فظاظة، أو أقل حمقا؛ إذ يتخذ مجلسه والآخر لم يجلس بعد! فيستوجب منه المقت. ويعاهد الآخر نفسه على أن يكون أقل ارتباكا فى المرة القادمة وأن يسرع الخطى لكى يجلس أولا. وها هما فيما بعد يرتكبان بالطبع جرائم متبادلة؛ فيسلب أحدهما الآخر امرأته، أو ينهب قطيعه، أو يسىء إليه على أى نحو

كان. وما هى إلا مماحقات لا جدوى منها؛ إلا أنها تضنيهم؛ لأنهم يأخذونها مأخذ الجد. أما أنا فلن ألقى بالا إلى الضجة التى يصطنعونها.

إن أردت أن يتحابوا، فلا تلق إليهم بحبة القمح ـ أى السلطة! ـ كى يتقاسموها؛ بل فليخدم بعضهم الآخرين، وليخدم الآخرون المملكة؛ عندئذ فسيتحابون بفضل مساندتهم بعضهم بعضا وقيامهم معا بالبناء».

وإذن، فقد أوفد أبى مبعوثا يقول لهم: «إن المملكة لن تسمح بما تثيرونه من فضائح. إن على القائد ـ بداهة ـ أن يطيع الحاكم؛ وإذن، فسأعاقب هذا؛ لعجزه عن إصدار الأوامر، وذاك؛ لعجزه عن الصدوع بها. وأنصحكم بالصمت».

وإذن، قد عاقبهم بقسوة على شقاقاتهم التى أحدثت ضجيجا لا طائل منه.

ومن ناحية إلى أخرى فى أراضى المملكة تصالح الناس بعضهم بالبعض؛ فردت الإبل التى سرقت من قبل، واللاتى كن ـ من بين النساء ـ قد خن أزواجهن، غفر لهن أو أقصين، ودفع العوض عن الإساءات. وذلك الذى أطاع، بات يزهو بما مدحه به ذاك الذى أمره؛ ووجد السبيل إلى مصادر البهجة. وذلك الذى أمر، سر بإظهار سطوته؛ إذ رفع من قدر مرءوسه، وأمسى يدفعه أمامه فى المناسبات الرسمية؛ كى يجعله سابقا إياه إلى الجلوس!

قال أبى: « ليس ما فى الأمر أنهم أغبياء؛ ولكن أن كلمات اللغة لا تنبىء بأى مما يستحق الاهتمام. تعلم ألا تستمع إلى الأقوال العابرة ولا إلى الاستدلالات التى تؤدى بهم إلى الخطأ. تعلم النظر إلى ما هو أبعد؛ فإن حقدهم لم يكن عبثا. إن لم يكن كل حجر فى موضعه؛ فلن يوجد معبد. وإن كان كل حجر فى موضعه وأفاد منه المعبد؛ فلا أهمية عندئذ

إلا للصمت الذى ينشأ بفضل هذا، وللضراعة التى تتخذ به مظهرها. ومن ذا الذى يريد أن يدور الحديث عن الأحجار؟».

لذلك لم أهتم بمشاكل القواد التابعين لى، الذين جاءونى يرجوننى أن أبحث فى سلوك البشر عن أسباب الفرقة؛ كى أحل بينهم النظام بعدل منى. لكننى رحت ـ مجللا بصمت حبى ـ أعبر المعسكر وأرقبهم وهم يتباغضون، ثم أنسحب كى أرفع إلى الحى القيوم ضراعتى:

«ربِّ هاهم يتفرقون إذ لم يعودوا يرفعون عمد المملكة. ذلك أن الخطأ هو فى الظن أنهم يكفون عن رفع عمد المملكة؛ لأنهم تفرقوا. أنر بصيرتى؛ وأرنى ما عليهم أن يشيدوه من برج يتيح لهم أن يبذلوا أنفسهم فى سبيله، وآمالهم شتى، ويستدعى كل ما فيهم ويعظم كلا منهم؛ إذ ينشده بأجمعه مفعما بكل ما فيه من عظمة. إننى لقليل الحيلة؛ وما أنا إلا راع مخفق لا يقدر على جعل رعاياه يصطفون تحت جناحه. إنهم يتباغضون؛ لأنهم يحسون برد العرى؛ ذلك أن البغضاء ليست إلا سخطا! إن لكل من ضروب البغضاء سببا عميقا يسوده. ومعظم النباتات تتباغض ويفترس بعضها بعضا، إلا الشجرة الفريدة التى ينمو كل غصن فيها من رخاء الأغصان الأخرى. أيسعفنى حتى أجمع من يتبعنى من المقاتلين والعاملين والعلماء والأزواج والزوجات، بل وأيضا الأطفال الذين ينتحبون!».

١٦

وكذلك بشأن الفضيلة. جاء قوادى بغبائهم الشديد، يحدثوننى عن الفضيلة.

قالوا لى: «ها هى أخلاقهم تفسد؛ ولهذا تتفكك المملكة. من المهم تغليظ القوانين، وابتكار جزاءات أشد قسوة، وقطع رقاب أولئك الذين زلوا».

ما خطر ببالى أنا، هو أنه ربما قد يكون بالفعل ذا أهمية أن تقطع رقاب البعض. لكن الفضيلة، هى أولا عاقبة. إن فساد رجالى هو قبل كل شىء فساد المملكة التى تؤسس البشر. فإن كانت المملكة حية ومعافاة، فإنها ستمجد مافيهم من نبل.

وتذكرت قول أبى: «إن الفضيلة هى بلوغ حال الإنسان الكمال، وليست اختفاء العيوب. إذا أردت بناء مدينة جمعت الحثالة والرعاع؛ وبالسلطة جعلتهم نبلاء. أنا أنعم عليهم بنشوة مغايرة للنشوة العادية التى مصدرها السلب والاستهلاك والاغتصاب؛ وها هم يحسنون استخدام سواعدهم المفتولة: فى البناء والتعمير ! كبرياؤهم تغدو برجا ومعبدا وسورا. وقسوتهم تمسى عظمة ودقة فى الانضباط. وها هم يخدمون وطنا ولد منهم وبذلوا فى سبيله من قلوبهم. وسيموتون على أسواره لينقذوه. ولن تعود تكتشف فيهم إلا أشد الفضائل سطوعا».

لكنك أنت الذى تتمسك باشمئزازك من سطوة الأرض.. من فظاظة التربة وفسادها وديدانها، تطلب إلى الإنسان أولا، ألا يكون، وألا يصاعد رائحة. أنت تأخذ عليهم تعبيرهم عن قوتهم. وتقيم الخصيان على رأس مملكتك. وهم يجتبون الرذيلة، وما هى إلا سطوة بلا هدف. إن ما يجتبونه هو السطوة، والحياة لهم وحدهم؛ وبدورهم يصيرون حراس متاحف؛ ويسهرون على مملكة هالكة.

ويقول أبى: «إن شجرة الأرز تغتذى من وحل الأرض. لكنها تحوله إلى أوراق كثيفة تغتذى من الشمس».

وأحيانا أخرى، كان أبى يقول: «إن شجرة الأرز هى ما فى الوحل من كمال. إنها الوحل وقد صار فضيلة. إن أردت إنقاذ مملكتك، فاخلق لها حماسا. سيجتذب من البشر بوادرهم؛ ونفس التصرفات.. نفس البوادر.. نفس التطلعات.. نفس الجهود، ستشيد مدينتك بدلا من أن تقوضها.

والآن أقولها لك: إن مدينتك ستموت متى اكتملت. ذلك أن البشر لا يحيون على ما يتلقونه بل على ما يعطونه. ولكى يتنازعوا المؤن التى جمعت، سيرتدون ذئابا لها أوكارها؛ فإن تمكنت بقسوتك من كبحهم، فسيصيرون بدلا من ذلك بهائم فى حظائرها. لذلك فإن المدينة يستحيل أن تكتمل. لا أقول إن صنيعى اكتمل إلا عندما ينقصنى الحماس. عندئذ، يموتون لأنهم قد ماتوا سلفا. ولكن الكمال ليس غاية يبلغها المرء. إنه البذل المبارك. وأنا لم أكمل مدينتى، ولن أكملها أبدا !!».

١٧

لذلك احتقرت دائما الأقوال باعتبارها باطلة؛ واحترست من زخارف اللغة. وعندما جاءنى القواد التابعون لى، قائلين ـ بغبائهم الشديد ـ: «إن الشعب يثور»؛ ويقترحون علىَّ التصرّف بحذق: صرفت هؤلاء القواد؛ ذلك أن الحذق ليس إلا كلمة باطلة،وما فى الإبداع من إمكان للخداع! إن المرء يؤسس ما يصنعه، ولا شىء غير هذا. وإذا ادعيت أنك تتوجه إلى هدف مخالف لذلك الذى توخيته أصلا ـ فلن يظن بك البراعة إلا مخدوع بالكلمات؛ ذلك أن ما تؤسسه هو ـ فى نهاية الأمر ـ ما اتجهت صوبه منذ البداية، ولا شىء غير هذا. أنت تؤسس ما تنشغل به، ولا شىء غير هذا. حتى إن كنت منشغلا به لأنك تناضل ضده. أنا أؤسس عدوى؛ إذ أشن الحرب عليه. أشكله وأجعله صلبا. وإذا ادعيت ـ باطلا ـ أننى أدعم تعسفى باسم حريات موعدها المستقبل؛ فإنما هو تعسفى ما أؤسسه. وإذا قمت بالحرب لكى أحقق السلام؛ فإنما أؤسس الحرب. ليس السلام حالا يبلغه الإنسان عبر الحرب. إذا كنت أومن بالسلام المتحقق بفضل السلاح ثم ألقيت السلاح؛ فسأموت! ذلك أن السلام لا أستطيع تحقيقه إلا إذا كان ما أؤسسه هو السلام.

بناء السلام هو بناء الحظيرة متسعة بما يكفى لكى يستطيع القطيع بأكمله النوم فيها. هو بناء القصر فسيحا بما يكفى لكى يستطيع البشر

جميعا أن يعاودوا الالتقاء فيه دون أن يتخلوا عن شيء من متاعهم. لا أن يقتضى الأمر إعمال البتر فيهم حتى يتيسر استبقاؤهم فى القصر!! بناء السلام هو الالتماس من العزيز الغفور أن يسعف الراعى حتى يستطيع استقبال البشر وتلبية رغباتهم مهما تنوعت، مثل الأم التى تحب أبناءها جميعا: هذا خجول رقيق، وذاك متوهج بالحياة، والثالث أحدب، ربما هزيل ومبتسر. ولكنهم كلهم فى تنوعهم يجتذبون قلبها، وكلهم فى تنوع حبهم، يعلون مجدها.

١٨

ولذلك فإننى فى تلك الليلة تأملت البقع السوداء التى تمثل معسكرى فى امتداده، من أعلى الصخرة السوداء التى تسنمتها. وكالعهد به اتخذ معسكرى الشكل الثلاثى، وازدان بالعسس على كل من الذرى الثلاث، وظل مزودا بالبنادق والبارود. وغفرت للبشر.

ذلك أننى فهمت: الدودة تموت حين تكون شرنقتها. والنبتة تموت متى ارتفعت سنابلها. ومن يطرأ عليه أى تغيير يعرف الحزن والكرب. ويبدو له كل ما فيه بلا جدوى. كل من يتغير يصير كالقبر مصدرا للأسى. وذاك الحشد تطلع إلى التغيير؛ إذ المملكة القديمة استهلكت ولم يعد بإمكان أحد إعادتها إلى صباها. ليس فى الإمكان إحياء الدودة ولا النبتة، ولا استرداد الطفل الذى كبر؛ ويطالب باستعادة سعادته بالرجوع إلى الطفولة! وبرؤية الألعاب التى سئمها، تسترد بريقها، وبالإحساس بأحضان الأم التى يدوم عطفها، وباستمراء مذاق اللبن الذى كان. إلا أن الألعاب لم يعد لها بريق، وأحضان الأم لم تعد ملاذا، ولا اللبن عاد له مذاق؛ ويمضى حزينا. والبشر ـ وقد استهلكوا المملكة القديمة ـ طالبوا بالمملكة الجديدة دون أن يعرفوها. إن الطفل الذى كبر وفقد أحضان الأم لن يعرف الراحة إلا متى وجد المرأة! هى وحدها ستعيد تجميعه من جديد. ولكن من ذا الذى بمقدوره أن يظهر للبشر مملكتهم؟! من الذى يستطيع ـ بفضل موهبته

وحدها ـ أن ينحت ـ مما فى العالم من شتات ـ وجها جديدا؛ ويرغمهم على الالتفات صوبه ومعرفته؟ وعلى أن يحبوه متى عرفوه؟! ما هو بعمل رجل المنطق؛ وإنما هو عمل المبدع والفنان! ذلك أن من يشكل الرخام ينقش فيه القدرة على إيقاظ الحب، وليس عليه أن يبرر ما يفعله.

١٩

إذن فقد استدعيت المعماريين، وقلت لهم:

«أنتم من تعتمد عليكم مدينة المستقبل؛ لا فى دلالتها الروحية، بل فى الوجه الذى ستظهره ويقوم معبرا عنها. وأنا أوافقكم تماما على أنه يجب أن نوفر للبشر سعادة الاستقرار؛ كى تهيأ لهم تيسيرات المدينة ولا تضيع جهودهم فى تعقيدات باطلة ونفقات عقيمة. بيد أننى دائما تعلمت تمييز ما هو مهم، مما هو ملح. فيقينا أنه ملح أن يأكل الإنسان؛ فإنه إن لم يأكل فلن يوجد بشر ولن تعود المشاكل مطروحة!! غير أن للحب ولمعنى الحياة وللتطلع إلى نور السماوات والأرض أهمية أكبر. أنا لا أولى اهتمامى أناسا يملأون بطونهم! والسؤال الذى أطرحه، ليس عما إذا كان الإنسان سعيدا ومرفها وذا مأوى ملائم، نعم أم لا؟ أنا أسائل نفسى أولا: «من الإنسان الذى سيصير سعيدا ومرفها وينال المأوى الملائم؟»، ذلك أننى أوثر من يعيش حياة البداوة والترحل ـ هاربا إلى الأبد ولاحقا بالرياح ـ على تجارى الموسرين المكتظين بالأمان!! ذلك أن جماله يزداد يوما بعد يوم بفضل تعبده لرب وسع كل شىء. وإذا قدر أن يفرض على السميع البصير الاختيار فإنه ـ كما تعلمت ـ ينكر على الموسر عزته ويسبغ منها على المترحل! سألقى بشعبى فى الصحراء؛ ذلك أننى أحب

أن يصدر من الإنسان ضوؤه. ولا يهمنى فى قليل أو كثير أن تكون الشمعة وفيرة الشحم! فإنما بشعلتها وحدها يكون تقديرى لجودتها.

لهذا أسألكم، إن كنتم تظنون أنكم تهدرون جهودكم، إذ تبنون معبدا لا جدوى له؛ من حيث إنه لا يفيد فى إنضاج الطعام، ولا فى الاستجمام، ولا فى استقبال مجموع الأعيان، ولا فى حفظ الماء، بل فى جعل الإنسان كبير القلب، وفى تهدئة الحواس، وفى تهيئة برهة من الزمن يمكن بفضلها التعمق؟ ذلك أن المعبد تام الشبه بمأوى للقلب؛ حيث يستقر المرء لكى ينغمس بضع ساعات فى السكينة الحقة، وفى هدوء المشاعر، وفى إنصاف لا يعيبه البطش بالمغضوب عليهم. إذا شيدتم معبدا فيه يصير الألم الراجع إلى القرح، نشيدا وقربانا، أو يصير خطر الموت ساحلا مخبوءا تكشف عنه مياه البحر متى هدأت، أخيرًا، أفتظنون إذن أنكم أهدرتم جهودكم؟».

٢٠

إن القواد التابعين لى ـ بغبائهم الشديد ـ قد أثقلوا علىَّ ببراهينهم؛ ذلك أنهم ـ وقد اجتمعوا كأنما فى مؤتمر ـ تنازعوا بشأن المستقبل؛ وهكذا أرادوا أن يظهروا براعتهم؛ ذلك أن أول ما تعلمه قوادى هو التاريخ، وقد استظهروا الواحد والآخر من تواريخ غزواتى، والواحد والآخر من تواريخ هزائمى، والواحد والآخر من تواريخ المواليد والوفيات. وهكذا، بدا لهم بينا أن الأحداث يستنبط بعضها من بعض، ورأوا تاريخ الإنسان فى صورة سلسلة طويلة من الأسباب والعواقب؛ يرجع أصلها إلى أول السطور فى كتاب التاريخ، وتمتد حتى الفصل الذى سجل فيه للأجيال المقبلة أن الخليقة ـ لسعادتها ـ قد أفضت إلى هذه الكوكبة من القواد. ومن ثم فإذ استخفهم الفخر الزائد راحوا ـ مستدلين بالعواقب ـ يستشرفون المستقبل واضحا!! فأسمع منهم قولهم: « على هذا النحو عليك أن تتصرف من أجل سعادة البشر..»، أو «... من أجل السلام..»، أو «... من أجل رخاء المملكة...»، ويقولون: «إنهم علماء وإنهم درسوا التاريخ».

لكننى عليم بأنه ما من علم إلا بما هو مكرر.

يقينا، إن قوادى يطبقون قواعد منطقهم حينما يبحثون ويكتشفون علة للمعلول الظاهر لهم؛ فإنهم قالوا لى: «إن لكل معلول علة ولكل علة معلولا» ومن علة إلى معلول يمضون ـ مسهبين ـ صوب الوهم.

ذلك أن الصعود من المعلولات إلى العلل، شيء، والنزول من العلل إلى المعلولات، شيء آخر!

أنا أيضًا قرأت تاريخ غريمى، بعد أن سجلته رمال لم تطأها غير أقدام جنوده فسطرته عليها مثل نقوش كالتى تحفظها رقائق المعدن؛ وأنا عالم بأن كل خطوة تسبقها دائما أخرى تبيحها، وأن السلسلة تمضى بحلقة تلو أخرى دون أن يمكن أبدًا أن تنقص حلقة. ولو لم تكن الريح قد هبت، لو لم تكن قد محت من عليائها صفحة الكتابة؛ كما يفعل التلميذ بسبورته الصغيرة ـ إذن لرجعت من نقش إلى نقش حتى أصل الأشياء، أو لتابعت القافلة ففاجأتها فى الوادى الذى ظنت أنها تحسن صنعا بالتلكؤ فيه. لكننى أثناء تلك القراءة لم أتلق من التعليم ما يمكننى من استباق القافلة، لأن الحقيقة التى تسودها ليس مصدرها الرمال المتاحة لى؛ وما معرفة الرمال إلا معرفة بظل عقيم لن يعلمنى بشىء عن البغضاء ولا عن الفزع ولا عن المحبة التى هى أول ما يحكم البشر.

وسيقول لى القواد التابعون لى؛ والمنغرسون بشدة فى غبائهم: «هنا أيضًا دليل على إمكان استقراء كل شىء؛ فمتى عرفت البغضاء أو المحبة أوغيرهما مما يسود البشر ـ أمكن التنبؤ بأفعالهم. إذن فإن المستقبل مستوعب فى الحاضر..».

لكننى سأجيبهم بأن من الممكن لى على الدوام أن أستبق القافلة بخطوة. وعلى الأرجح أن هذه الخطوة الزائدة ستجارى سابقتها فى الاتجاه وستضاهيها اتساعا (يوجد علم بما هو مكرر)، بيد أنها سرعان ما ستخرج عن الطريق مفلتة من منطقى؛ لأن رغبة أخرى ستجعلها تتغير!

وبما أنهم لم يفهمونى؛ فقد حكيت لهم عن الخروج الكبير.

كان بقرب مناجم الملح؛ حيث جاهد الرجال بقدر ما استطاعوا

ليمكنهم العيش بين الجمادات؛ إذ إن شيئًا واحدا لم ييسر الحياة هناك: الشمس تثقل وتلفح، وأحشاء الأرض لا تمد بماء رائق، بل بسبائك من الملح (نضبت من جرائها المياه، لو لم تكن الآبار أصلا جافة). والرجال يأتون من بعيد، وقربهم مليئة بالماء؛ فيسرعون إلى العمل ـ محتبسين بين الشمس من أعلاهم وملح المناجم من أسفلهم ـ ويستخرجون ـ بإعمالهم المعاول ـ تلك البللورات الشفافة التى لها قوة الحياة والموت. ثم يعودون إلى الأراضى المحبوة بمياهها الريانة؛ وكأنهم مشدودون إليها بحبل سرى.

إذن، فإن الشمس هناك كانت فجة وشديدة وبيضاء مثل الصحاف الخالية من الزاد، والصخور فى بعض المواقع تثقب الرمال وتقارب مناجم الملح بأسس سوداء كالأبنوس وصلبة كالماس الأسود، وعبثا تعقر الرياح ذرى تلك الصخور. من شهد فى تلك الصحراء طقوسا عريقة عراقة القرون؛ لظنها دائمة لم تتغير طيلة قرون أخرى قادمة، سيبقى الجبل على ما هو عليه؛ لا يستهلك إلا ببطء كأنما يجز منه نصل بالغ الضعف، وسيواصل الرجال استخراج الملح، والقوافل ستستمر فى حمل الماء والزاد، وفى نقل العائدين إلى ذويهم.

ولكن جاء فجر فيه التفت الرجال صوب الجبل؛ وظهر لهم ما لم يروه من قبل قط!

كانت الرياح ـ التى ظلت قرونا تعقر الصخرة الشاهقة كيفما اتفق ـ قد نحتت فيها وجها جبارا يكسوه تعبير عن الغضب!! والصحراء، والملاحات التى تتكشف عنها الأرض، والقبائل المقيمة على أرض موحشة تنفر الإنسان بأكثر مما تنفره مياه المحيطات المالحة؛ أرض أحجارها من ملح متيبس، كلها أصبح مسيطرا عليها وجه مظلم منحوت فى

الصخر، غاضب فاغر فاه كي يصب اللعنات، تعلوه سماء شاسعة صافية. وعندما شهده الرجال فروا، وقد تملكهم الفزع. وسرى الروع إلى أعماق الآبار؛ وراح العمال يتلفتون فور خروجهم من المنجم صوب الجبل قبل أى شىء، ثم يهرعون؛ وقد انقبضت قلوبهم إلى المخيم، فيحزمون حاجاتهم على أى نحو كان؛ ويسبون النساء والأطفال والعبيد، ويمضون مستطلعين ساحات الشمال، حاملين ما ملكت أيديهم، بلا مفر من شمس باطشة. ولقد هلكوا جميعا؛ لأنهم عدموا ماء السقاية. وبدت باطلة تكهنات المناطقة الذين استبصروا الجبل بطىء التآكل، والبشر مكتوبا لهم الدوام؛ وكيف أمكن لهم أن يستبصروا ما لم يولد بعد؟!

عندما أرجع إلى الماضى، أقسم المعبد إلى أحجار؛ والعملية متيسرة التقدير وبسيطة. وبالمثل إذا فرقت البدن المفكك إلى عظام وأحشاء، والمعبد إلى حصى، أو الأملاك إلى ماعز وخراف وديار! لكننى إذا سرت صوب المستقبل؛ فإن علىَّ باستمرار أن أعتد بميلاد كائنات جديدة ستضاف إلى الموجودات الحالية، وتلك لن يكون متيسرا تقديرها؛ بما أنها من جوهر آخر. تلك الكائنات أعدها متوحدة بما أنها تموت إذا تفرقت، ولا يعود لها وجود؛ فإنما الصمت شىء ما يضاف إلى الأحجار، ولكنه يموت إذا ما تم التفريق بينها بعضها وبين البعض؛ فإنما الوجه شىء ما يضاف إلى الرخام أو إلى عناصر الوجه؛ ولكنه يموت إذا ما تحطم الرخام أو إذا ما تم تمييز أى من العناصر عن سواه. فإنما المملكة شىء ما يضاف إلى الماعز والديار والخراف والهضاب!

ما أنا بقادر على الاستبصار، بل على التأسيس؛ فإنما المستقبل يبنيه المرء. إذا ما جمعت فى وجه وحيد شتات زمانى؛ إذا ما وهبت يدين كيدى النحات المبدعتين ـ فستتحقق لرغبتى الصيرورة. ولسأكون مخطئا إن قلت إننى استطعت الاستبصار؛ ذلك أننى سأكون قد أبدعت. سأكون قد أبديت

ـ فيما حولى من شتات ـ وجها، وسأكون قد نجحت فى فرضه، وسيسود البشر! مثل المملكة؛ التى تتطلب منهم حتى دمهم أحيانا.

هكذا بدت لى حقيقة جديدة، هى أن الانشغال بالمستقبل باطل ووهمى؛ ولكن العملية الوحيدة ذات القيمة هى التعبير عن العالم الحالى، وأن التعبير هو بناء الوجه الواحد الذى يسيطر على ما هو موجود فى الحاضر مشتتا بمواد من هذا الشتات نفسه! إنه إبداع الصمت من الأحجار وبالأحجار!! كل دعوى أخرى ليست إلا قبض الريح من أقوال عابرة!

٢١

ليس حسنا أن ينتصر القلب على النفس.

ولا الشعور على الروح.

إلا أنه قد بدا لى من الأيسر أن أستعين بالشعور فى ضم أناس مملكتى إلى بعضهم البعض، من أن أستعين بما يسود الشعور من روح. قد تكون فى هذا إشارة إلى وجوب صيرورة الروح شعورا، وإن لم يكن الشعور ما يجب الاعتداد به قبل غيره.

كذلك فقد بدا لى أنه يجب ألا يخضع من يبدع لمطالب الحشد؛ فإن إبداعه نفسه هو الذى يجب أن يصير مطلب الحشد. على الحشد أن يتلقى من الروح ويحول ما يتلقاه إلى شعور. ما الحشد إلا معدة؛ وما تتلقاه من طعام، يجب أن يتحول إلى نعمة وضياء.

٢٢

لذا بعثت فى استدعاء المعلمين، وقلت لهم:

«لستم مكلفين بأن تقتلوا الإنسان فى الصغار من بنيه، ولا بأن تحولوهم إلى نمل كى يصلحوا لحياة حشود النمل؛ وذلك أنه لا يهمنى إلا قليلا أن يكون الإنسان أكثر تنعما أو أقل، إن الذى يهمنى هو أن يكون أكثر آدمية لا أقل؛ وليس أول ما أسأله هو عن إمكانية أن يكون الإنسان سعيدا: نعم أم لا؟ بل «أى إنسان هو ذاك الذى سيكون سعيدا؟»، وقليل ما يهمنى رخاء المتخمين الذين لا يبصرون ديارهم، مثل البهائم فى الحظائر.

لا تحشوا أذهانهم بصيغ فارغة من المعنى، بل مكنوهم من حشو القوالب التى تصورها لهم دروسكم.

لا تبدأوا بتكديس معارف بالية داخل عقولهم، بل صوغوا لهم أسلوبا به يمكنهم أن يدركوا.

لا تكتفوا فى حكمكم على مهاراتهم بما يظهر من تيسر لهم فى هذا الاتجاه أو ذاك؛ فإنما يمضى إلى أبعد مدى ـ ويحقق أفضل نجاح ـ من كان جهاده ضد نفسه أشد وأقسى؛ فلتعتدوا إذن، بالمحبة والإيثار قبل كل شىء.

لا يكن تركيزكم على جدوى الإنسان، بل على إبداعه؛ كى يوجد

منهم من يشق بمنشاره لوحه الخشبى بإخلاص وشرف، وسيكون عمله أجود!

علموهم الاحترام؛ فإن السخرية صفة البليد، وتغافل عن الوجوه.

ناضلوا ضد ارتباطات الإنسان بالخيرات المادية. وأسسوا الإنسان فى ابن الإنسان بتعليمة البذل أولا؛ فإنما لا يوجد عدا البذل إلا التشوه.

علموا التأمل والضراعة؛ فبهما تكون النفس رحبة، وإفشاء المحبة؛ فأى عوض عن المحبة إن افتقدت؟! أما حب المرء ذاته فإنه نقيض المحبة!

ليكن أول ما تعاقبون عليه الكذب، والنميمة؛ والتى يمكن بالتأكيد أن تجدى الإنسان، بـل وقـد تبـدو مجديـة للوطن! ولكن الإخلاص هو وحده الـذى ينشئ الأقـوياء؛ ذلك أن الإخلاص لا يوجـد متى وجد انتماء ما، ثم لا يعود يوجد متى وجد غيره!! من هو مخلـص يظل مخلصا على الدوام. وليس مخلصا من قد يخون زميله فى العمل. أنا بحاجة إلى وطن قوى، ولن أجعل فساد الناس ركيزة لقوة الوطن.

علموهم مذاق الكمال؛ فإن كل صنيع هو مسيرة صوب السميع المجيب، ولا يكتمل إلا بالموت.

لا تبدأوا بتعليمهم الصفح ولا الإحسان، فقد يساء فهمهما ويحسبان تبجيلا للإهانة وللقرح، بل علموهم روعة تعاون الكل من خلال الكل، ومن خلال كل واحد منهم؛ وعندئذ سيهرع الطبيب المعالج عبر الصحراء، لا لشىء إلا لمداواة موضع من بدن رجل يتأوه شاكيا. كأنما هى مركبة يمثلان معا قائدا لها.. مركبة تسير صوب السميع المجيب!».

٢٣

فإن أول ما عكفت عليه تلك المعجزة الكبرى، التى هى التحول وتبديل الإنسان فى نفسه بنفسه؛ إذ كان فى المدينة أبرص.

وقال لى أبى: «ها هى الهوة».

واقتادنى داخل الضواحى حتى تخوم حقل مجدب كئيب، وحول الحقل حاجز وفى وسطه دار متواضعة يقطن بها الأبرص؛ منعزلا على هذا النحو عن الناس.

وقال لى أبى: «أتظن أنه سيعلن يأسه صائحا؟ راقبه عندما يخرج لكى تراه يتثاءب.

ليس هو بمختلف فى شىء عن ذاك الذى ماتت فيه المحبة. ليس بمختلف فى شىء عن ذاك الذى أنهكه النفى؛ فإنى أقولها لك: إن النفى لا يمزق، بل يستهلك. لا يعود المنفى يعيش إلا على الأحلام، ولا يراهن إلا على ما لن يعود عليه بربح، وليس بذى أهمية ما يتمتع به من رخاء؛ فلم يعد ملكا إلا على مملكة من الظلال».

ويقول لى أبى: «الضرورة، ها هو الخلاص! ليس بمقدور المرء أن يراهن على ما لا يعود عليه بربح. ليس بمقدوره أن يرضى بأحلامه؛ لسبب وحيد هو أن الأحلام لا تستطيع المقاومة. خادعة هى الجيوش التى يرى

المراهقون انطلاقها فى أضغاث الأحلام. إن المجدى للمرء هو ما يقاومه. ومصيبة هذا الأبرص ليست فى أنه يفسد، وإنما مصيبته الحقة هى أن شيئا لا يقاومه. ها هو حبيس ما حوله من مئونات، لا يبرح داره».

أحيانا، جاء لرؤيته أهل المدينة فتجمعوا حول الحقل، مثل أولئك الذين ـ متى صعدوا الجبل ـ انحنوا من فوقه لرؤية ذروة البركان؛ فإن الهدير الذى يسمعونه من الأرض التى يطئونها ـ وهى تنذر بقذف حممها ـ يملؤهم رعبا. هكذا تزاحموا حول الحقل الذى اتخذه الأبرص موضعا؛ وكأنما يحيرهم لغز. بيد أنه لم يوجد أى لغز.

ويقول لى أبى: «لا تخادع نفسك! لا تحاول تخيل يأسه، وذراعيه الملتويتين، كما يتلوى هو أرقا، وغضبه على الجبار المتكبر أو على نفسه أو على البشر. ذلك أن لا شىء فيه سوى غياب يتزايد. ما الذى يمكن أن يوجد بينه وبين البشر من قاسم مشترك؟ إن عينيه تقطران، وذراعيه تتهاويان على جنبيه كالأغصان المتساقطة. ولا يتلقى من البلدة إلا دويا نائيا للمركبات. لم تعد الحياة تزوده إلا بمشهد غائم. وما للمشهد من قيمة ما. ما المرء بمستمد حياته مما هو موضوع فيه مثلما فى دكانة. ولسيحيى هذا إن استطاع أن يجلد الجواد ويحمل الأحجار ويسهم فى تشييد المعبد. لكنه يتلقى كل شىء ولا يعطى شيئا».

إلا أن عرفا قد استقر: اعتاد الأهالى المجىء كل يوم، متأثرين ببؤسه؛ ليلقوا إليه بعطاياهم عبر الأوتاد المدببة التى شكلت لذاك الحقل أسواره الشائكة. وها قد بات يخدم ويزين ويكسى مثلما الوثن المؤله، ويتغذى بأفخر الأطعمة، بل ويكرم فى أيام الأعياد على نغمات الموسيقى إلا أنه يظل بحاجة إلى الجميع، وما أى منهم بحاجة إليه. يتمتع بجميع الخيرات، ولكن لا توجد لديه خيرات يهبها للغير.

ويقول لى أبى: «كذلك بشأن الأوثان الخشبية، التى تحمل بالهدايا، وعند أقدامها توقد مصابيح العباد ويفوح عبق القرابين، ورءوسها تزين بالحلى، بيد أننى أقولها لك: إن الحشد الذى يلقى إلى أوثانه بحلى وأساور من ذهب هى أثمن ما يملك، يجعل منها كما زائدا. ولكن الوثن الخشبى يظل من خشب. ذلك أن تلك لا تبدل شيئًا، أما الحياة، فهى للشجرة أخذت من الأرض لكى تجعل منها الزهور!»

وأبصرت الأبرص يخرج من وكره ويجيل بيننا نظرة باهتة. وذاك الدوى الذى قصد به تكريمه لم يمسسه بأكثر مما يمكن أن تفعل أمواج البحار النائية. انفصم عنا وما عاد هناك من سبيل إليه. فإذا عبر واحد من أفراد الحشد عن شفقته نظر إليه باحتقار غامض، ولم يتفهم؛ مشمئزا من مباراة بلا مراهنات. فما الشفقة إن لم تصحبها مواساة تعبر عنها الأفعال؟! وفيما يخصنا نحن، فإن كانت رواسب من صفات حيوانية فينا، قد أثارت غضبه علينا؛ لأنه صار على هذا النحو يجتذب الفضوليين كما تجتذبهم عروض الاحتفالات: فما مسنا غضبه فى الحقيقة إلا قليلا؛ فقد كنا كالأطفال المتحلقين حول حوض تحوم فيه ببطء سمكة وحيدة؛ وفيم يمكن أن يهم غضبها؟ بل ما الغضب الذى لا يمكن من الإيذاء البدنى، ولا يأتى بغير كلمات فارغة تطلق فى الريح وتمضى معها؟!

هكذا بدا لى محروما؛ بفعل ما تمتع به من رخاء!! وتذكرت أشباها له فى الشمال، يجتبون الجزية من الواحات وهم على ظهور خيولهم؛ بحكم قوانين تحرم عليهم الترجل، فيمدون أطباقهم على أطراف العصى، ويجيلون نظرات جامدة دون أن يبصروا؛ فإن الوجوه السعيدة ما مثلت لهم غير ساحات لليد، بل ولماذا أمكن حتى أن يغضبوا من سعادة غريبة عن عالمهم حتى لتكاد تشابه ألعاب الحيوانات الصغيرة فى الخلاء؟ فهم إذن، ينظرون ببرود دون أن يبصروا، ثم يمرون بخطى بطيئة أمام المحال،

وينزلون ـ وهم لا يزالون ممتطين خيولهم ـ حبلا فى طرفه سلة؛ وينتظرون بصبر أن يملأه التاجر بصبر كئيب مخيف؛ لأنهم فى جمودهم لم يعودوا يبدون لنا إلا كاجترار بطيء للمرض، كموقد ومصهر وإناء؛ بهم يطول بقاء العفن. ما بدوا لنا إلا كمواقع عبور للداء، وكملاجئ له وحقول تضم خلاياه!! ولكن ما الذى توقعوه هم؟ لا شيء! فإن المرء لا يتوقع شيئا من نفسه، بل إن ما يتوقعه، يتوقعه من غيره. وبقدر ما يزيد اقتضـاب لغته تزداد فظاظة روابطه بالآخرين؛ وقل ما أمكن أن يعرفه من التطلع، ومن الملل الذى يخلفه إحباط التطلع.

ولكن ما الذى أمكن أن يتوقعه منا هؤلاء الرجال الذين انفصموا عنا على هذا النحو البالغ؟ لم يتوقعوا شيئا.

قال أبى: «انظر! لم يعد يقدر حتى على التثاؤب! لقد زهد فى كل شىء، حتى الملل، الذى هو ـ فى البشر ـ من لوازم تطلعهم!!».

٢٤

إلا أن المدينة ليلتها لم يغمض لها جفن بسبب رجل وجب أن يكفر فى الفجر عن جريمته؛ فقد قيل: «إنه برىء» وداومت الدوريات تجوالها تنفيذا لما أمرت به من قمع الحشد الذى بدأ تجمعه؛ ذلك أن شيئا ما أخرج الناس من مساكنهم ودفعهم للتلاقى.

وأنا قلت لنفسى: «إن عذاب فرد واحد قد أشعل هذا الحريق! من سجنه لاح فى سماء المدينة كالشعلة».

وأحسست احتياجا إلى معرفته ومضيت صوب السجن فظهر لى هذا كمكعب أسود يقتطع مكانا له من لوحة السماء ذات النجوم. وفتح لى الحراس البوابات فدارت على محاورها ببطء. وبدت لى الجدران سميكة على نحو استثنائى، والكوات تسدها قضبان متوازية. هناك أيضًا راحت دوريات تجوب الأروقة والساحات فى الظلام؛ وينتبه أفرادها لمرورى؛ فينتفضون مثلما تنتفض وحوش الليل. وفى كل مكان تلك الرائحة البشرية الناتجة عن التكدس، وأصداء كالتى تسمع فى قبر عميق؛ إذا ما أسقط أحد مفتاحا أو دب على الأرض بحذائه. وجال بخاطرى سؤال عما إذا كان من الضرورى أن يكون الإنسان خطرا؛ لكى يلزم اللجوء إلى هذه الأثقال لسحقه، وهو الذى بلغ من ضعفه ـ وهزال بدنه ـ أن مسمارا واحدا يكفى لسلبه حياته؟!

كأنما كانت كل الخطى التى سمعتها تطأ بطنه، وكل تلك الجدران والمنافذ والحواجز تثقل عليه. وقلت لنفسى: «إنه روح هذا السجن. إنه المعنى لهذا السجن والمركز لحقيقته» وبالرغم من ذلك، فما الذى هو مبديه فى نفسه سوى مجرد كم من الأغلال؛ هو الراقد خلف القضبان، بل والنائم ربما وهو يتنفس بصعوبة. رغم أنه ـ على حاله ذاك ـ باعث لمدينة، ومسبب لهذا الزلزال؟! وهو الذى لا يتحرك إلا ليتقلب من حائط إلى آخر!!».

فتحت لى كوة فى باب زنزانته ونظرت؛ عالما تمام العلم أن هناك شيئا ينبغى فهمه، ورأيته.

وجال بخاطرى أنه ربما لم يأت ـ مما يمكن أن يلوم نفسه عليه ـ بسوى محبة البشر. لكن ذلك الذى يبنى دارا يعطى داره شكلا. ويقينا أن كل شكل يمكن أن يكون مرغوبا، ولكن ليس كل الأشكال معا؛ وإلا فلن تعود هناك دار.

إن الوجه المستخلص من الحجر، مصنوع من جميع الوجوه المرفوضة، وكل منها يمكن أن يكون جميلا، ولكن ليس كلها معا؛ وقد يكون حلمه جميلا.

نحن الاثنان ـ هو وأنا ـ على ذروة الجبل، هو وأنا وحدنا. نحن هذه الليلة على ذروة العالم. نتلاقى ونترابط؛ ذلك أن شيئا واحدا فى هذا الحشد لا يفرق بيننا. إنه يطلب العدل مثلى، إلا أنه سيموت! وأحسست العذاب بين جوانحى.

إلا أنه لكى تتحول الرغبة إلى فعل.. لكى تصير قوة الشجرة غصنا.. لكى تصير المرأة أمًّا ـ يجب القيام باختيار! وإنما هو من الظلم الناتج عن

الاختيار، ما يكون من مولد الحياة!! فتلك التى كانت جميلة أحبها ألف رجل، وهى أحبطت منهم تسعمائة وتسعة وتسعين؛ لكى يكتمل وجودها (كحبيبة مخلصة لرجلها الأوحد). وما هو كائن، هو دائما ظالم!!

فهمت أن كل اكتمال للوجود هو أولا قسوة!

عاودت إغلاق الكوة ومضيت بطول الأروقة، مفعما بالتقدير والمحبة.. «ما معنى العفو عنه ليترك ـ عائشا ـ فى العبودية، هو الذى اكتسب العظمة من كبريائه؟». ومررت بالدوريات وبالسجانين، وبالكناسين الذين يبدأ عملهم فى الفجر؛ وكل هذا الشعب يخدم سجينه، وهذه الجدران الغليظة تحفظ سجينها، مثل تلك الأنقاض المنهارة التى تستمد معناها من الكنز المخفى بين ثناياها. والتفت مرة أخرى صوب السجن: برجه على هيئة تاج شامخ يطاول النجوم، وهو بأجمعه على هيئة سفينة تمضى بحمولتها على أقصى سرعة؛ وساءلت نفسى: «من المنتصر؟»، وعندما ابتعدت، عادت إلى السجن صورته، منكفئا فى الليل، شبيها بمخزن للبارود.

وخطر ببالى أهالى المدينة: «يقينا أنهم سيبكون»، هو ما خطر لى. «ولكنه حسن أن يبكوا!».

ذلك أننى أمعنت الفكر فى أغانى شعبى، وما أصعدوه من أصوات، وما جال بفكرهم من تأملات؛ وقلت لنفسى: «سيد فنونه؛ ولكن الإنسان لا يدفن! إنما الذى يدفن هو بذرة. لا سلطان لى على الحياة، وسيبعث هو يوما. أستطيع شنقه بحبل، ولكن ستنطلق من موته أغنية؛ وهذا النداء سيدوى فى أذنى من يروم التوفيق بين المتفرقات. لكن ما الذى أستطيع أنا توفيقه؟.

إن علىَّ أن أقر الانتظام فى ترتيب بعينه؛ وليس فى غيره بالتزامن معه.

عليّ ألا أخلط بين النعيم وبين الموت! أنا أسير صوب النعيم، ولكن عليّ ألا أنكر المتناقضات، عليّ أن أتلقاها: هذا حسن، هذا سيء. أمقت المزيج؛ الذى ليس إلا عقارا للضعاف يقضى على رجولتهم! لكن عليّ أن أكبر، وأن أتقبل عدوى!».

٢٥

هكذا عرفت حدود مملكتى، وإن كانت حدودها هذه قد سبقت إلى هذا الإيضاح؛ لأننى لا أحب إلا ذلك الذى يقاوم. أولى صفات الإنسان أو الشجرة، هى المبادرة بالمقاومة. لذا فإن هاتيك الراقصات المزيفات اللاتى بتن كأقنعة للقلاقل الداخلية والخلافات المستمرة وصنوف الهجاء نثرا وشعرا، أقارنهن بأغطية لصناديق فارغة! أنا أحب من يتجلى بفضل مقاومته، من يصمت متحفظا، من يظل صلبا، مغلق الفم أثناء تعذيبه، من قاوم التعذيب والحب على حد سواء، من حدود اختياره وأوقع الظلم حين امتنع عن الحب! أنت، يا شبيه البرج الرهيب؛ والمنيع إلى الأبد!

ذلك إننى أمقت التساهل! ما يستحق صفة الإنسان من لا يعترض؛ بل فليلحق ـ هذا الآدمى الذى بلا بذرة تحركه ـ بالنمل حيث لا يبين للمنعم أثر!! ها هى على أوضحها المعجزة التى تمثلت لى فى السجن الذى يأتمر كل من فيه بأمرى، تمثلت لى على أقواها، أقوى منك ومنى ومنا جميعا، أقوى من حراسى ومن خنادقى ومن أسوارى! ها هو على أشده اللغز الذى أضنانى، والذى واجهنى به الغرام أيضًا؛ حين دانت لى بالخضوع من دانت، وهى عارية! يا لعظمة الإنسان! وإن كانت هى نفسها حقارته!! فقد عرفته عظيما بالإيمان لا بما فى ثورته من كبرياء!

٢٦

هكذا بدا لى أن الإنسان غير جدير بالاهتمام؛ ليس لأنه غير قادر على التضحية ولا على مقاومة الإغراءات ولا على تقبل الموت (وهذا خوفا منه على وجوده) فحسب؛ بل أيضًا لأنه يخضع لقوانين الحشد متى ذاب فيه وأطاعه. أما الوعل أو الفيل المنعزل أو الرجل المعتصم بالجبل، فهذا شأن كل منهم. وعلى الحشد أن يحترم صمته، وألا يخرجه منه؛ عن حقد على ذاك المشابه لشجرة الأرز، إذ تشرف على الجبل!

هذا الذى يجيئنى كى يحتوى الإنسان بلغته ويعبر عنه بما يطرحه من منطق، يبدو لى شبيها بالطفل الذى يجلس على سفح جبل الأطلس، ومعه دلوه ومجرفته ويفكر فى مشروع لاحتواء الجبل ونقله إلى موضع آخر!! إن الإنسان هو ما يكون لا ما يتم التعبير عنه! يقين أن هدف كل إدراك هو التعبير عما هو كائن؛ ولكن التعبير مجهود عسير، بطىء ومضنٍ، والخطأ هو الظن أن ما لا يمكن الإنباء به أولا، ليس كائنا؛ فإن لكلٍ من الإنباء والإدراك نفس المعنى. لكن ذلك الجانب من الإنسان الذى استطعت حتى اليوم إدراكه، هو الأقل من بين جوانبه؛ فما أدركته فيه يوما لم يكن من بين صفاته فى سابقه من الأيام، وإنى لمخادع نفسى إذا ظننت أن سائر ما يستعصى التعبير عنه من صفات الإنسان، غير جدير بالاعتبار! فإنى لا أعبر عن الجبل وإنما أعنيه! ولكننى أخلط بين المعنى وبين الاحتواء: إن

المعنى مقصود به من يعرف أصلا، لكن ذلك الذى يجهل، كيف أستطيع أن أنقل إليه الجبل بتشققاته التى تنحدر منها الأحجار، وجنباته المزهرة، وذراه المشتبكة بالنجوم؟ أنا العارف بأن الجبل ليس قلعة مفككة، أو سفينة بلا هدف؛ يحل من يشاء حبلها من حلقة الحديد ـ ليمضى بها إلى حيث يشاء! ـ بل ذلك الكيان الرائع الذى تحكم القوانين ما فيه من جاذبية وما يسوده أحيانا من صمت يفوق فى جلاله صمت الكواكب فى مساراتها.

هكذا تنازعنى كل من الإعجاب بالإنسان المذعن، وبذلك الذى لا سبيل إلى إخضاعه، والذى يظهر منه كنهه؛ فاستطعت فهم المشكلة، لا صياغتها! فإن أولئك الذين يحكمهم الانضباط الأشد صرامة؛ ويتقبلون الموت بمجرد إشارة منى.. الذين يستثير إيمانى منهم الحمية، والثابتين بالرغم من ذلك على انضباطهم؛ حتى لأستطيع فى حضورهم أن أهينهم، وأن أخضعهم مثل الأطفال: هم أنفسهم الذين ـ على النقيض ـ يظهرون؛ متى انطلقوا فى مغامرة واصطدموا بغيرهم، متانة الفولاذ، ويستمطرون من السماء غضبا ويستبسلون فى مواجهة الموت.

فهمت أنهما ليسا إلا ملمحين لنفس الإنسان، وأن ذلك الذى نعجب به كجوهر لا سبيل إلى التفريط فيه (أو تلك التى يستحيل إخضاعها، وإن غابت بين أحضانى مثل سفينة فى أعالى البحار) ذلك الذى أعلى فيه صفة الإنسان؛ لأنه لا يصالح ولا يتواطأ ولا يتحالف، ولا يتخلى عن جانب منه عن براعة أو عن جشع أو عن إعياء، ذلك الذى أستطيع سحقه تحت الرحى دون أن أستطيع استخلاص قطرة واحدة من السر الذى انطوى عليه مثلما تنطوى الحبة على زيتها.. ذلك الذى يحمل فى قلبه بذرة الزيتون الصلبة تلك.. ذلك الذى لا أرضى بأن يحكمه الحشد ولا الطاغية؛ إذ صار ماسة مكنونة فى القلب؛ قد اكتشفت فيه على الدوام الوجه الآخر!

وهو مذعن وكله احترام وإيمان واستسلام.. هو الابن العاقل لأسرة من عنصر الروح.. والمؤتمن على فضائلها!

أما أولئك الذين دعوتهم «أحرارا»؛ غير المحكومين فى قراراتهم إلا بأنفسهم، والمغالين فى تفردهم؛ أولئك لا يقادون؛ هم سفن لا تعمل بأمر الريح؛ وأبدا لن تكون اعتراضاتهم إلا نزوات متهافتة!

هكذا كانت ليلة العرس والقضاء بالإعدام؛ وهكذا خبرت الشعور بالوجود. حافظوا على هيئتكم! كونوا دائمين، ماضين قدما كما يمضى صدر السفينة! وما استقيتموه من الخارج غيروه فى داخلكم مثلما تفعل شجرة الأرز. أنا هو الإطار والهيكل والفعل الخالق الذى منه تولدون. عليكم الآن أن تنموا وتستقروا؛ مثل الشجرة الجبارة التى تنمى فروعها، لا فروع غيرها، وتشكل أشواكها وأوراقها، لا أشواك غيرها وأوراقه!

أما الذين يحيون على مآثر غيرهم، وبألوان غيرهم يتلونون مثل الحرباء الذين يحبون المصدر الذى تجىء منه الهدايا، ويستمرئون الهتافات، ويحكمون على أنفسهم وفقا لصورتهم فى مرآة الحشود؛ فأولئك جميعا سأقول عنهم: «إنهم من الرعاع»؛ لأن المرء لا يعرف إليهم طريقا؛ لأنهم ليسوا مثل القلعة المغلقة على كنوزها، ولا تتناقل الأجيال عنهم كلمة السر! بل إنهم يتركون أطفالهم ينمون دون أن يشكلوهم؛ وهؤلاء ينمون على ظهر الأرض كالنباتات الطفيلية.

٢٧

لقد رأيتهم، أولئك الذين عانوا الظمأ.. الظمأ الذى هو غيرة على الماء، أقسى من المرض؛ لأن البدن يعرف دواءه ويتطلبه مثلما يتطلب الجماع، ومن يعانى الظمأ يرى بخياله الآخرين يرتوون؛ مثلما يرى مشتهى الأنثى تهللها للآخرين. ما لأى شيء من معنى إن لم أدخل فيه بدنى وذهنى، وما من مغامرة إن لم أشترك فيها؛ وإن نظر العرافون فى بلاطى إلى المجرة فى السماء بحكم دراساتهم التى تستغرق ليالى متتالية؛ فإنهم يكتشفون فيها الكتاب الأعظم الذى يعلو دوى من صفحاته المتقصفة عندما تقلب، ويهيمون بفاطر السماوات الذى أفعم العالمين بمادة تبقى على الحياة، وإن تفطرت منها القلوب!

لقد قلتها لكم: «لا يحق لكم أن تتجنبوا مجهودا إلا فى سبيل مجهود آخر؛ فإن عليكم أن تكبروا!».

٢٨

في تلك السنة قضى نحبه ذلك الذى ساد ما يجاور مملكتى من جهة الشرق، ذلك الذى قاتلته بضراوة، مدركا بعد قتال طويل أننى ظللت معتمدا عليه مثلما على جدار! لا زلت أذكر لقاءاتنا؛ إذ جرت العادة على نصب خيمة قرمزية فى الصحراء، ويظل جيش كل منا على مبعدة من جيش الآخر؛ فليس حسنا أن يختلط الرجال ببعضهم البعض. الحشد لا يعيش إلا بمعدته، وكل تمويه يتساقط قشورا! ومن ثم ظلوا يرقبوننا بغيرة؛ وهم يحتمون بأسلحتهم، غير متأثرين بأى مما يمكن أن يلين قلوبهم. ذلك أنه كان محقا أبى، القائل: «إن على المرء ألا يلاقى الإنسان فى ظاهره بل فى الطابق السابع من نفسه وقلبه وروحه؛ وإلا فسيريق دمه بلا جدوى من جراء التماسه المخبر من مظهر أشد التصرفات فظاظة!!».

هكذا فهمت أنا جارى والتمست بلوغ مجلسه حيث تسامى وتحصن بسور مضاعف من العزلة، ونجلس على الرمال مواجهين أحدنا الآخر.

لا أعلم من منا عندئذ فاقت قوته قوة الآخر. لكن القوة غدت ـ فى تلك العزلة المقدسة ـ مقياسا؛ فقد كنا نتحسب لكل حركة يمكن لأى منا أن يقيم بها الدنيا ويقعدها. وعندئذ يدور حديثنا عن المراعى؛ فيقول هو: «نفقت من بهائمى الآلاف: نحو خمس وعشرين ألفا، ولديك جادت السماء بالمطر». إلا أننى ما أمكن أن أتحمل قدوم قومه إلىَّ بأعرافهم الأجنبية،

وبشكوكهم التى تبذر الفساد؛ فأجيبه قائلا: «لدى من الصغار نحو خمسة وعشرين ألفا، يجب أن يحفظوا صلواتهم لا صلوات غيرهم؛ وإلا فلن تستوى لهم صورة!» ويحتكم شعبانا إلى السلاح. كان كل منا شبيها بالبحر فى مده وجزره. فإن أحجم أى منا عن الزحف على الآخر ـ رغم أن كلا منا يثقل على الآخر بكل قواه ـ فلأن المد قد بلغ أقصاه، والمندحر ازدادت بهزيمته صلابته: «أنت قد هزمتنى؛ وإذن فقد اشتدت قوتى»!!

ليس أننى استهنت بما فيه من عظمة، أو بما فى عاصمته من حدائق معلقة أو بما لدى تجاره من عطور! ولا أنا بالمثل استهنت بقدرة صائغيه على إبداع الحلى أو بالسدود العالية التى حفظ بها مياهه؛ فإنما الإنسان الناقص هو الذى يختلق الاستهانة؛ لأنه ينكر حقيقة الآخرين حفاظا على حقيقته هو، فيستبعد من الحقائق سواها! لكننا نحن العليمين بأن الحقائق تتعايش مع بعضها البعض، لم يخطر ببال أى منا أنه يتصاغر؛ إذ يعترف بما لدى الآخر من حقائق، حتى وإن كان هو نفسه الذى ساعد على إيجادها؛ بخطأ من صنعه! وعلى حد علمى أن شجرة التفاح لا تستهين بالكرمة، ولا النخلة بشجرة الأرز! ولكن كلا منها يزداد متانة على أقصاه ولا يخلط جذوره بجذور غيره، ويحمى هيئته وجوهره؛ لأن فيهما ذخرا لا يقدر بثمن ولا يصح الإخلال به!

أذكر قوله لى: «إن البذل الحقيقى هو قارورة العطر أو البذرة أو قطعة مهداة من شجرة الأرز؛ تفعم دارك بعطر شجرتى التى احتفظت بقطعة منها، ويدوم شذاها بعد اصفرارها. بل إنه صيحة الحرب عندما تجيئك من جبال أهيمن عليها، أو ينقلها إليك سفير خضع طويلا لتربية قويمة؛ فصار متينا صحيح التكوين، وهو فى آن واحد معا؛ ينكرك ويتقبلك! ينكرك فى درجاتك السفلى، ولكنه يقابلك حيث يعرف الإنسان لنفسه قدرا يعلو فوق الكراهية. إن التقدير الوحيد الذى هو ذو قيمة، هو ذلك الذى يحمله المرء

لعدوه. ولا قيمة لتقدير المرء لأصدقائه إلا إذا سيطروا على ما يحملونه له من عرفان، وعلى تشكراتهم وعلى حركاتهم الفظة جميعا. فإذا نويت أن تموت فى سبيل صديقك فلا تأخذنك بنفسك شفقة!».

لذا أكون كاذبا إن قلت: «إننى عرفت فيه صديقا»، إلا أن لقاءاتنا سادتها بهجة عميقة وإن نتج عنها خروج الكلمات عن مسارها بفعل لطاظة البشر عندما تستخفهم البهجة! لكنها فى عمقها لم ترجع إليه، بل إلى خالقنا، كانت سبيلا إلى الخالق، مراقى إلى الأعالى؛ ولم يكن لدى أى منا ما يقوله للآخر.

ليغفر لى خالقى نحيبى عندما عرفت بمماته!

ها أنا قد بقيت وحيدا، مسئولا بمفردى عن كل ما كان لى من ماضٍ؛ ودون شاهد رآنى أحيى، ولا راصد لأفعالى التى استهجنت إظهارَها لشعبى ولكنه هو ـ جارى الذى فى الشرق ـ أدركها، كل هواجسى التى انطويت عليها وأبيت أن أجعل منها مشهدا عاما، ولكنه هو فى صمته استشعرها. كل المسئوليات التى ظللت أنوء بثقلها والتى جهلها الجميع (فإنه حسن أن يظنوا بى ـ أولا ـ التحكم والاستبداد)، ولكنه هو ـ جارى الذى فى الشرق ـ قدر زنتها، غير متعاطف؛ بل متعاليا ومتباعدا؛ فإن تقديره للأمور اختلف عن تقديرى. وها هو الآن يرقد تحت التراب؛ جاعلا منه كفنه اللائق به. ها هو قد صمت. ها هو قد شرع فى ابتسام حزين مستعصم بالمقتدر؛ راضيا بحزمه باقته من الزهور، ليكون جمالها آخر ما تراه عيناه قبل أن تغمضا، هما اللتان رأتا من قبل كل ما ادخره! آه! ما أشد ما فى اضطرابى من أنانية! أنا شديد الضعف؛ معلق الأهمية على مسيرة مصيرى، بينما لا توجد لمصيرى مسيرة!! الجاعل من نفسى مقياسا للمملكة بدلا

من أن أنصهر فيها، والمكتشف أن حياتى الشخصية قد انتهت بى ـ مثلما الرحلة ـ إلى هذه الذروة.

فى تلك الليلة بلغت مفترق الطرق فى حياتى؛ لأهبط من أحدها بعد أن صعدت بطيئا من الآخر، غير متذكر أحدا، بالغا الشيخوخة للمرة الأولى، مفتقدا وجوها مألوفة، غير مكترث بأحد، لأننى لا أكترث بنفسى، وتاركا على المنحدر الآخر كل من ائتمروا بأمرى من ضباط وأفراد ـ منهم الرجال والنساء ـ وتاركا جميع أعدائى وربما أيضًا صديقى الأوحد؛ وقد صرت وحيدا إلى الأبد فى عالم حافل بأقوام لم أعد أعرفها.

لكننى فى حينها استطعت الاستدراك؛ مقتنعا بأننى نزعت عن نفسى آخر قشورها؛ وربما سأصير نقيا. ما أنا بهذه العظمة طالما عرفت نفسى، وقد منيت بهذه المحنة؛ لأننى تراخيت؛ لأن ذاتى تضخمت بمشاعر قلب تدنى. ولكننى سأستطيع إجلال صديقى الميت كما يليق به. ولن أبكيه! يكفينى من ذكراه أنه كان! وسيبدو لى مثواه الذى فى الصحراء أفخر مما هو؛ لأننى رأيته يبتسم، أينما لاقيته فى تلك الصحراء. وكل ما لقيته من ابتسام البشر، سيزيده ابتسامه هذا ابتساما! ابتسامه هذا سيثرى كل الابتسامات! فإنى عندئذ سأرى فى الإنسان افترارا لثغره لم يستطع أى مشكل للحجر أن ينحته فيه! لكننى أنا سأتعرف ـ عبر طبقات الحجر ـ على وجه الإنسان بأفضل مما فعلت حتى الآن؛ بما أننى صوبت نظراتى إلى نموذج حى له، وتلاقت عيوننا!!

وفى الجبل الذى اعتليته، عاودت الهبوط. أى أبناء شعبى، لا تخافوا! لقد أحكمت العقدة. ما كان حسنا أن أحتاج إلى بشر؛ ولكن اليد التى شفتنى وداوت جرحى قد اختفت، وإن بقى الدواء. أعاود الهبوط من الجبل وآمر بالنعاج والحملان؛ أربت عليها. أنا وحيد فى العالم قبالة

الرحمن، أربت على الحملان التى بفضلها أجد طريقى إلى منابع القلب؛ فإنما عبر الحملان أدرك هوان البشر، وأصل إلى حيث ألاقيكم.

أما الآخر فقد أقررته؛ وما تمتع بحكم أفضل من هذا قط! أقررته فى الموت. وكل عام تنصب خيمة فى الصحراء، بينما يقيم شعبى الصلاة. جيوشى تحتمى بأسلحتها: المدافع معبأة والفرسان يجوبون الصحراء للمراقبة؛ ومن يخاطر بوطء بقاع محرمة؛ يضرب عنقه. وأنا أمضى وحيدا.. أرفع أستار الخيمة وألجها وأجلس. وعلى الأرض يخيم الصمت.

٢٩

والآن؛ إذ أعانى ألما بسيطا فى كليتى لا يستطيع أطبائى شفائى منه، الآن وأنا كالشجرة فى الغابة تنزل بها فأس الحطاب، والقابض المميت سيقبض روحى متى جاء أجلى؛ الآن إذ لم تعد يقظتى فى كل صباح مماثلة لما كانت عليه منذ عشرين عاما، لم تعد استجماما للعضلات وسياحة للذهن فى الفضاء ـ وجدت ما يواسينى، وهو ألا أعبأ بهذه الإنذارات التى تبثها كل أعضاء جسدى، وألا أنوء بمعانيات ضئيلة تخصنى أنا وحدى ولا تخرج عن كيانى الشخصى؛ ولها لن يكرس مؤرخو مملكتى ثلاثة أسطر فى تقاويمهم؛ فما من أهمية لاختلال أسنانى أنا، أو لضرورة خلع بعضها! ولسيكون بؤسا منى أن أتوقع أدنى شفقة؛ بل على النقيض يتصاعد غضبى لو خطر لى ذاك! فإنما نصيب التشققات قشرة الوعاء لا محتواه! ويحكون لى عن جارى الذى فى الشرق: أنه حين أصابه الشلل وصار جانب منه باردا هامدا؛ وراح ينقل معه حتما فى كل مكان، توءمه الملتصق ذاك الذى لم يعد يضحك ـ لم يفقد شيئًا من كرامته، بل على العكس تماما نجح فى تأهله لوضعه المستجد الذى فرض عليه. وإذا هنأه أحد بما تأكد من قوة إرادته أجاب بكبرياء، ناصحا من هنأه بألا يعاود ارتكاب ذاك الخطأ؛ الراجع إلى عدم المعرفة الوثيقة بشخصه، وقائلا له أن يحتفظ بمثل تلك المجاملات لتجار البلدة! ذلك أن الحاكم الذى يعجز عن البدء بحكم

جسمه هو؛ ليس إلا مغتصبا يستهزأ به! أما أنا فما استطاعتى اليوم التحرر قليلا؛ إلا بهجة أراها مدهشة، لا خسارة.

آه! يا للشيخوخة! لعلنى لا أعود بعد أتعرف على شىء إذا ما سلكت المنحدر الآخر للجبل الذى اعتليته؛ والقلب مثقل بذكرى صديقى الذى مات، وأنا أرقب القرى بعين أفرغها الحزن من دموعها، متطلعا إلى المحبة كى تجيئنى كمد البحر لتستردنى.

٣٠

سأخاطب الصمت بأنشودة: «أنت يا موسيقى الفاكهة، أنت يا ساكن الكهوف والمستودعات ومخازن الحصيد، أنت يا إناء العسل المصنوع بهمة النحل، أنت يا غذاء البحر فى اتساعه.

أنت يا من أعقل فيه البلدة من أعالى الجبال؛ فتصمت قوافلها وتنقطع صيحاتها وتكف أدواتها عن الدق. وكلها أشياء تتوقف أصلا متى لفها ظلام الليل؛ وهو سهر العلى الكبير علينا نحن المحمومين، ذى الجلال يدثرنا فيسكن روعنا.

صمت النساء اللاتى لم يعدن إلا أشجارا تنبت الثمار.. صمت النساء اللاتى يثقلهن ما يحملن فى أرحامهن.. صمت النساء الذى هو صمت كل أباطيل النهار، وصمت الحياة التى هى حصاد الأيام.. صمت النساء الذى هو صومعة وتواصل.. صمت يتأدى فيه إلى الغد الطريق الوحيد الماضى إليه. إنها تستمع إلى الطفل الذى يدب فى جوفها. الصمت؛ حيث أودعت كل ما لى من شرف وكل ما لى من دماء؛ مؤتمنا إياه!

صمت الرجل الذى ينعم النظر ويتفكر، يتلقى ولا يسرف، ويستخلص الرحيق من أفكاره. صمته يتيح له المعرفة كما يتيح له الجهل؛ فإنما الجهل حسن أحيانا. الصمت طرد للديدان والطفيليات والأعشاب الضارة. الصمت يحمى المرء حين تتوالى خواطره.

صمت الخواطر نفسها. استراحة النحل؛ إذ العسل قد صنع وينبغى ألا يكون سوى كنز مكنون، آخذ فى النضج.. صمت الخواطر التى لا ترفرف بأجنحتها إلا بعد أن تتأهب؛ فإنه ليس حسنا أن تضطرب الروح، ولا أن يضطرب القلب.

صمت القلب. صمت الحواس. صمت الكلمات الباطنة؛ ذلك أنه حسن أن تكون رجعى المرء إلى ربه، وهو الصمت خالدا؛ إذ إن كل شىء قد قيل، وكل شىء قد فعل.

صمت الخالق كمثل نوم الراعى؛ فما من نوم يفوق نومه هناء، حتى وإن بدا حملان النعاج متهددين!! عندما لا يعود هناك راع ولا قطيع؛ فمن ذا الذى سيستطيع ـ على ضوء النجوم ـ تمييز أحدهما من الآخر والنوم يلف كل شىء، كما يلف النعجة صوفها؟!».

آه، ربِّ! فى اليوم الذى سيشهد استيداعك خليقتك، افتح البوابة الكبرى لعنصر البشر الذى لاسمة له إلا الثرثرة!! ليصطف أفراده فى الحظيرة الأبدية وقد انقضت الأزمنة، وأفرغ أسئلتنا من معانيها بمثلما تشفينا من أدوائنا!

رب، فإننى قد أوتيت فهمًا لكل تقدم للإنسان، على أنه اكتشاف كون تلك الأسئلة ـ واحدا تلو الآخر ـ بلا معنى؛ إذ استبشرت العلماء حولى فابتسموا، ساخرين من أنفسهم وقد بلغتهم الحقيقة، كأنما لتمحو الأسئلة؛ وإن ظلوا قبلها يتخبطون فى محاولاتهم الإجابة على أسئلة تلح عليهم منذ السنة الماضية!!

رب، أنا العليم تمام العلم بأن الحكمة ليست الإجابة على الأسئلة؛ بل شفاء من عثرات اللغة، وهذا العلم يؤكده لى مرأى العشاق الذين يجلس الاثنان منهم متجاورين على حائط يحد مزرعة البرتقال؛ الكتف

لصق الكتف، وسيقانهما تتأرجح؛ وهم أنفسهم ـ هؤلاء العشاق ـ يعلمون أنهم ما تلقوا إجابة على أسئلة طرحوها بالأمس؛ ولكنه الحب؛ حيث لا يعود يطرح أى سؤال!

وإذ أبدد التناقضات ـ واحدا تلو الآخر ـ أسير صوب السكوت عن الأسئلة، ومن ثم إلى النعيم.

ما أشد العطب الذى تصيب الثرثرة به البشر!

أحمق؛ من يتطلع إلى إجابة الباعث المجيد، فإن استجاب لك فإنما ليشفيك ويذهب عنك الأسئلة التى أرهقتك كالحمى التى لا تذهبها عنك إلا يده.

رب! فى اليوم الذى سيشهد استيداعك خليقتك، افتح لنا بوابتك على مصراعيها واجعلنا نلج حيث لا تعود توجد إجابة، فلن يوجد غير النعيم، وهو المغنى عن كل إجابة؛ يلقانا بما يرضينا. وسيكتشف الوالج اتساع الماء العذب الذى يفوق اتساع البحار، والذى أحسن التنبؤ به يوم استمع إلى خرير المنابع وهو جالس يؤرجح ساقيه، لصق تلك التى رطبت أنفاسها قلبه هنيهة؛ وما هى إلا ظبية مرغمة على مواصلة الفرار!

الصمت، مرفأ السفينة، وصمت ذى الجلال، مرفأ كل السفن».

٣١

بعث إلى إله السماوات تلك التى تكذب بأيما طلاوة! يكفى أن تغنى بصوتها القاسى!! واجتذبتنى؛ كأنها نسيم البحر العليل.

قلت لها: «لماذا تكذبين؟».

عندئذ بكت، واشتد انهمار دموعها. وتفكرت أنا فى مغزى هذه الدموع..

قلت لنفسى: «إنها تبكى؛ لأن أكاذيبها لا تنطلى علىَّ؛ فما أنا بمصدق ما يختلقه البشر! أنا لا أعرف لما يختلقونه معنى! يقين أن هذه تبغى أن تحسب أخرى؛ لكن ليست هذه الفاجعة بمضنية لى أنا، بل لها هى؛ فما أقوى رغبتها فى أن تكون تلك الأخرى! والفضيلة رأيتها تراعى من جانب من ادعينها بأكثر كثيرا مما شهدتها تراعى من جانب من تمسكن به، واللاتى يتساوى ما تمسكن به من فضيلة بما اتسمن به من دمامة! فما أشد رغبة مدعيات الفضيلة فى أن يكن موضع الحب!! وإن ما عرفن كيف يسيطرن على أنفسهن، أو بالأحرى استسلمن لمن سيطر عليهن؛ فداومن تمردهن. ولجأن إلى الكذب لكى يتجملن».

إن المبررات التى تعتمد على التلاعب بالألفاظ، ليست هى أبدا المبررات الحقيقية؛ لذا فما لى من مأخذ سوى على إساءة التعبير، وهذا

هو السبب فى صمتى أثناء ترديدها أكاذيبها، موطنا نفسى ـ وصمت محبتى يجللنى ـ على ألا ألقى بالا إلى جلبة الكلمات، بل إلى المجهود وحده، وهو مثل ذلك الذى يقوم به الثعلب الواقع فى كمين؛ يصطرع داخل الكمين، أو الطائر الذى يدمى محاولا الإفلات من القفص. واتجهت إلى الإله مناجيا إياه: «لم أنكرت عليها القدرة على تعلم لغة تستطيع بها التواصل؟ فإننى لآمر بشنقها لو بلغتنى كلمة واحدة مما تتلفظ به، محبا لها كنت أو غير محب. إلا أن فيها ما يثير الشفقة وهى تختلج فى ليل أوغل؛ فانقبض له قلبها، ولسال الدم من جناحيها لو كانت طائرا؛ من فرط تخبطها. ولقد ذكرتنى بتلك الصغار من ثعالب الرمال، التى كنت أمد يدى إلى الواحد منها بقطعة من اللحم؛ فيرتعد ويعقر وينتزعها منى كى يمضى بها مسرعا إلى وكره».

وقالت لى: «مولاى، إنهم لا يعرفون أننى بريئة.».

يقينًا، إننى لم أكن غافلا ـ على الإطلاق ـ عما أحدثته بداخلى من اضطراب، إلا أننى استشعرت ضرورة لجوئى إلى الحزم الإلهى؛ واستأنفت مناجاتى: «أعنها على البكاء! فلتذرف بفضلك دموعها حتى يعييها ما بها؛ فتميل على كتفى. إن إعياءها لم يبدأ بعد!».

ذلك أنها لم تكن قد تلقت تعليما ملائما يتجه بها إلى الكمال؛ وواتتنى الرغبة فى تخليصها. أجل، رب! لقد فاتنى ما يجب أن أقوم به؛ فما من أحد بلا أهمية، حتى الفتاة الصغيرة! تلك التى تبكى، ليست هى العالم؛ بل دلالة على العالم. وينتابها الاكتئاب؛ لعدم قدرتها على الصيرورة. لكنها إن أحرقت ورجمت أثناء إحراقها، أو غرقت فى نهر جرفها تياره إلى غير رجعة؛ فقادم أنا ! أنا لكم الأرض والحظيرة والدلالة. أنا أعظم ما اصطلحت عليه اللغة... أنا دار وإطار وهيكل!

قلت لها: «اسمعينى أولا!».

هى أيضًا يجدر الترحيب بها، وكذلك أطفال البشر، وخاصة أولئك الذين لا يعرفون أن باستطاعتهم أن يعرفوا!!

«فإننى أريد أن آخذ بأيديكم؛ لأرشدكم إلى أنفسكم؛ أنا الموسم الذى فيه يزدهر البشر!».

٣٢

قلت لهم: «لا تخجلوا من أحقادكم!»؛ فإنهم أصدروا حكمهم بإعدام مائة ألف، وهؤلاء راحوا يجولون داخل السجون وعلى صدر كل منهم لافتة تميزه عن الآخرين؛ مثلما فى حظائر البهائم. قدمت واستوليت على السجون. واستدعيت ذاك الجمع، ولم أجد فيهم أى اختلافات عن سائر الناس. سمعت ونظرت وأدركت؛ رأيتهم يتقاسمون خبزهم مثل الآخرين، ويتزاحمون ـ مثل الآخرين ـ حول الأطفال المرضى؛ ويهدهدونهم ويسهرون عليهم، ورأيتهم يعانون ـ مثل الآخرين ـ بؤس العزلة؛ عندما ينعزلون، ومن نسائهم رأيت من بكين ـ مثل سائر النساء ـ عندما أحسسن بين الجدران السميكة بأفئدتهن تهوى؛ فقد رأيت من رجالهم أيضًا من يستحق أن يطير إليه قلب فتاة!

ذلك أننى لم أنس ما قصه على السجانون. ورجوت أن يجاء إلى بذلك الذى ارتكب جريمة بخنجره، واستجوبته بنفسى؛ ولم يكن اهتمامى به هو، وقد سبقنى الموت إلى الأخذ بتلابيبه! وإنما بما هو ـ لدى الإنسان ـ مستعص على كل محاولة للنفاذ إليه واختراقه.

فإنما الحياة تنمو حيثما تستطيع أن تنمو؛ فى تجويف رطب بالصخرة تتكون طحالب، وإن تكن بالتأكيد مقضيا عليها سلفا؛ متى هبت من

الصحراء أول ريح جافة. لكن الطحالب تخفى بذورها التى لن تموت؛ ومن ذا الذى سيزعم أن هذا الظهور للخضرة لا جدوى له؟!

وإذن، فقد علمت من سجينى أنه قد استهزىء به، وأن غروره وكبرياءه تأثرا بما عاناه؛ الغرور والكبرياء المحتمل أن يملكهما محكوم عليه بالإعدام!!

وأقرانه رأيتهم أيضًا ـ والبرد قارس ـ يتلاصقون ببعضهم البعض. وتشابهوا بالنعاج التى فى الأرض كافة.

واستدعيت القضاة وسألتهم: « لم هم معزولون عن الشعب؟ لم يحملون على صدورهم لافتات المحكوم عليهم بالإعدام؟».

وأجابونى: «إنها العدالة.».

وجال بخاطرى أنها: «يقينا العدالة! فإن العدالة، وفقا لهم هى القضاء على ما هو مخالف للمألوف؛ وفى عرفهم ليس عدلا وجود الزنوج، ولا وجود الأميرات؛ ولا وجود اللاتى لا يعملن بحرفة كالتى يعملون بها هم، ولا وجود الفنانين؛ بما أنهم ـ هم ـ لا يفهمون الفن!!»، وأجبتهم قائلا: «إننى أتمنى أن تتحقق العدالة؛ بتحريرهم!! جاهدوا أن تقتنعوا بهذا! وإلا؛ فإنهم متى هدموا سجونهم ثم سادوا؛ فسيلزمهم بدورهم أن يسجنوكم ويقضوا عليكم! ولا أظن المملكة رابحة بذا».

وعندئذ ظهر لى واضحا ما فى الأفكار الدموية من جنون؛ واتجهت إلى خالقى بهذه الضراعة: «كيف بلغ غضبك عليهم هذا المدى؛ فجعلتهم يثقون بتلجلجهم التعس؟! إن لهم لغتهم فليسوا بحاجة إلى من يعلمهم لغة ما؛ بل إلى من يعلمهم كيف يستخدمون هذه اللغة! ومن الذى سيقوم

بمهمة كهذه؟! فإنما تعجلهم التعذيب قد نشأ عن هذا الخلط البشع للكلمات، فى دوامة من الأقوال.. نشأ عن كلمات خرقاء متهافتة، أو تعوزها الدقة، كم من أجهزة التعذيب الدقيقة».

إلا أن هذا قد بدا لى ـ فى الوقت ذاته ـ من السذاجة بمكان، ومفعما بالرغبة فى النشوء!!

٣٣

وجاء المساء فهبطت من الجبل الذى اعتليته، سالكا المنحدر الآخر، منحدر الأجيال الجديدة التى ما أنا بمتعرف بعد، على أى من وجوهها؛ وقد أصبت بالإعياء من أقوال الناس، ولم أعد أتبين شدو قلوبهم وسط ضجة مركباتهم ومصانعهم. وقد انفصمت عنهم وكأننى لم أعد أعرف لغتهم، ولم أعد مباليا بمستقبل من الأيام، هو منذ هذه اللحظة لن يعود يخصنى، وقد شيعت إلى الثرى؛ كما يبدو لى. ما أشد يأسى من نفسى؛ وأنا متحصن خلف جدار الأنانية الجسيم ذاك (وناديت خالقى: «رب، لقد تركتنى؛ ولذا فأنا أتخلى عن البشر)، وساءلت نفسى عما صدمنى من أفعالهم.

ليس هذا لأننى كلفت بأن أنشد منهم شيئا أيا كان؛ فما الداعى إلى شغل بساتينى بقطعان جديدة يظلها نخيلى؟ ولِمَ أزيد قصرى بروجا جديدة، وأنا ماض أجر أذيالى فيه من قاعة إلى قاعة؛ وكأننى سفينة تمخر عباب البحار؟ لِمَ أطعم عبيدا آخرين ولدى أصلا منهم سبعة أو ثمانية خلف كل باب؛ وكأنهم عمد لدارى؟ أمر بهم على طول الأروقة، فينزوون عند مرورى ويلتصقون بالحوائط؛ ما إن يبلغ أسماعهم حفيف ردائى. لِمَ آسر نساء أخريات وأنا أصلا قابض على سابقات لهن إلى قصرى الصامت، حيث تعلمت ألا أتسمع؛ لكى يستطيع سمعى التقاط الأصوات؟ أجل!

فإننى قد شهدت نومهن؛ حين يأخذ هذا المخمل بعيونهن فتنسدل عليها الأجفان؛ وعندئذ أتركهن فرائس للرغبة فى صعود أعلى الأبراج، المقاربة لنجوم السماء؛ ليعرفن من الإله معنى نومهن؛ فالنوم يغلب ـ فيما يغلب ـ التصايحات والخواطر المتدنية والمخادعات المخزية والأباطيل، وكلها تعاود فى الصباح ولوج القلوب؛ عندما لا يعود يشغل المرأة سوى دحر غريمتها وسلبها مكانتها فى قلبى. لكننى إذا نسيت أقوالهن؛ فلن يبقى سوى تغريد طيور لاهية، وانسياب للدموع رقيق.

٣٤

في المساء الذى شهد هبوطى من الجبل الذى اعتليته، سالكا المنحدر الآخر الذى لم أعد أعرف فيه أحدا، كمثل امرئ تشيعه إلى الثرى ملائكة معقودة ألسنتها ـ أدركت ما فى الشيخوخة من عزاء (هى الشجرة وقد أثقلتها فروعها المتيبسة على أقصاها؛ إذ كستها التجاعيد وبرزت منها الأشواك!). لكأن الزمن دهن ببلسمه أصابعى المتغضنة؛ فحصننى، وصرت أخيرا، ما أنا هو على الأصالة! وقلت لنفسى: «إن من يشيخ على هذا النحو لا يهاب شيئا من طاغية يتوهم قدرته على إفزاعه برائحة ما يملك من أدوات التعذيب، وما هى إلا كرائحة اللبن الحامض؛ وهل يملك أى من الطغاة أن يمس ذاك الشيخ بأى تغيير، وهو قد طرح حياته كلها خلفه، مثل العباءة المخلوعة التى لا يعود يمسك بها سوى شريط؟ وهكذا قد أدرجت أنا سلفا فى ذاكرة البشر؛ ولن يكون لأى مما أقوم به من تراض على التغيير، أى معنى!».

كذلك أدركت ما فى تحررى من قيودى ـ من عزاء؛ وكأننى استبدلت ببدنى هذا المشوه بدنا مجنحا يحلق حيث لا يرى؛ كأننى أتنزه ـ وقد ولدت أخيرا من نفسى ـ بصحبة ذاك الملاك الذى طالما نشدته، كأننى اكتشفت؛ بفضل هجرى غلافى القديم، نفسى متمتعا بكل ما فى الشباب من روعة؛ وكما لم يحدث قط!! وهذا ما كان قوامه الحماس ولا الرغبة؛ بل صفاء

لا مثيل له. هو شباب من يتاخمون الأبدية (لا من يقاربون فى مطلع النهار قلاقل الحياة)، قوامه كل من المكان والزمان. بدا لى أننى نلت الخلود، وأن صيرورتى قد اكتملت.

أيضًا، كنت شبيها بذاك الذى التقط فى طريقه فتاة مطعونة؛ حملها بين ذراعيه وهى مفككة مهجورة كحزمة من الزهور تناثرت؛ وبفعل النصل اللامع تعانى سكرات الموت الذى نشر جناحه لاستقبالها، وقد شحب جبينها وكادت تبتسم، لكنها قد تستقر حيث يوجد من يستطيعون شفاءها!

«أيتها الرائعة المستسلمة، سأفيض عليك من حياتى؛ فما عدت أهتم بالأباطيل ولا بالإحن ولا بمزاعم البشر، ولا بالخيرات التى يمكن أن تكون من نصيبى ولا بالأوجاع التى يمكن أن تصيبنى، بل بما يمكن أن أبذله من نفسى فحسب؛ وها أنا ذا ـ إذ أمضى بما حملت إلى حيث يوجد من وهبوا القدرة على الشفاء ـ أصير نورا للعيون. خصلة من شعر على جبين شاحب؛ فإذا شفيتها، فسأعلمها الصلاة! إن كمال نفسها سيجعلها تقف مستقيمة؛ كما تقف تامة الاستقامة ساق الزهرة، تساندها جذورها بقوة!».

لست حبيس جسمى الذى يتقصف مثل قشرة قديمة! أثناء هبوطى بطيئا على منحدر من الجبل الذى اعتليته، يبدو لى أننى أجر معى كل المنزلقات والسهول، كأنما أجر عباءة فضفاضة؛ مرصعة هنا وهناك بأنوار ديار قومى، كأنما بنجوم ذهبية، وأميل؛ مثقلا بما أحمل من عطايا! كأننى شجرة مثمرة.

أى شعبى النائم أباركك، نم مزيدا!

فلتتلكأ الشمس عن إخراجكم من الليل الرقيق! فليكن لمدينتى الحق

فى مزيد من الاستجمام قبل أن تختبر فى بدء الصباح قدرتها على العمل، فلينتظر بعد من أصيبوا بأوجاع الأمس، ومنحهم الإله مهلة يفيدون منها؛ قبل أن يضطلعوا بالحزن أو بالبؤس أو بالإدانة أو بالبرص الذى بدأ لتوه، فليظلوا بعد فى كنف الإله؛ جديرين بالرحمة كلهم، وموضع ترحاب كلهم!

أنا الذى سأضطلع بأموركم.

أنا ساهر عليكم يا قومى، ناموا مزيدا!

٣٥

إذن، فقد قلت لهم: «ألا تخجلون من أحقادكم، ومن انقساماتكم، ومن إحنكم؟! لا تلوحوا بقبضات أيديكم بسبب الدماء التى أريقت أمس؛ فإن كنتم ستخرجون من المغامرة مستعيدين العافية متجددى النشاط، كمثل وليد شق عنه الرحم أو كائن مجنح زاده جمالا تمزيق شرنقته، فما الذى ستربحونه إن كان قتالكم ـ بحجة ما حدث بالأمس ـ فى سبيل حقائق أفرغت من مضامينها؟! ذلك أننى طالما قارنت ـ بحكم خبرتى ـ حال أولئك الذين يتشابكون بالأيدى ويمزقون بعضهم البعض، بمحنة الغرام الدامية؛ تنجب ثمرة ليست لأى من طرفيها بل للاثنين معا. وبها يرتبط مصير الاثنين؛ وعليها يتوافقان، حتى يجىء يوم فيه يعانى أبناء جيل جديد من محنة الغرام الدامية!

يقينا، إنهم يعانون أهوال الإنجاب، لكنها ما إن تنجاب إلا ويحل وقت الاحتفال. وفى وليدهما يستعيد الأبوان نفسيهما. ألا ترون أنكم جميعا تتشابهون بعضكم بالبعض عندما يطويكم الليل ويغلبكم نومه؟ لقد قلتها حتى عن أولئك الذين يوسمون فى السجون بغلالة المحكوم عليهم بالإعدام: «إنهم لا يختلفون عن الآخرين. المعول عليه هو أن يستعيدوا أنفسهم فى حبهم ولا شىء غير هذا. سأغفر للجميع ما ارتكبوه من جرائم القتل؛ لأننى آبى التمييز بين الناس بناء على زخارف اللغة: هذا

قد ارتكب جريمة قتل؛ عن حب لذويه، فإنما لا يجازف المرء بحياته إلا في سبيل الحب! وذاك قد قتل ـ هو أيضًا ـ عن حب لذويه. اعرفوا كيفية التمييز، واعزفوا عن نعت نقيض حقائقكم بالخطأ، وعن نعت نقيض الخطأ بالحقيقة؛ فإن عليكم أن تعرفوا أيضًا أن ما اقتنعتم به وفرض عليكم تسلق الجبل الذى تعتلونه الآن، قد اقتنع به أيضًا الآخر الذى تسلق بالمثل الجبل الذى يعتليه هو الآن، وأن ما اقتنعتم به من مبرر لكى تهبوا من نومكم؛ يفرض عليه بالمثل ما يفعله هو، وقد يختلف ما أقنعه عما أقنعكم، ولكنه بنفس القوة!

لكنكم لا تستطيعون أن تروا فى هذا الآدمى إلا ما ينفى وجودكم كآدميين. وهو بالمثل لا يستطيع أن يطالع فيكم سوى ما ينفى وجوده. وكل من الطرفين يعرف جيدا أنه فى ذاته شىء آخر غير ما يمكن نفيه بفتور ـ أو حتى باندفاع! ـ بل إنه اكتشاف لوجه، ما أوضحه وأبسطه وأنقاه! وجه يجعلكم تتقبلون الموت فى سبيله. وهكذا تحقدون على بعضكم البعض ويختلق كل منكم خصما له كاذبا ومجوفا. لكننى أنا الذى أسيطر عليكم؛ أقول لكم: «إنكم تحبون نفس الوجه، وإن لم تعرفوه جيدا، ولم تكتشفوه جيدا».

اغسلوا أنفسكم إذن، من دمائكم! لا يوجد ما يمكن بناؤه على العبودية، إلا ثورات العبيد. ولا يوجد ما يمكن اكتسابه من الحزم؛ إن لم توجد سبل إلى الهداية، وفيم الحاجة إلى الحزم، طالما وجدت السبل إلى الهداية، ولم يعد المعتقد المعلن موضع نزاع؟

لم إذن، ستلجأون إلى أسلحتكم بمجىء الصباح؟ ما الذى ستجنونه من أعمال الذبح هذه؛ ما دمتم لا تعرفون من تقتلون؟ إنى لمحتقر لهذا الورع الفطرى الذى لا يجمع إلا بين السجانين».

لذا، فإنى أردك عن الجدال؛ فإنه لا يؤدى إلى شىء. إن من يخطئون ينكرون ما لديك من حقائق؛ باسم ما يرونه بديهيا. فلتقل لنفسك: «إنك عندما تجادلهم باسم ما تراه أنت بديهيا؛ فإنك إذن، تنكر ما لديهم من حقائق!».

تقبلهم! خذ بأيديهم وأرشدهم، قل لهم: «أنتم محقون؛ وعلى هذا فلنرتق الجبل معًا!». وهاك تقر النظام فى العالم؛ ويستنشقون من الهواء ما أتيح بفضل الانفساح الذى باتوا مهيمنين عليه.

ذلك أن ما يعول عليه ليس قولك: «إن عدد سكان هذه البلدة ثلاثون ألفًا»، والذى يجيبك الآخر عليه بأن «عددهم لا يتجاوز خمسة وعشرين ألفا»؛ فإنما حقيقة الأمر أن الجميع متفقون على عدد السكان، ولكن واحدا أو آخر يمكن أن يخطئ! بل إن ما يعول عليه هو قولك: « إن هذه المدينة هى صنيع معماريين، وإنها لثابتة، سفينة تقل الناس»، وأن تكون إجابة الآخر: «هذه المدينة نشيد البشر فى عملهم المشترك».

ذلك أن الأحق بأن يقال، هو: «إنها خصبة هذه الحرية؛ التى تتيح ميلاد الإنسان، وما يغذيه من متناقضات»، أو: «مفسدة هى الحرية ولكنه خصب ذلك الفرض الذى هو ضرورة داخلية لشجرة الأرز، والذى هو مبدؤها!». فإذا رأيتهم يواصلون سفك دماء بعضهم البعض فلا يحزنك هذا؛ فإنما هو ألم المخاض، والتواء الذات على الذات، ودعاء إلى الإله!، فلتقل إذن لكل منهم: «إنك محق»؛ فإنهم كلهم محقون!!، لكن اعل بهم فوق الجبل الذى ارتقوه، فإن كانوا من تلقاء أنفسهم رافضين أن يبذلوا مجهودا للتسلق؛ لما يتطلبه من ناحية العضلات بمثلما من ناحية القلب؛ فها هم مضطرون إليه بسبب معاناتهم، وها هى تمدهم بالجرأة عليه؛ ذلك أن خطر الصقور يدرأ بالصعود إلى أعلى، و الشجرة تنشد الشمس فى الأعالى،

وأعداء المرء يتعاونون معه؛ لأنه لا يوجد فى العالم عدو! إذن، فإن عدو المرء يؤسسه، ويعطيه صورته ويرسم له حدوده. وما يقال للعدو هو: «إن الحرية والفرض ملمحان لنفس الضرورة، التى هى أن يكون المرء ذاك وليس آخر». المرء حر أن يكون ذاك وليس آخر.. حر فى لغة هى لغته؛ ولكنه ليس حرا أن يخلط بها أخرى، حر فى احتكامه إلى هذه أو تلك من قواعد المراهنة ولكنه ليس حرا فى إفساد اللعبة؛ بانتهاك القواعد، مقحما عليها قواعد لعبة أخرى.. حر أن يشيد؛ ولكنه ليس حرا أن يخرب ويقوض نفس مدخراته، شأن ذلك الذى يسىء الكتابة، ساعيا إلى التأثير على قرائه بما يرتكبه من تجاوزات، قاضيا بذا على نفس قدرته على التعبير؛ ذلك لن يخامره بعد ـ بقراءة ما يكتبه ـ أى شعور! وكيف وهو هادم لمعنى الأسلوب لدى الناس؟! كذلك بشأن الأبله الذى متى قارنته بالملك ابتعث السخرية؛ طالما ظل الملك جديرا بالتبجيل ومبجلا، ولكن متى جاء يوم فيه تماثل الملك بالأبله...؟! وهل أقول هنا ما هو بحاجة إلى برهان؟!

وهذا يعلمه الجميع؛ فإن أولئك المنادين بالحرية، ينادون أيضًا بالإذعان لما يمليه الضمير؛ كى يظل للإنسان ـ مهما يكن ـ ما يحكمه. والشرطى ـ كما يقال ـ هو فى الباطن. والذين ينادون بالفرض يؤكدون أنه حرية الفكر؛ فإن المرء فى داره حر فى التجوال بين الحجرات، وحر أن يذرع القاعات جيئة وذهابا، وأن يدفع الأبواب ويصعد السلالم أو يهبطها. وبقدر عدد الحوائط والحواجز والأقفال تزداد حريته، وبقدر ما يفرضه عليه جمود حوائطه من التزامات يزداد عدد الأفعال المتاح له أن يقوم بها، والتى يمكنه الاختيار بينها. أما إذا اختار أن يقيم فى قاعة تزاحمت فيها الأشياء بلا نظام؛ فما عاد أهلا للحرية بل للتفكك.

وفى نهاية الأمر، فإن الجميع يحلمون بنفس الوطن؛ ولكن أحدهم ينادى بأن يكون للإنسان ـ كما هو ـ حق الفعل، والآخر ينادى بالحق فى

تشكيل الإنسان لكى يكون ويستطيع أن يفعل؛ وكلهم يمجدون نفس الإنسان.

إلا أن كلا منهما يخطىء أيضًا!، الأول يظن الإنسان خالدا وموجودا فى ذاته؛ غير واع بأن عشرين سنة من التعليم والفروض والتدريبات قد أسست فيه ذاك وليس آخر، وأن قدرة الإنسان على الحب تجيئه أولا من قيامه بالصلاة لا من حريته الباطنة؛ والتى تكون له بدون صلاته - كآلة موسيقية لا يحسن العزف عليها، أو كقصيدة كتبت بلغة يجهلها! والثانى يخطىء أيضًا؛ لأنه يؤمن بالجدران، لا بالإنسان، كمثل من يعتد بالمعبد، لا بالصلاة التى تؤدى فى حرمه. ذلك أن من بين مكونات المعبد، هو الصمت وحده الذى يعتد به.. الصمت الذى يسود الأحجار. وأنا أجثو أمام الصمت الذى تحفظه النفس البشرية، وأمام النفس البشرية الحافظة للصمت، هذا هو معبدى. أما الآخر، فإنه يجعل من الحجر وثنا ويجثو أمام الحجر باعتباره حجرا!!

وبالمثل بشأن المملكة، أنا لم أجعل من المملكة معبودا يسخر البشر. أنا لا أضحى بالبشر فى سبيل المملكة، وإنما أؤسس المملكة؟ لكى أفعم البشر بها وأستنفرهم؛ والإنسان أعتد به بأكثر مما أفعل بالمملكة؛ إنما هو لتأسيس البشر ما كان من إخضاعى إياهم للمملكة. وما سخرت البشر لكى أؤسس المملكة، ولكن دعك - إذن - من هذه اللغة التى لا تؤدى إلى شىء! وتعلم كيف تميز العلة من المعلول والسيد من الخادم؛ فما هى إلا علاقة وهيكل واعتماد باطن. أنا الذى أسود، أدين لشعبى بخضوع يفوق أيا مما يمكن أن يدين لى به أى من رعاياى، أنا الذى أصعد إلى شرفتى وأتلقى ليلا شكاواهم وأسمع لجلجتهم وأنات عذابهم وجلبة مباهجهم؛ لأجعل منها جميعا نشيدا للإله؛ أتصرف إذن كخادم لهم، أنا الرسول الذى يجمعهم ويمضى بهم، أنا العبد المكلف بالعناية بهم، أنا المتحدث بلسانهم.

إذن، فأنا القبة التى تعلوهم، أنا المربط الذى يجمعهم ويربط بينهم على هيئة معبد. وعلام يمكن أن يكتونى؟ أفتحسب الأحجار أنها غبنت عندما وجب أن تستند عليها القبة؟!

لا تقبل النقاش فى مثل تلك الأمور؟ فإنه باطل!

٣٦

المسيرة وحدها هى التى يعتد بها؛ فإنها هى التى تدوم، لا الغاية، التى هى توهم المرتحل عندما يمضى من ذروة إلى ذروة؛ كما لو كان للغاية المبلوغة معنى وبالمثل فما من تقدم دون تقبل لما هو كائن، والذى يمضى عنه المرء على الدوام. وأنا لا أومن بالاستجمام؛ فإن ذلك الذى يمزقه نزاع ما، لا يليق به أن ينشد سكينة مؤقتة ـ وغير خالصة ـ من القبول الأعمى لواحد دون الآخر من طرفى النزاع. ما الذى يمكن ـ فى رأيك ـ أن تجنيه شجرة الأرز إذا ما تفادت الريح؟ إن الريح تمزقها ولكنها تؤسسها. عظيمة حكمة من يستطيع التفرقة بين الخير والشر. يبحث المرء عن معنى للحياة؛ بينما المعنى هو أن يكون ذاته لا أن يبلغ السكينة البائسة التى يمده بها نسيان النزاعات. إذا اعترضك شىء ما ومزقك فلا تقاوم استفحاله؛ فإنما تكتسب أنت جذورا وتطرأ عليك تحولات! ما أسعدك بتمزقك الذى بفضله تولد من نفسك؛ فما من حقيقة تبرهن على نفسها ـ ويتم التوصل إليها ـ بالبداهة. والحقائق التى تردك مقترحات بها، ليست إلا ترتيبات ملائمة؛ شبيهة بالعقاقير المنومة.

ذلك أننى أحتقر أولئك الذين ينحطون بأنفسهم لكى ينسوا، أو الذين يخمدون ـ محتجين بالرغبة فى التبسيط ـ بعضا من تطلعات أفئدتهم؛ كى يعيشوا فى سلام؛ فإن عليك أن تعلم أن كل تناقض بلا حل يبدده، كل نزاع

بلا تسوية تنهيه؛ يرغمك على التعاظم حتى تستوعبه. وفى مرابط جذورك تأخذ من الأرض التى بلا ملامح تميزها، وفى صلبها ومن تربتها؛ وتقيم شجرة الأرز تمجيدا للإله. وما بلغ المجد إلا عمود المعبد الذى ولد عبر استهلاك البشر إياه على مدى عشرين جيلا. وأنت نفسك، إذا أردت أن تكبر فاستهلك نفسك فى نزاعاتك. إنها تؤدى إلى الإله أولا إنه السبيل الوحيد فى العالم. وهنا السر فى أنك تكبر بفضل عذابك؛ عندما تتقبله.

وإذا سألتنى: «أعلىَّ أن أوقظ ذاك، أم أتركه نائما كى يكون سعيدا؟»؛ فسأجيبك بأنى لا أعرف عن السعادة شيئا. ولكن إن وجد شروق يندر أن يرى مثله؛ أستترك صديقك نائما؟ إن أحدا لا يجوز له أن ينام إن استطاع شهوده. ولا شك أن ذاك يحب نومه ويتمرغ فيه، ومع هذا، فإنك لمنتزع إياه من سعادته ومُلق به إلى الخارج؛ لكى تتم صيرورته.

٣٧

المرأة تسلبك ما لديك من أجل دارها؛ ويقينا إنه مرغوب هذا الحب الذى به تتعطر به الدار، ويشدو منبع الماء، وتترنم الأباريق خافتة، ويتبارك الأطفال حينما يجيئون واحدا تلو الآخر، وأعينهم مفعمة بصمت المساء.

لكن لا تسع إلى أن تفرق وتفاضل ـ وفقا للصيغ المصطلح عليها ـ بين تألق المقاتل فى المضمار وبين حسنات غرامه! فإنها اللغة وحدها التى تفرق هنا. ما من غرام سوى ذاك الذى للمقاتل؛ الموغل فى صحرائه الشاسعة، وما من قربان يقدمه المستشهد ـ المستبسل فى اقتحامه كمينا قرب موارد الماء ـ سوى نفس ذاك الذى من مغرم برحه الغرام؛ وإن لم يكن، فما عاد الجسد المبذول، تضحية ولا عطية محب؛ فما هو عندئذ لبشر يقاتل به، بل لجهاز أو آلة تتقارع! أين إذن، عظمة المقاتل؟ لا أعود أرى ثمة إلا صنيع حشرة ضخمة. وإذا كان ذلك الذى يلامس المرأة، كحيوان داجن يفترش ما يجده على أرض الحظيرة؛ فأين إذن، سمو الغرام؟

أنا لا أعرف عظمة ولا سموا إلا فى المقاتل الذى يلقى السلاح ليهدهد الطفل، وفى الزوج المحب، الذاهب للقتال.

ليس أنه يجدر التراوح بين إحدى الحقيقتين والأخرى، والاعتداد بتلك

فى وقت ما، ثم بهذه فى وقت آخر؛ بل إنهما حقيقتان لا معنى لهما إلا إذا ارتبطتا! إنما كمقاتل تمارس أنت الغرام، وكمغرم تذهب للقتال!!

لكن تلك التى فازت بك فى لياليها، تخاطبك ـ وأنت المنعم به عليها؛ وقد ألفت نعومة فراشك ـ قائلة: أليست قبلاتى رقيقة؟ أليست دارنا رطبة؟ أليست أمسياتنا بهيجة؟»، وتقرها بابتسامتك؛ فتستأنف حديثها، قائلة: «إذن، فابق بقربى لكى تساندنى. ما عليك ـ متى واتتك الرغبة ـ إلا أن تمد ذراعيك؛ وسأتمايل صوبك ما إن تجذبنى، مثلما شجرة البرتقال اليافعة؛ بثقل ثمراتها، ذلك أنك تحيا حياة الشح بعيدا عنى، فيها لا تحظى بأى ملاطفة، وما يتوق إليه قلبك يلقى مصير منبع ماء طمرته الرمال قبل أن يجد مرجا يرضيه اخضراره الراجع إلى تدفقه صوبه».

وحقا، لقد عرفت أنت ـ بين الواحدة من ليالى عزلتك والأخرى ـ تطلعات يائسة صوب هذه أو تلك ممن تبادرت صورهن إلى مخيلتك؛ فإنهن جميعا يزددن جمالا على البعد، وبفضل الصمت.

وتظن أن العزلة فى الحرب قد أفقدتك الفرصة الرائعة. إلا أن المعرفة بحلاوة الحب لا تكتمل إلا فى غياب الحب؛ كما أن المعرفة بجمال الجبال المشتبكة بزرقة السماء، لا تكتمل إلا بشق الطريق بين الصخور صوب القمة. والمعرفة بالذات الإلهية لا تكتمل إلا بإقامة الصلوات التى لا تنشد استجابة؛ فإن المرء لا ينعم عليه إلا بما يوهبه بعد انصرام الأيام، ودون خوف من أن يستهلكه؛ بعد أن تنقضى الأزمنة ويؤذن للمرء أن يكون، إذ اكتملت صيرورته.

ولا شك، أن من الممكن أن تخطئ؛ وتشفق على ذلك الذى يطرح نداءه على أسماع الليل الخادع، ويظن انصرام الزمن بلا جدوى له وهو يسلبه كنوزه. قد يقلقك هذا الظمأ إلى الحب الذى لا تقطعه استجابة،

غافلا عن جوهر الحب؛ والذى هو الظمأ إلى الحب ولا شىء سواه، كما عرف الراقصون والراقصات؛ أولئك الذين جعلوا موضوع قصيدهم الغزل العفيف، رغم ما أتيح لهم من فرص اللقاء الحميم!

وأنا أقولها لك: «إن الفرصة الضائعة هى التى يعتد بها. ولربما كانت الرقة المتبادلة من خلف حوائط السجن، تفوق كل رقة. إن الصلاة تزداد خصوبتها بقدر امتناعها عن التماس الاستجابة. والصخور والأشواك هى ما بفضله يكبر الحب!

إذن، فلا تخلط الحماس باستهلاك المؤن؛ إن الحماس الذى يستهدف الاستجلاب لصاحبه، ليس حماسا. إن حماس الشجرة مآله إلى الثمار التى لا تعود عليها بمقابل. وكذلك بشأنى، إزاء شعبى؛ فإن حماسى يفيض على مروج لا أتطلع إلى ما سينجم منها.

وإذن، فبالمثل لا تجعل من نفسك أسير المرأة، راغبا منها ما وجدته من قبل. ليس لك إلا أن تعاود لقياها من حين لآخر، مثلما يهبط ساكن الجبل أحيانا إلى البحر.

وإذن، فسأحدثك عن الاستضافة: إذا ما فتحت بابك للمتسكعين، وجاء منهم من جلس لديك؛ فلا تلمه على ما به.. لا تدنه. فإن ما برحه الجوع فى طلبه له؛ هو أولا وجوده فى مكان ما.. لدى شخص ما، ومعه صفاته المنفرة، وحمل ذكرياته، واعتلال صحته، وعكازه الذى يضعه فى أحد الأركان.. وجوده لديك.. قبالة وجهك السمح باعث الدفء فيه، المنصف له رغم كل ما فى ماضيه؛ الذى لم يعد موضع المؤاخذة. وقد بانت كل نقائصه على حقيقتها: عكازه لم يعد يحس وجوده؛ بما أنك لا تطلب منه أن يرقص! وعندئذ يطمئن؛ ويشرب اللبن الذى تصبه له ويأكل

الخبز الذى تكسره، وتغدو ابتسامتك التى تنعم بها عليه؛ عباءة يتدفأ بها، مثل الأعمى بالشمس!

وكيف ترى تدنيا فى ابتسامك له؛ بحجة أنه لا يستحقه؟!

وكيف تظن أنك تعطيه شيئا ما؛ إن لم تكن تعطيه ما هو أساسى، وهو الاستضافة، تلك نفسها التى تستطيع جعل علاقتك بأشد أعدائك استماتة فى قتالك، بأيما نبل؟! وأى عرفان تعول على نيله منه بفضل ما أثقلته به من عطايا؟! لن يسعه إلا أن يمقتك؛ ويمضى من مجلسك متخبطا فى الديون».

٣٨

لا تخلط بين الحب ونشوة التملك، التى تجلب أقسى المعانيات؛ فإن الحب ـ على نقيض الرأى الشائع ـ لا يسبب المعاناة؛ ولكن غريزة التملك تسبب المعاناة، التى هى نقيض الحب. فإننى لكى أحب الإله أمضى على قدمى فى الطريق، مهما اشتد عرجى؛ لكن آتى غيرى من الناس أولا بقبس منه. وأنا أتغذى على ما يعطيه للآخرين؛ وهكذا أستطيع التعرف على ذلك الذى يكن حبا حقيقيا، بفضل مناعته واستحالة الإضرار به. وذلك الذى يموت فى سبيل المملكة، لا يمكن أن تلحق به المملكة هوانا. لنا أن نذكر جحود هذا أو ذاك؛ ولكن من ذا الذى سترد فى حديثه إشارة إلى جحود المملكة؟! إن المملكة مشيدة من عطاياك؛ ولكن ما أخس ما تقحمه من حسابات للأرباح والخسائر، حين تنشغل بما يجب أن تبديه المملكة من عرفان؟! هذا الذى يبذل حياته فداء للمعبد، ويضحى فى سبيل المعبد، قد عرف الحب الحقيقى. ولكن ما الذى يمكن أن يسبب له الشعور بأن المعبد يضربه؟

إن الحب الحقيقى يبدأ، حيث لا تعود تتوقع شيئا فى مقابله. وإذا بدت إقامة الصلاة بهذه الأهمية فى تعليم الإنسان حبه لبنى الإنسان؛ فإنما لأنها أولا ـ لا تنشد استجابة. أقر بالصداقة من حيث إنها لا تخذل

من يستعز بها. وأقر بالحب الحقيقى من حيث إنه لا يمكن أن يمسه الضر.

التعاون معى هو أول تعبير عن الحب لى.

وكذلك المعبد، الذى لا يسع إلا الأصدقاء؛ ولكنهم كثر!!

٣٩

الصديق هو أولا ـ من لا يدين. قلتها لك: «إنه من يفتح بابه للمتسكع.. لعصاه؛ إذ توضع فى أحد الأركان.. لعكازه، ولا يطلب منه أن يرقص لكى يحاسبه على رقصه! وإذا حكى المتسكع عن الربيع الذى لاقاه فى طريقه إلى الدار؛ فإن الصديق هو من يستقبل الربيع فيه! وإذا حكى عما فى القرية ـ التى قدم منها ـ من مجاعة؛ فإن على الصديق أن يعانى المجاعة معه، لقد قلتها لك: إن الصديق هو فى الإنسان جانبه المكرس لك، والذى يفتح لك بابا لا يفتحه ربما لغيرك على الإطلاق. إنه صديقك حقا؛ وكل ما يقوله لك حقيقى. وهو يحبك حتى وإن كان فى قلبه بعض من غل لك. وصديقى الذى أجاوره ـ بفضل الإله ـ فى المعبد وفيه أبقاه، هو من يلتفت إلىَّ بوجه هو نفسه وجهى أنا؛ يضيئه نفس ما يضيئ به الإله وجهى؛ فإنما عندئذ يكون الاتحاد؛ حتى وإن اختلف سعينا ـ خارج المعبد ـ فى مناكب الحياة، فكان هو تاجرا وكنت أنا ربانا، أو راح هو يجوب الحدائق بصفته بستانيا، ورحت أنا أمخر البحار بصفتى نوتيا. لقد لاقيته حيثما تجاوزنا ما يفرق بيننا؛ وأنا صديقه، وأستطيع أن أبقى بقربه صامتا؛ أى دون خشية على ما فى باطنى من حدائق وَرُبَى ووديان وصحارى! فإنه لن يجيل فيها نعليه. أنت يا صديقى تلقى منى ـ بمحبة ـ ما هو كوفد من مملكتى الباطنة، وتحسن معاملة أفراده وتدعوهم إلى الجلوس وتصغى إليهم. وها هو

الحبور يجمعنا. ولكن متى رأيتنى ـ فى استقبالى الوفود ـ أنحيهم جانبا أو أردهم؛ لأنهم ـ فى أغوار مملكتهم التى تفصل بينها وبين مملكتى مسيرة ألف يوم ـ يقتاتون على أغذية لا تروقنى، أو لأن طباعهم ليست طباعى؟! إن الصداقة هى أولا المهادنة، وتعالى الروح النبيل عن التفاصيل الفظة. وما أنا بلائم على أى شىء، ذاك الذى يتصدر مائدتى.

ذلك أن عليك أن تعرف أن حسن الضيافة، والمجاملة، والصداقة، كلها لقاءات للإنسان فى الإنسان؛ وما الذى سيدعونى إلى التعبد خيفة غضب الإله علىَّ لترهلى أو لضمورى؟! أو إلى زيارة صديق لا يرضى بعكازى ويبغى جعلى أرقص لكى يحاسبنى على أدائى؟! ستلاقى فى أنحاء العالم مايكفيك ممن يحاسبونك! إن أردت لنفسك تشكيلا يغير ما بها ويكسبك صلابة؛ فدع هذا يصبح صنيع أعدائك! سيتكفلون بهذا تماما، مثلما تصقل العاصفة شجرة الأرز. صديقك مجعول لكى يلقاك. اعرف عن الإله ـ عندما تجىء معبده ـ أنه لا يدينك بعد، وإنما يستقبلك!».

٤٠

حضرتنى خواطر عن الغرور؛ فإنه على الدوام بدا لى كداء، لا كرذيلة. وتلك التى أبصرتها تتأثر برأى الحشد؛ وتنحرف فى خطوها ونطقها؛ لأنها أصبحت محط الأنظار، وتستشعر مباهج خارقة من الأقوال التى ينطق بها عنها، تلك التى توهجت وجنتاها؛ لأن الناس ينظرون إليها، رأيت فيها شيئا آخر بخلاف الغباء؛ فإنما هو الداء! فكيف يمكن استشعار متعة مصدرها الآخرون؛ إلا عن حب للآخرين وعطاء لهم؟ إلا أن المتعة التى يمدها بها غرورها تتراءى لها أدفأ من تلك التى تمد بها الخيرات؛ بما أنها تبدى استعدادها للتضحية بسائر ما يبهجها؛ لكى تنال تلك المتعة!!

ما أضألها من متعة وأتعسها! كالاستمتاع بالعاهة، كمتعة من يحك جسمه كلما استشعر حاجته إلى ذا؛ ويلتذ بوقع الحك!! أما الملاطفة فهى ـ على النقيض ـ مأوى وموئل! هذا الطفل إذا لاطفته؛ فإنما لكى أحميه، والتعبير عن ملاطفتى هو ما يتلقاه منى على وجنته المخملية.

أما أنت أيتها المغرورة، أيتها الصورة الهزلية!

هؤلاء المغرورون، أقول: «إنهم كفوا عن الحياة!». فمن ذا الذى سيفلح فى بذل نفسه مقابل ما هو أعظم منها، إن كان يشترط أولا أن يتلقى؟ ذاك سيكف عن النمو، سيضمر إلى الأبد.

أما المقاتل الباسل؛ فها هو ـ متى هنأته ـ يضطرب ويرتجف، مثلما الطفل من ملاطفتى؛ وما فى ذا أى غرور.

ما الذى يؤثر فى الواحد وما الذى يؤثر فى الآخر؟ وفيم يختلفان؟

المغرورة، لو نامت...

أنَّى لها ولأمثالها أن يعرفوا اختلاج الزهرة والريح تنفض كل حبيباتها، التى لن ترد إليها!؟

أنَّى لهم أن يعرفوا اهتزاز الشجرة التى تهب كل ما على أغصانها من ثمرات؛ لن ترد إليها!؟

أنَّى لهم أن يعرفوا ابتهاج الصانع الذى بلغ بعمله منتهاه؛ عالما أنه لن يرد إليه؛ إذ بدأ انتفاع الآخرين به!؟

أنَّى لهم أن يعرفوا حماس الراقصة؛ التى تؤدى رقصة.. لن ترد إليها!؟

والمقاتل الذى يبذل حياته، وإذا هنأته؛ فإنما باكتمال بنائه لمعبره إلى الخلود. أنبئه بأن تضحيته جعلت منه تجسيدا للبشر أجمعين؛ وها هو راضٍ لا عن نفسه بل عن البشر أجمعين!

أما المغرور، فهو صورة هزلية. وما أنا بالمتطلب تواضعا؛ أنا المحب للكبرياء الذى هو وجود ودوام. من يتواضع يستسلم للريح مثلما رايات اللهو، ما دام قد فقد من وزنه ما سبق أن ضاهى فيه الآخرين.

أنا أطلب إلى الإنسان أن يحيى، لا على ما يتلقاه، بل على ما يهبه؛ فإنما هذا وحده هو ينميه، وهذا معناه ألا يحتقر ما هو بمتنازل عنه. إن

عليه أن يشكل ثمرته؛ ودوامها مرهون بالكبرياء. وإلا لتغير لونها ونكهتها وعبقها على هوى الرياح!

لكن ما الثمرة؟! ما قيمتها للإنسان إن ردت إليه؟ لا شيء! لاقيمة لها إلا إذا بذلها فلم ترد إليه!

٤١

كمثل صارخ، خطر لى ذلك الذى للمحظيات والغرام بهن. ذلك أنه مخطئ من يؤمن بالمنافع المادية لذاتها؛ فبمثلما لا يوجد مشهد يستمتع به من أعلى الجبل إلا بقدر ما يكون صاعد الجبل قد كونه بجهده فى ارتقائه: فكذلك الغرام؛ وكيفية فهمه. ما من شىء له معنى فى ذاته، وإنما المعنى الحقيقى لكل شىء هو هيكل وإطار. الوجه الذى ينحته الإنسان فى الرخام ليس مجموعا من أنف وأذن وذقن وأذن أخرى! بل إنه تكوين عضلى يربط كل هذا.. قبضة مضمومة تحفظ شيئا ما، وصورة القصيدة ليس مكمنها الكوكب ولا رقم سبعة ولا المنبع، بل فى المربط الذى أكونه؛ إذ أكتب قصيدة أصف فيها منبعا تسبح فيه سبعة كواكب؛ وفى هذا المربط وحده. ويقينا ، أن الأشياء المترابطة ضرورية لكى يظهر الترابط. لكن قوة الترابط لا ترجع إلى الأشياء. ليس سر فخ الثعالب فى الأسلاك ولا فى الدعامة ولا فى أى من أجزائه، بل فى تجميع، هو إبداع؛ ويوم يسقط فيه الثعلب سيسمع صوته صارخا. كذلك الفنان يسقط الإنسان فى كمائنه.. كمين ينصبه المغنى، وآخر ينصبه النحات، وثالث ينصبه الراقص!

وكذلك الغرام. ما الذى تنتظره من المحظية إن لم يكن راحة الجسد بعد غزو الواحات؟! فإن المحظية لا تتطلب منك شيئا ولا ترغمك على أن تكون. أما الحب الحقيقى فإنه يطالعك من داخلك عندما ترى نفسك

مسرعا إلى نجدة محبوبتك؛ لتلبى نداءها. وإنما الذى سمع نداءها ملاك من باطنك يستيقظ.

ليس الفارق راجعا إلى تيسر الاستحواذ؛ لأن التى تحبها تستطيع أن تنالها هى الأخرى، طالما بادلتك هى الحب. يكفيك أن تفتح لها ذراعيك! إن مكمن الفارق هو العطاء؛ ذلك أنه ما من عطاء يمكن أن تقصد به المحظية، بما أن ما تأتيها به لا يتعدى فى عرفها ـ كعادتها ـ جزية مفروضة عليك.

وأنت سوف تجادل فى ذا العبء، متى وقع عليك؛ مريدا الاستدلال على معناه مثلما تفعل بالرقصة حين تؤدى أمامك فتستفسر عن معناها. والجنود المتفرقون فى الليل يذرعون الأماكن المشبوهة؛ وكل منهم يحمل فى جيبه مصروفه الهزيل ـ الذى يحرص على عدم تبذيره ما استطاع ـ يساومون بائعات الغرام، ثم يبتاعونه، مثل الطعام. ومثلما يجعل الطعام آكله متأهبا لمزيد من السير فى الصحراء: كذلك يجعل الغرام المباع ممارسه متمتعا بجسد هادىء.. يجعله الغرام متأهبا للعزلة. لكنهم جميعا قد تحولوا إلى تجار؛ وما عادوا يستشعرون أى حماس.

ذلك أنه للإنعام على المحظية يجب أن يكون المرء أغنى من ملك متوج! فإن ما يأتيها به تشكر هى عليه ـ أولا ـ نفسها!! وتهنىء نفسها بنجاحها، وتكرم نفسها لبراعتها وجمالها اللذين اجتلبا لها تلك الفرية. وللمرء أن يلقى فى بئر كهذه ـ ما لها قرار ـ حمولة ألف قافلة من الذهب دون أن يكون عطاؤه قد بدأ؛ فإن العطاء ينبغى له من يتلقاه.

لذلك، فإن رجالى المقاتلين يداعبون فى المساء ثعالب الرمال التى أسروها، يربتون على ظهورها وحتى أذنيها؛ فيحسون حبا مبهما، إذ

يتخيلون أنهم ينعمون عليها، وينتشى الواحد منهم بالعرفان حين يجيئه الحيوان البرى الصغير ليقبع لصق قلبه.

لكن ابحث لى ـ إذن ـ فى الأماكن المشبوهة عن محظية تلتصق بأحضانك؛ عن حاجة إليك!!

إلا أنه فى بعض الأحيان قد يظن واحد من رجالى ـ لايزيد ما فى جيبه على ما فى جيب أى من زملائه ولا ينقص ـ أن ذهبه مثل الحبوب التى ترغب الشجرة فى إلقائها إلى الريح؛ لأنه ـ هو الجندى ـ يستهين بالادخار! ويروح يتنزه ـ متباهيا بأناقته ـ حول دور اللهو؛ بخطى تماثل بعجلتها خطى من يؤم الأرض الزاهية التى آن الأوان لأن يبذر فيها الشعير!

ويبذر الجندى نقوده؛ غير راغب فى الحفاظ عليها، ويعرف وحده متعة الغرام، ولربما استطاع أن يجعل المحظية هى الأخرى تعرفها؛ فإنها رقصة مختلفة تلك التى تؤدى عندئذ، وهذه الرقصة تلقى من المحظيات القبول.

أقولها لك: «إن أكبر خطأ هو الجهل بأن التلقى مخالف تماما للتقبل! التلقى هو أولا عطاء، بذل المرء نفسه. ليس ضنينا من يبذر كل ما يملك لابتياع هدايا؛ بل الضنين من لا يعطى ـ من ضياء وجهه ـ مقابلا للقربان، وضنينة الأرض التى لا تتجمل حين تلقى إليها البذور».

أحيانا، يشع ضوء من المحظيات والجنود المنتشين.

٤٢

إذن، فقد استقر السارقون فى مملكتى؛ فما من أحد فيها عاد يبدع الإنسان، وفيها لم يعد الوجه الحزين قناعا، بل غطاء لصندوق فارغ.

ذلك أنهم مضوا من تخريب للوجود إلى تخريب للوجود، ومنذ الآن لا أعود أرى لديهم شيئا يستحق الموت فى سبيله؛ وبالتالى يستحق الحياة. ذلك أن ما يقبل المرء الموت فى سبيله هو وحده ذلك الذى يستطيع الحياة بفضله! راحوا - إذن - يهلكون الإنشاءات القديمة؛ مسرورين بدوى المعابد فى سقوطها. هذا رغم أن المعابد - متى انهارت - لم تذر عوضا عنها شيئا. وإذن، فإن ما دمروه هو قدرتهم على التعبير؛ ودمروا الإنسان!

أو وجد من بينهم من يخطئ بشأن الفرحة؛ فإن أول ما ورد على لسانه هو «القرية» وسدودها وأعرافها وطقوسها الاجبارية. ثم بدأ يخلط؛ إذ لم يبغ جعل فرحته من هيكل تمت صيرورته بعد تشكل بطيء، بل من استقرار فى شيء عابر، مثل القصيدة. والأمل باطل! فالقرية ليست كالقصيدة، تلك التى يستقر فيها المرء وقت تناوله الحساء الدافئ فى المساء وبرفقته محبوه، وقد اطمأن إلى عودة قطيعه إلى الحظيرة. إنه استقرار مؤقت، كذلك الذى يتوقعه البعض - واهمين - من نيران المباهج التى توقد فى الأعياد وسط هذا الميدان أو ذاك، ولكن ما العيد؟!.. ما العيد بجالب لك من استقرار؛ إن لم يكن صداه مواصلا تردده فى موضع آخر؟! ما العيد

إن لم يكن ذكرى تحرير بعد استرقاق، أو حب بعد حقد، أو معجزة حال دون ترقبها اليأس؟! إن الاستقرار المؤقت لا يختلف عن اطمئنان البهائم التى غرتها سلامتها. لكنك أيها الإنسان، قد حملت فى باطنك القرية وهى تشيد شيئا فشيئا، ورحت - فى سبيل بلوغ القرية ما بلغته - ترتقى الجبل شيئا فشيئا؛ فإننى أنا قد شكلتك بطقوسى وأعرافى، كما شكلت أنت نفسك بزهدك، وبالتزامك، وبحفيظتك الواجبة، وبصفحك، وبتقاليدك التى خالفت فيها غيرك. وما ذاك الطيف للقرية هو الذى يعمر قلبك هذا المساء بأغنيته؛ بل موسيقى تعلمتها شيئا فشيئا، وكنت فى البدء قد قاومتها! وإلا لكانت صيرورة الإنسان بالغة اليسر!!

لكنك تمضى فى القرية مبتهجا بتخريبك أعرافها؛ لأنها لا تُسرّى عنك ولا تسعدك! وإن أسعدتك فلن تستطيع إقناع الآخرين بهذا؛ فلا أنت يبقى لك شىء، ولا هم!

٤٣

قال أبى: «النظام، أنا أؤسسه! ولكن ليس وفقا للبساطة وللتوفير؛ فما المراد كسب الوقت. فيم يهمنى أن أعرف، إن كان الناس سيزدادون بدانة إذا بنوا مستودعات بدلا من المعابد، وصنعوا قنوات للماء بدلا من الآلات الموسيقية؟! إن الذى يهمنى ـ أنا الذى أحتقر كل مجتمع إنسانى يسوده الشح والغرور ـ هو أن أعرف بأى إنسان يتعلق الأمر أولا. وذلك الذى يهمنى هو ذلك الذى أضاع كثيرا من وقته فى المعبد والذى درب قلبه على الحب بفضل قيامه بالصلاة، تلك التى لن يستجاب لها (فإن الاستجابة للصلاة لجاعلة الإنسان أكثر شحا بعد)، والذى يترنم مرارا بالقصيد، ومثله ذلك الذى يتأمل المجرة فيجعله تأمله رحبا.

ذلك أن ما اقتصدته من وقت، جدير بألا أفيد منه فى تغذية الجنس البشرى؛ بل فى تكريم هذا الجنس. وإذن؛ فسأبنى المعابد؛ فإنما المعبد سفينة تمضى إلى قبلة ما، وسأبدع أشعارا؛ فإنما القصيدة البديعة ترنيمة تختلج بها قلوب البشر.

إن الناس يضيعون وقتهم فى الجنائز! يحفرون الأرض كى يودعوها موتاهم، ويمكنهم أن يفيدوا من وقتهم ذاك لكى يعملوا ويحصدوا. لكننى ـ مع علمى بهذا ـ أحظر المحارق التى يلقى إلى نيرانها بالجثث. فإن ما يقتصد من وقت، لا يهمنى إلا قليلا؛ إن كتب لى أولا ـ أن أفقد حب

الموتى! ما وجدت صورة لحفظ هذا الحب، أجمل من تلك التى لمقبرة يقصدها الأقارب فيذرعونها بخطى بطيئة؛ بحثا بين الشواهد عن ذلك الدال على فقيدهم، عالمين أنه سقط إلى الأرض مثل الثمرة الناضجة، ثم عاد فالتحم بها؛ ليكون لها لحمة طبيعية، وعالمين مع هذا أن شيئا ما يبقى منه: رفاته فى باطن الأرض.. صورة يده التى لاطفت.. جزء من عظامه، صندوق كنوزه، الذى لم يعد مليئا ـ على الأرجح ـ وإن طالما زخر بالتحف! وقد أمرت ببناء دار لكل فقيد، إذا أمكن؛ وهى باهظة التكلفة بمزيد بعد، بل وتقل فائدتها عن تلك التى لأى بناء آخر، ولكننى أريدها ليتم فيها التلاقى فى أيام الأعياد؛ ويتحقق الفهم ـ لا بالمنطق وحده، بل بكل خلجات النفس والبدن ـ لكون الموتى والأحياء يلتقون ببعضهم البعض، وتكون منهم معا شجرة تنمو. إنه فهم منبعه العرف الجارى على إدراك الأجيال من البشر باعتبارها موصولة بنفس القصيدة.. وبنفس الصنائع.. وبنفس الفنون: كلها تعبرها جيلا بعد جيل؛ مكتسبة جمالا ونقاء. فإنما الإنسان خالد فيما يلقيه من ظل، وفيما ينعكس له من صورة باقية. أما إذا قاربناه لنراه؛ مثلما يفعل قصار البصر حين يتخذون موقعا ملاصقا ـ فلا شك أنه سيبدو لنا فانيا. وإذا بدأت بتوفير الوقت المضاع فى دفن الجثث وبناء مقامات لها؛ واستخدمت ذلك الوقت فى ربط سلسلة الأجيال كى تصعد عبرها الخليقة إلى الشمس مباشرة مثلما الشجرة؛ إذا أمرت بهذا الصعود الأجدر باهتمام الإنسان من العمل على زيادة وزنه ـ فعندئذ سأستخدم ما هو متاح لى من وقت مكتسب ـ وقد عرفت قيمته جيدا ـ فى دفن الموتى!!

قال أبى: «إن النظام الذى أؤسسه، هو ذلك الذى للحياة؛ فإننى أصف الشجرة بالنظام رغم أنها فى آن واحد معا؛ جذور وجذع وفروع وأوراق وثمار، وأصف الإنسان بالنظام رغم أن له روحا وقلبا، وأنه لا يقتصر

على مهمة واحدة: كأن يفلح الأرض أو يعمل على إدامة النوع، بل هو ـ فى آن واحد ـ ذلك الذى يفلح الأرض والذى يصلى، ذلك الذى يحب والذى يقاوم الحب... ذلك الذى يعمل والذى يستجم؛ ويستمع إلى أغانى المساء».

لكن وجد من أقروا للممالك المجيدة بالنظام، وجعلهم غباء المناطقة والمؤرخين والنقاد يظنون أن مجد الممالك راجع إلى ما فيها من نظام؛ بينما أقول أنا إن مجدها ثمرة ما فيها من حماس فحسب. لإنشاء النظام أبدع وجها جديرا بالحب. إلا أنهم هم يتصورون النظام كغاية فى ذاته؛ وعندما يصير مثل هذا النظام موضع نزاع ـ وتبذل فى سبيل إتقانه الجهود ـ فإن ما ينتج عنه أولا هو التوفير والبساطة. وبينما لا يذكر أى مما يهم فعلا؛ فإن ما يصعب ذكره يتحاشى! ولم ألق بعد، أستاذا استطاع أن يجيب عن سؤال واحد لى؛ وهو: «لماذا أحب الريح فى الصحراء تحت النجوم؟». والناس يصطلحون على المعتاد استخدامه؛ لأن اللغة المعبرة عن المعتاد استخدامه، لغة يسيرة. ويمكن القول ـ دون مخافة تكذيب ـ «إن حمولة ثلاثة أوعية من الشعير تفوق حمولة وعاء واحد». وإن كنت أعتقد أننى آتى البشر بما يفوق هذا بكثير؛ إذ أرغمهم على مجرد السير ـ أحيانا ـ ليلا فى الصحراء تحت النجوم؛ وبذا يجرعون من هذا المشروب الذى يشرح الصدر.

إن النظام إشارة إلى الوجود لا علة له؛ بمثلما يكون برنامج القصيدة إشارة إلى استكمالها وعلامة على كمالها. إن المرء لا يعمل فى سبيل البرنامج، بل يعمل لتحقيقه. إلا أنهم هم يقولون لتلامذتهم: «أبصروا هذا العمل العظيم وما يظهره من نظام. استحدثوا نظاما أولا؛ ومن ثم فسيكون عملكم عظيما!». بينما سيكون عملهم حينئذ هيكلا عظميا، لا حياة فيه، وبقايا تكاد لا تصلح لأن توضع فى متحف.

أنا أؤسس الحب للدار؛ وها كل شيء ينتظم، والمزارعون والرعاة والحاصدون يعلو بعضهم بعضا؛ وعلى رأسهم رب الأسرة ـ مثلما تنتظم الأحجار حول المعبد؛ عندما يفرض عليها أن تعمل على تمجيد الإله. عندئذ؛ سيولد النظام من وجد المعماريين.

لا تتعثرن بك لغتك إذن. عندما تفرض الحياة أولا تؤسس النظام. ولكن عندما تفرض النظام أولا تفرض الموت!! إن النظام من أجل النظام هو صورة هزلية للحياة!

٤٤

إلا أن مسألة مذاق الأشياء، قد خطرت لى. وأهل هذا المعسكر قد صنعوا من الفخار قطعا تميزت بجمالها، وأهل ذاك الآخر، اتسم ما صنعوه بالقبح؛ وأدركت - بما لا يدع مجالا للشك - أنه لم يوضع قانون للتوصل إلى صنع قطع جميلة من الفخار؛ لا بالإنفاق على تأهيل صانعيه كى يتقنوا عملهم، ولا بإقامة المسابقات لهم وتكريم أحسنهم عملا! بل ولاحظت أن أولئك الذين يعملون؛ مدفوعين بطموح غير ذلك الذى إلى جودة الشيء المصنوع، لا يتوصلون إلى صنع أشياء جميلة، بل معقدة ومدعاة وفظة؛ حتى إن كرسوا لياليهم لعملهم. ذلك أن الليالى التى قضوها ساهرين، لم يكرسوها إلا لتربحهم أو تنعمهم أو تفاخرهم؛ أى لأنفسهم. ولم يبذلوا للإله شيئا؛ بذلهم أنفسهم فى مقابل شيء صار موضعا للتضحية وصورة للإله، وحيث تمتزج التجاعيد والتنهدات والأجفان المثقلة والأيادى المرتجفة - من فرط عملها بالتشكيل - ومشاعر الرضا عندما يأتى المساء عقب العمل، ويستنفد الحماس! ذلك أننى لا أعرف إلا عملا واحدا يستحق وصفه بالخصوبة، وهو الصلاة. بيد أننى أعرف - أيضًا - أن كل عمل هو صلاة؛ إذا كان بذلا للنفس من أجل الصيرورة.

٤٥

من حقائق الإنسان التى بدت لى صارخة، ما عرفته ـ أيضًا ـ من أن السعادة لا تعنى له شيئا، وكذلك الاهتمام لا يعنى له شيئا؛ فإن الاهتمام الوحيد ذا التأثير فيه، هو اهتمامه بأن يدوم ويظل باقيا، واهتمام الثرى الوحيد هو بأن يزداد ثراء، واهتمام البحار هو بأن يبحر، واهتمام السارق هو أن يجول فى ظلام الليل بحثا عما يمكن أن يسرقه. أما السعادة، فلقد شهدتهم جميعا يستهينون بها، أيما استهانة؛ طالما لم يعد لها من معنى سوى الأمان وزوال الهم! فى تلك البلدة المكفهرة، الشبيهة بالمجرور المنصب تجاه البحر: وجدت بائعات للهوى انشغل أبى بمصيرهن. مثل دهون اللحم الذى مضت على طهيه أيام: كن يفسدن، ويفسدن زوار المدينة. وبعث أبى جنوده ليمسكوا ببعض منهن؛ مثلما يتم اصطياد الحشرات لدراسة سلوكها. وجالت الدورية ـ بين الحوائط المبقعة ـ فى المدينة الفاسدة، ومن حين لآخر لمح الرجال بائعة هوى، عند أحد تلك المحال المنفرة: تسيل منه بقايا طبيخ زنخ، تشبه الصمغ، والفتاة جالسة على مقعدها أسفل المصباح الدال عليها، شاحبة وحزينة كذلك هى، مثل مصباح معلق ينهمر عليه المطر، مساحيقها الثقيلة تجعل وجهها شبيها بقناع.. قناع ثور!! تشقه ابتسامة أشبه بالجرح. وكعادتها تشدو بأغنية رتيبة لكى تسترعى انتباه المارة، كأنها قنديل البحر يطلق تحت الماء ما

تلتصق به الأسماك السابحة، فتسمع بطول الدرب تلك الترانيم اليائسة. وعندما تفلح المرأة فى الإيقاع برجل يغلق الباب خلفه لحظات؛ وتقضى رغبته داخل جحر متهالك لا مثيل لمرارته. وقد توقف النغم المشدو به، وبدلا منه تصدر من الوحش الشاحب ـ فى تلك اللحظات ـ أنفاس مبتورة، وصمت صلب من الجندى الذى ابتاع من ذلك الشبح الحق فى ألا يعود الغرام يدور بخلده؛ إذ ارتوى منه قليلا. لقد أخمد لتوه الرؤى التى عانى خياله من قسوتها؛ فقد يكون قادما من وطن فيه نخيل وفتيات باسمات، وشيئا فشيئا نبتت ـ فى قلبه ـ من صور بساتين النخل تلك ـ خلال الحملات التى بعدت به عن وطنه ـ فروع متشابكة ناء بثقلها. المنبع أصبح موسيقى قاسية، وابتسامات الفتيات وأثداؤهن الدافئة ـ خلف ما يسترها من أثوابهن ـ وظلال أجسادهن المتخيلة والرشاقة التى تسم بوادرهن؛ أضحت كلها نارا تشتد فى التهام فؤاد الفتى؛ لذا جاء يستنفد رصيده الهزيل ناشدا من الأماكن المشبوهة إخلاء جوفه فى حلم يساوره. وعندما يعاود فتح الباب؛ يجد نفسه ثانية على الأرض، منغلقا فى ذاته، جامدا ومتعاليا؛ وقد حجب لبضع سويعات نور كنزه الوحيد ـ أى ذكرى وطنه ـ لأن عينيه لم تعودا تحتملانه.

وإذن، فقد عاد الجنود بحصيلتهم من الصيد، ونور المخفر يكاد يذهب بأبصار الفتيات، وقال لى أبى مشيرا إليهن: «سأعلمك ما يحكمنا ـ نحن البشر ـ قبل كل شىء».

أتى أبى لكل فتاة بملابس جديدة، وجعل كلاً منهن تستقر فى دار رطبة يزينها منبع ماء، وعهد إليهن ـ كعمل ـ بتطريز نسائج فاخرة، وأمر بأن يسدد إلى كل منهن ضعف ما كانت تجنيه من عملها، ثم منع وضع أى رقابة على الفتيات.

وقال لى: «لا شك أنهن الآن سعيدات، عفونات المستنقع تلك، ونظيفات وهادئات وآمنات».

إلا أنهن اختفين واحدة تلو الأخرى، وعدن إلى الماخور.

قال لى أبى: «إنما هى فاقتهن ما بكينه؛ لا عن توق أحمق إلى الفاقة بدلا من السعادة، بل لأن الإنسان يمضى أولا صوب ما هو كثيف فيه. والحاصل أن الدار المزخرفة والنسيج الفاخر والفواكه الطازجة كلها لعب ولهو وشغل للفراغ، لكن ما أمكن أن يجملن بها وجودهن؛ وتملكهن الضيق؛ فإنه شاق التأهل للضوء وللنظافة وللنسيج، ويستغرق وقتا؛ ما إن يكف عن أن يكون مشهدا منعشا، لكى يتحول إلى شبكة من الصلات، وإلى التزام، وإلى اقتضاء. كن يتلقين ولكن لا يعطين. وها هن قد ندمن على الساعات، المتثاقلة اللاتى كن خلالها ينتظرن؛ لا لمرارة تلك الساعات، بل بالرغم من مرارتها، واشتقن إلى المربع المظلم الذى يمثله الباب المحتمل من ساعة إلى أخرى ـ أن يصير إطارا لهدية آدمية يبعث بها الليل. اشتقن إلى الدوار الخفيف الذى يجعل سما غامضا يسرى فيهن؛ عندما يدفع الجندى ـ عنيدا ومملوءا بالحقد ـ ذلك الباب ويسدد إلى المرأة نظرة، كتلك التى تسدد إلى البهيمة المنذورة للذبح، نظرة محطها العنق؛ فمن حين لآخر، قد يثقب أحدهم إحداهن ـ وكأنها قربة ـ بخنجر يفرض الصمت الأبدى؛ كى يستخرج من مخبأ فى أحد الأركان قطعا من النقود، أجيد إخفاؤها ببعض من قوالب الطوب أو قطع القرميد؛ وهى كل مدخرات المسكينة.

ها هن قد اشتقن إلى الماخور الكريه الذى كن يتلاقين فيه، عندما توصد الأماكن المشبوهة أبوابها أخيرا بأمر السلطات؛ وحيث يتبادلن السباب، وهن يشربن الشاى أو يحصين أرباحهن أو يستطلعن المستقبل

ممن يقرؤه عليهن من كفوفهن الفاحشة. وربما كان مما جرى التنبؤ به لهم، نفس هذه الدار ـ ذات الزهور المتسلقة ـ التى كانت عندئذ، محلا لمن هن أجدر منهن بها. والمدهش فى مثل هذه الدار المشيدة فى الأحلام أنها تؤوى بدلا من المرء امرأ آخر، هو هو نفسه متغيرا!! كمثل السفر الذى لا بد أن يغير ما بالواحد منا، ولكن إذا حبستك فى هذا القصر؛ فإنك أنت نفسك دونما تغيير: تجتر ما تصحبه ـ منذ القدم ـ من رغبات وأحقاد وأحاسيس بالاشمئزاز.. أنت يا من لا زلت تعرج؛ إن كنت أصلا تعرج! فإنه لا وجود لصيغة سحرية لتغيير ما بك. ما فى مقدورى إلا أن أرغمك ببطء؛ بقوة الفروض والمعانيات، على تغيير ما بك؛ حتى تتم صيرورتك، أما تلك التى لم يتغير ما بها، والتى تستيقظ فى هذا الإطار المجرد الخالص وتتثاءب، وعندما تسمع طرقا على الباب تنكمش؛ خوفا ـ بحكم العادة ـ وإن لم يعد يوجد سبب لخوفها؛ إذ ما عادت تتهددها الضربات، والتى إذا سمعت طرقا على الباب ـ لاحقا ـ راودها الأمل، وإن لم يعد يوجد سبب لتمسكها بالأمل هو الآخر؛ بما أن الليل لم يعد يأتى بالهدايا؛ تلك ما عادت تسعد بما يأتى به الصباح الباكر من خلاص؛ بما أنها لم تعد تعانى من الليالى المفزعة! قد يكون ما كتب لها ولمثيلاتها من مصير لاحق، مرجوا وموضع ترحاب. إلا أنهن فيه فقدن ما ملكنه ـ على هوى مختلف التكهنات ـ من مصير مغاير فى كل ليلة لذلك الذى شهدته سابقتها؛ بفضله سلكن حياة فى المستقبل، هى أروع من كل ما يمكن أن يكون فى الحاضر!! وها هن يحترن فى كيفية التعامل مع نوبات غضبهن المباغتة؛ وهى ثمار حياة كريهة فاسدة، إلا أنها تعاودهن مثلما يحدث لتلك المخلوقات التى لم تعد تعيش بقرب البحر ولكنها تنكفئ على أنفسها تلقائيا فى نفس موعد المد. عندما تعاودهن نوبات الغضب تلك، لا يعدن

يجدن ظلما يهتفن ضده، وها هن يجدن أنفسهن ـ دون سابق انتظار ـ مثل تلك الأمهات، اللاتى فقدن أجنتهن ولكن اللبن من داخلهن يصعد إلى أثدائهن؛ فلا تكون له جدوى.

فإن الإنسان ـ كما قلت لك ـ يبحث لنفسه عن كثافته لا عن سعادته».

٤٦

حضرتنى بعد صورة الوقت المكتسب؛ فإننى أتساءل، قائلا: «باسم ماذا؟»، وها هو الآخر يجيبنى، قائلا: «باسم الثقافة»؛ وكان من الجائز أن تكون تلك ممارسة لا معنى لها.

مجنون ذلك الذى يزعم إمكان التمييز بين الثقافة وبين العمل؛ فإن الإنسان سيشمئز أولا، من عمل سيكون هو الجانب الهالك من حياته، ثم من ثقافة لن تكون إلا رهانا بلا كفالة؛ فأحمق هو النرد الذى تلقيه، إن لم يعد يمثل ثروتك وإن لم يكن إلقاؤه ليتدحرج على المائدة؛ فى سبيل تحقيق آمالك! فما الرهان بالنرد، بل بقطعانك ومراعيك وذهبك؛ بمثلما يقوم ما يشيده الطفل على شاطئ البحر، فى عرفه بمقام القلعة أو الجبل أو السفينة حقا، لا تلك القبضة من الرمال.

يقينا، إننى رأيت الإنسان يستمتع بالفراغ: رأيت الشاعر نائما أسفل أشجار النخيل، ورأيت المقاتل يشرب جرعته من الشاى لدى المحظيات، ورأيت النجار تحت سقيفته يستروح نسيم المساء الحلو؛ ويقينا أنهم جميعا بدوا مفعمين بالبهجة. بيد أننى قلتها لك: «إن هذا بالتحديد راجع إلى ما حل بهم من زهد فى البشر». هو مقاتل ذاك الذى يسمع الأغانى، ويشاهد الرقصات، وهو شاعر ذاك الذى تداعب خياله الأحلام وهو مستلق على العشب، وهو نجار ذاك الذى يستنشق شذا المساء. إلا أن

مقاما آخر هو المقدر للضرورة؛ وسيظل الجانب المهم فى حياة كل منهم ـ دون أدنى شك ـ هو جانب العمل. ما يصدق على المعمارى (وهو إنسان؛ ومصدر تحمسه واكتسابه كامل دلالته، هو هيمنته على قيام المعبد الذى كلف ببنائه، لا ترويحه عن نفسه بلعب النرد!) يصدق على الجميع. إن الوقت المكتسب بعد إتمام العمل ـ إن لم يكن مجرد فراغ؛ أى استرخاء العضلات بعد الجهد أو نعاس الذهن بعد الابتكار ـ ليس إلا وقتا هالكا! فعندئذ تقسم حياتك قسمين، كلاهما مرفوض: العمل الذى ليس إلا سخرة، والفراغ الذى ليس إلا غفلة.

٤٧

لا شك في جمال تلك الراقصة، التي قبضت عليها شرطة مملكتي. جميلة أولا، وأيضا تشغلها أفكار غامضة. بدا لي أنني بمعرفتها سأعرف مناطق من أراضي مملكتي لم أكن قد عرفتها بعد، وسهولا وادعة، وليالي في الجبال، واجتيازا للصحراء والريح عاتية. قلت في نفسي: «إن لها وجودا!!» وإن لم يغب عني أنها تنتمي إلى قوم لهم تقاليد تختلف عن تقاليدنا، وأن مهمتها في بلادنا تخدم أعداء لنا. إلا أن رجالي لم يستطيعوا ـ عندما حاولوا إكراهها على الكلام ـ إلا أن ينتزعوا منها ابتسامة حزينة.

وأنا أمجد في الإنسان أولا ما يقاوم النار!!

وعندما استجوبتها بنفسي، أدت لي انحناءة خفيفة، قائلة: «إني آسفة يا مولاي».

نظرت إليها دون أن أقول شيئا، وتملكها الخوف؛ وزاد ما بها من شحوب، ثم انحنت انحناءة زادتها بطئا، وكررت قولها.

ففي ظنها أن العذاب مصيرها.

قلت لها: «فكري في قدرتي عليك، وأن حياتك بيدي».

قالت: «إنني أمجد قدرتك يا مولاي».

أكسبتها مهمتها السرية رزانة، وآثرت الموت على كشف سرها.

وها هى تبدو لى بجمال الخدر الذى تحفظ فيه الحلى، ولكن واجبى هو أولا نحو المملكة.

قلت لها: «على ما فعلت تستحقين الموت».

وقالت: «آه مولاى! على الأرجح أن فى هذا عدلا».

(كان شحوبها يفوق شحوب المحبين).

وفهمت ـ أنا الذى لا تعوزنى الخبرة بالبشر ـ أن ما تعنيه هو أن فى الحكم عليها بالموت عدلا؛ لأن سرها سيموت معها: «قد يكون عدلا أن ينجو ما أنطوى عليه! بدلا منى!».

وقلت لها: «أتضحين ـ إذن ـ بشبابك وجمالك؟ تحسبين أنك تحفظين فيك شيئا ما، وأنت لن يبقى منك شىء متى مت؟».

وبدا عليها الاضطراب؛ لأن الكلمات أعوزتها، فلم تجد ما تجيبنى به.

قالت: «ربما كنت محقا يا مولاى».

لكننى أحسست بأنها تقر بانتصارى عليها فى ميدان الكلمات فحسب؛ إذ أعوزها هى ما تدافع به.

قلت لها: «إذن؛ فأنت تخضعين».

قالت: «أنا أخضع يا مولاى، ولكننى لن أتكلم».

أنا أحتقر من تهزمه الحجج، وأبجل من يظل ـ عبر الكلمات وحتى إن تناقضت فيما بينها ـ ثابتا كصدر السفينة؛ الذى يظل متجها إلى غايته،

مهما بلغ هياج البحر، فهكذا نعرف إلى أين نذهب، أما الذين ينغلقون فى منطقهم؛ فإنهم يتبعون كلماتهم إلى حيث تؤدى؛ ويبدرون حول أنفسهم، مثل الديدان.

ونظرت إليها مليا، وقلت: «من أين جئت، ومن الذى كلفك بمهمتك؟».

وابتسمت، ولم تجب.

وأمرتها بالرقص؛ فرقصت بجمال؛ كما توقعت.

من تأمل النهر من أعلى الجبال يراه يعاق - فى موضع ما - بصخرة لا يستطيع اقتحامها؛ فيدور حولها، وبعدها بقليل ينحرف؛ لكى يتخذ منزلقا مواتيا، وفى السهل يتباطأ متعرجا؛ لسكون القوى التى كانت تجذبه إلى البحر، وفى بقعة أخرى راح يستلقى فى بحيرة. فإذا اعترضه غصن؛ فإنه يدفع هذا الغصن إلى الأمام ليضعه - مستقيما - على الضفة كأنه سيف.

كذلك يروقنى أن تلاقى الراقصة مسالك الطاقة تلك، فتطوع لها بوادرها؛ فإنما الرقص مصير ومسيرة عبر الحياة. متى اعترض المرء فى مسيرته سيل وأراد تفاديه؛ فإنه يرقص، ومتى تعرض المرء لمخاطر المنافسة فى الحب؛ فإن مناوراته رقص. وتدبر الربان للوصول بسفينته إلى المرفأ آمنة، رقص.

لكى ترقص أنت، يلزمك الغريم، لكن أى غريم سيشرفك برقصة من سيفه، إن لم يكن الذى فيك إنسانا؟ إنما يرقص ويراقص من هو إنسان حقا.

الرقص، قتال وإغواء وخطيئة وتوبة. لكن أى رقصة تتوقعها من قطيع بولغ الاهتمام بتغذيته؟!

فإنما لا تبدر رقصة من قعيد الدار؛ بل عندما تضن الأرض بعطائها، أو تعترض الأحجار المركبة، أو تفلح شمس الصيف الشديدة السنابل، أو يتعرض الشعب الآمن لهجوم الهمج؛ فعندئذ تولد الرقصة؛ حيث تكون لكل خطوة دلالة.

٤٨

إذن، فقد هزنى الشوق إلى الموت!

دعوت الإله، قائلا: «هب لى سكينة الحظائر، والأشياء المرتبة بعناية، والمحاصيل متى جمعت! دعنى أكون؛ إذ بلغت الصيرورة». لقد أعيتنى أحزان قلبى. وبلغت بى الشيخوخة ما يعجزنى عن معاودة الارتفاع بأغصانى. كل أصدقائى وأعدائى فقدتهم واحدا تلو الآخر، وعلى طريق فراغى الحزين ألقى ضوء؛ ابتعدت.. عدت.. نظرت.. وجدت البشر كما تركتهم، حول العجل الذهبى؛ غير مهتمين وإنما أغبياء. والأطفال الذين يولودون اليوم يفوقون ـ فى غربتهم عنى ـ شباب الهمج الذين يعوزهم الإيمان. أنا مثقل بكنوز لا جدوى منها؛ كأنها موسيقى لن تعود أبدا موضع الفهم.

بدأت صنيعى فى الغابة، بفأس الحطاب التى فى يدى، وانتشيت بنشيد الأشجار. إذن، فإن على المرء أن يعتصم ببرج؛ كى يكون فى الصديقين. أما وقد رأيت البشر من قرب بالغ؛ فقد سئمت.

«رب، تجل لى؛ فإن كل شىء عسير على من يفقد ألفته بربه».

بعد الحماس العظيم حلمت برؤيا:

ذلك أننى كنت عائدا إلى المدينة منتصرا؛ وانتشر الحشد بألوان من

الرايات، وتعالت عند مرورى الصيحات والأهازيج، وفرش الطريق بالزهور؛ تمجيدا لانتصارى، بيد أنه لم يطغ علىَّ إلا شعور واحد، بالمرارة؛ فقد بدا لى أننى أسير شعبًا من المعتوهين.

فما أشد العزلة التى يصيب بها الحشد ـ قبل أى شىء ـ من يمجده!! من منهم يهبنى نفسه يفارقنى؛ فما من جسر بين الواحد منا والآخرين إلا عن طريق الإله. وما من رفاق حقيقيين له إلا أولئك الذين يجثون معه للصلاة؛ ليمتزج الجميع كحبوب من نفس السنبلة، فى نفس المكيال؛ حتى يصنع الخبز. أما أولئك، فإنهم يقدسوننى ويجعلون فى داخلى صحراء، فما أنا بمستطيع تبجيل من يخطئ،ولا أنا بقادر على إقرارى إياهم؛ بتقديسى لذاتى، ما أنا بمتقبل بخورا يشعلونه لى؛ فما أنا بمن يحكم على نفسه وفقا للآخرين، وقد هدنى التعب من نفسى، أنا الذى يثقل حمله، واللائذ بحمى الإله؛ عالما بضرورة انسلاله من نفسه حتى يدلف إليه! وإذن، فإن من داهنونى قد جعلونى حزينا.. جعلونى صحراء لا تغنى الشعب من ظمأ؛ شأن البئر الخاوية التى لا تغنى من ينحنى بغية اجترار ماء منها؛ فما فىَّ من شىء ذى قيمة يمكن أن أهبه، ولا أنا بمستطيع أن أتلقى شيئا من أولئك؛ بما أنهم يجثون لى أنا.

فإننى بحاجة إلى ذلك الذى يكون أولا نافذة مفتوحة على البحر؛ لا مرآة تبعث فى الضيق.

ومن ذلك الحشد الذى شكله شعبى على مر الأزمان، لم يبد لى ذو قيمة إلا الموتى؛ الذين لم تعد تستثيرهم الأباطيل!

حينذاك، وقد ضقت بالهتافات مثلما أضيق بضجة جوفاء لم يعد ممكنا أن تأتينى بأنباء، حلمت بالرؤيا:

«فى الجبل طريق وعر وزلق يشرف على البحر. الإعصار هب والليل

أنزل من السماء ماء كمثلما ينزل من قربة مليئة. أنا أصر على الصعود صوب الإله؛ لأسأله عن أسباب الأشياء، وأن يفسر لى مآل البذل الذى قيل إنه فرض على.

بيد أننى لا أكتشف على قمة الجبل إلا كتلة ثقيلة من الصوان الأسود؛ هى الوثن.

أقول لنفسى: «إنه هو حقا، ثابتا عفيفا»؛ فما زال يراودنى الأمل فى ألا تطبق علىَّ العزلة.

أقول له: «رب، أنبئنى؛ ها هم أصدقائى ورفاقى ورعاياى لا يعودون يمثلون لى سوى دمى ناطقة؛ أمسك بها فى يدى وأغير ما بها وفقا لهواى. وليس ما يضنينى أنهم يطيعوننى ـ فإنه حسن أن تحل بهم حكمتى ـ بل أنهم أمسوا تلك الصورة فى المرآة؛ التى تجعلنى أشد من الأبرص عزلة: متى ضحكت ضحكوا، ومتى أمسكت عن الكلام اكفهروا! فإذا حدثتهم بما أعرفه لم يحفظوا من قولى إلا مثل ما تحفظه الشجرة من الريح! ولا يحفظون شيئا لغيرى. لا يوجد لى ما أستطيع بذله؛ فإنما هذه الصحبة غير متكافئة؛ لا أعود أسمع خلالها إلا صوتى أنا، الذى يرتد إلىَّ كصدى يتردد داخل معبد لا يشغله إلا الهواء البارد. لماذا يفزعنى الحب؟! وما الذى يمكن أن أتوقعه من حب ليس إلا تعددا لى أنا نفسى؟.

إلا أن كتلة الصوان المتقاطر عليها ماء المطر ببريقه، ظلت مستعصية.

وإذ حط على غصن مجاور غراب أسود؛ عدت أقول: «رب، إنى مدرك تماما أن الصمت هو اللائق بجلالك، بيد أننى بحاجة إلى إشارة. فلتأمر هذا الغراب، بأن يطير بعد أن أنهى ضراعتى. عندئذ سيكون هذا كالتواطؤ، ولن أعود وحيدا فى العالم؛ سأكون مرتبطا بك عبر مكاشفة،

وإن غامضة. أنا لا أطلب سوى أن يوحى إلىَّ باحتمال وجود ما يمكن فهمه.

وراقبت الغراب، ولكنه ظل بلا حراك؛ فعدت إلى الجماد.

قلت: رب، ما من شك فى صواب ما تفعل. لا يليق بجلالك أن تذعن لتعليماتى!! ولو كان الغراب قد طار؛ فلصرت بعد أشد حزنا! فما كنت بمتلق أى إشارة إلا من مساو لى (وبالتالى منى أنا نفسى، باعتبارها ارتدادا آخر لرغبتى)؛ ولما لاقيت ثَانية سوى عزلتى.

إذن، فقد جثوت، وعدت أدراجى».

إلا أن الحاصل أن يأسى قد حلت محله رزانة فريدة غير متوقعة. خضت فى أوحال الطريق، ومزقتنى الأشواك، وصمدت للطمات الإعصار؛ ولكن استنارة ما راحت تشيع فى داخلى. فإن كنت لم أعلم شيئا فإن شيئا واحدا ما أمكن أن أعلمه دون أن أشمئز. ولم أكن قد بلغت الإله. ولكن إلها يبيح لمس الناس إياه لا يعود إلها. ولا كذلك إذا استجاب للضراعة. ولأول مرة فطنت إلى أن عظمة الضراعة تكمن أولا فى أنها لا تجاب، وأن هذا البذل لا تشوبه دمامة المقايضة، وأن التأهيل للضراعة هو التأهيل للصمت، وأن المحبة لا تبدأ إلا حين يكف التطلع إلى الهبة؛ المحبة أولا تدريب على الضراعة، والضراعة تدريب على الصمت.

وعدت بين شعبى، مطبقا عليه للمرة الأولى بصمت حبى، ومستوهبا إياه على هذا النحو عطاياه، حتى الموت. وقد انتشوا بشفتى المغلقتين. بت راعيا لنشيدهم ومخيما يؤويه، بت الأمين على مصائرهم، وسيد خيراتهم ومعائشهم، وبالرغم من ذلك، أشد منهم فقرا وتواضعا؛ بكبريائى المستعصية على أدنى خدش. وعلما بأنه لا وجود لما يمكن تلقيه، فبى صاروا وذاب نشيدهم فى صمتى. وبى أنا لم نعد نحن جميعا إلا ضراعة تذوب فى صمت الإله.

٤٩

آثرت أن يجيئنى ـ لإبداء الملاحظات على سياستى ـ وفد من علماء الهندسة؛ لولا أن عدد هؤلاء قد اقتصر على واحد فقط!! بل وقد مات؛ وإذن، فإن ما جاءنى هو وفد من المعلقين على أقوال علماء الهندسة. وعدد هؤلاء بلغ عشرة آلاف!!

وقالوا: «باسم العقل، نحتج. نحن كهان الحقيقة! إن قواعدك تختلف عن قواعدنا. لك أنت القوة العددية والمادية، ولنا نحن القوة الذهنية؛ وستكون لنا الغلبة».

وتبادلوا النظرات؛ واثقين من قوة منطقهم. وأنا مضيت بعيدا بأفكارى إلى صديقى، عالم الهندسة الحقيقى الوحيد؛ كم زرته لأستنير من حكمته.

فى إحدى زياراتى له، قال لى: «لا تدعنى بعالم الهندسة؛ أنا أولا إنسان، يحلم أحيانا بالهندسة؛ عندما لا يشغله ما هو أكثر إلحاحا، مثل النوم أو الجوع أو الحب».

قلت له: «أنت من تجلت له الحقيقة».

وقال: «لست إلا متخبطا لا أجد بعد، لغة أتحدث بها؛ شأن الطفل

الذى لم يكبر بعد. إن الحقيقة لم تتجل لى. كل ما أستطيع اكتشافه هو أنا نفسى».

وجذبتنى من أفكارى جلبة من حولى، وقال أحدهم: «إن كلا من فروضنا ينبنى على سابقه ـ من وجهة نظر المنطق البحتة ـ لم يسهم الإنسان فى صنيعنا بشىء».

وأجبته، قائلاً: «لقد كان عالم الهندسة الحقيقى يستخرج من خليط الأرقام ما لم يتوجه بعد أى نجاح؛ لأنه كان يعلم أن التقدم عن طريق الاستنباط مستحيل؛ لأن الإنسان يظن طريقه آمنا طالما غابت عنه الهوة التى تحول بينه وبين مواصلته، لكنه متى انتبه فسيكون بحاجة إلى من يجيئه ليرشده، لا إلى استدلاله هو فرضا من فرض. فإنه إن اكتفى بهذا بات كمن يشاهد على الحائط ظلال الراقصين وهم يرقصون؛ ولا يستطيع أن يشاركهم رقصهم، ولا أن يدعى المعرفة بالرقص».

٥٠

جاء ذلك الذى يناقض أبى:

قال «إن سعادة البشر...».

قاطعه أبى، قائلا: «لا تنطق بهذه الكلمة لدىَّ! أنا أستمرئ الكلمات الدالة على الأعماق التى جاءت منها، ولكننى ألفظ القشور الخاوية».

وقال له الآخر: «مع هذا، فإنك ـ وأنت رأس الدولة ـ لست أول من تشغله سعادة الناس»!

وأجابه أبى، قائلا: «ليس ما يشغلنى، العدو خلف الريح لأتخذ منها مئونات؛ فإننى إذا وقفت ساكنا فلن يعود للريح وجود».

٥١

أتذكر ما قاله أبى يوما: «لكى أقيم شجرة البرتقال، أستخدم السماد والمعول الذى أضرب به الأرض، وكذلك أشق بين أغصان الشجر المجاور ما يتيح لأغصانها الانتشار؛ وبذا تعلو شجرة قابلة لحمل الأزهار. وأنا ـ البستانى ـ سأعود إلى الأرض دون أن أنشغل بالأزهار، ولا بالسعادة؛ فإنه لكى توجد شجرة مزهرة، يجب أن توجد أولا شجرة! ولكى يوجد إنسان سعيد؛ يجب أن يوجد أولا إنسان»!

إلا أن الآخر عاد يسأله: «إن لم يكن صوب السعادة تسابق الناس؛ فصوب ماذا إذن يتسابقون»؟

قال أبى: «مهلا! سوف أبديه لك فيما بعد.

بيد أننى، سأسجل أولا أنه لكون كل من الجهد والنصر يتوج ـ فى معظم الأحوال ـ بالبهجة؛ فإنك تستنتج ـ شأن عالم المنطق، الغافل ـ أن الناس يناضلون استهدافا للسعادة. وهو ما أجيب عليه بأنه طالما كان الموت هو الذى يتوج الحياة؛ فإن الناس لا يضمرون إلا أمنية واحدة، هى الموت!! وهكذا نستخدم كلمات كالمخلوقات البحرية الرخوة التى لا تملك فقرات عظيمة. وأنا أقول لك إن من الناس من هم سعداء ويضحون بسعادتهم؛ لكى يذهبوا للحرب».

قال: «هذا؛ لأنهم يرون فى إنجازهم واجبهم صورة من السعادة أكثر سموا».

قال أبى: «أرفض الحديث معك، إن لم تحمل كلماتك معنى يمكن إثباته أو نفيه. لا مقدرة لى على الاشتباك بهذا العجين الذى بلا قوام. إذا كانت السعادة هى الانتشاء بأول حب، بقدر ما هى الشعور بدنو المنية بعد تلقى الرصاصة فى البطن، فكيف تريدنى أن أجابه إثباتاتك بالحياة؟! أنت لم تثبت شيئا، فيما عدا أن الناس يبحثون عما يبحثون عنه، وأنهم يتسابقون إلى حيث يتسابقون! أنت فى مأمن من المجادلة؛ ولا حاجة لى أنا إلى أى من حقائقك الصامدة، فما هى إلا تحصيل حاصل!

أنت تتحدث، وكأنك تتلاعب. وإذا عدلت عن مساندة ترهاتك.. إذا عدلت عن تفسير ذهاب الرجال إلى الحرب بتوقهم إلى السعادة، وإذا صممت بالرغم من ذلك على أن تثبت لى أن السعادة هى المبرر لكل ما يقوم به الإنسان؛ فإننى أسمعك ـ سلفا ـ تزعم لى أن الذهاب إلى الحرب يبرره الجنوح إلى الجنون. بيد أننى فى ذا أيضا أطالبك بشىء من المخاطرة، بأن توضح لى ـ أولا ـ الكلمات التى تستخدمها؛ فإنك إن وصفت ـ مثلا ـ بالجنون ذلك الذى يزيد من فمه، أو غيره الذى يحاول السير على رأسه؛ فإننى لم أقبل بتفسيرك اللاحق لذهاب المقاتلين إلى الحرب، ما دمت أرى كلا منهم يسير على قدميه.

لكن الحاصل، أنك لا تملك لغة تذكر لى لها مقصد البشر من مجهودهم، ولا الغاية التى ينبغى علىَّ أن أقودهم إليها. أنت تستخدم آنية بالغة الصغر ـ مثل «الجنون» أو «السعادة» ـ بأمل باطل فى وضع الحياة داخل هذا أو تلك، على غرار ذلك الطفل الذى يقف عند سفح جبل الأطلس، حاملا مجرافا ودلوا؛ ويزعم أن باستطاعته نقل الجبل».

فقال الآخر، راجيا: «إذن، فلتنر بصيرتى»!

٥٢

إذا ما عقدت العزم بدافع من أسباب يسهل بيانها، ولم يغفل بيانك أيا من تفاصيل الأسباب تلك؛ ولم يكن عزمك على تحرك من روحك أو من قلبك ـ إذن، فأنا أنكرك!

ذلك أن كلماتك ليست إشارات إلى أشياء أخرى، على نحو ما يكون اسم زوجتك؛ الذى هو حامل لمعنى مستقل بذاته، لا لصفة لها. ليس بوسعك التفكير فى أى من الأسماء؛ لأن المعنى الذى يحمله لا ينطبق على صاحبه، ولا يخطر ببالك أن تقول: «اسمها ينبئ بأنها جميلة»!

كيف إذن، تريد للتفكير فى الحياة أن يكتفى بذاته؟! وإن وجد ما يتكفل بهذا التفكير فقد تكون تلك الكفالة أبهظ؛ إذا ما أعوز التفكير ذكاء يهديه إلى الحكمة! وقليلا ما تهمنى المقارنة بين الصيغ للاهتداء إلى أنجحها. إن الحياة هى الحياة.

إذن، فإن كانت اللغة التى بها تخابرنى بأسبابك للقيام بما تفعله، شيئا آخر غير القصيدة التى ينبغى أن تنقل إلىَّ منك نغمة عميقة؛ إن لم يكن فى هذه اللغة أى لما يمكن صياغته، ومع هذا تريد بها أنت أن تشحننى؛ فإنى إذن، أرفضك.

ذلك أن المرء لا يموت فى سبيل الإشارة، بل فى سبيل الكفالة بالإشارة ـ وإذا حاولت تفهم هذه الكفالة ـ أو حتى الشروع فى تفهمها ـ فستجدها

قد فرضت عليك عبء الكتب التى فى جميع مكتبات الأرض. ذلك أن الذى فهمته بأيما بساطة فى محبسى، لا أستطيع بيانه لك، لأنه يجب أن تكون أنت نفسك قد سرت إلى الجبل الذى فى قصيدتى؛ كى تفهمه بكامل معناه. وإذا أردت نقل الجبل إليك ـ أنت الذى لم تغادر البحر قط ـ فكم من الكلمات يلزمنى؛ كى أفقه هذا، وكم من السنين؟!

وماذا عن المنبع، إن لم تكن ـ فى أى يوم ـ قد ظمأت وضممت إحدى راحتيك إلى الأخرى؛ لتمتدا منك فتلقيان الماء؟ باستطاعتى أن أشدو بالمنابع، ولكن ما الخبرة التى أستدعيها منك، وأى فرائص فيك ستجعلها ذكرياتك تختلج؟

أنا عليم بأنه جدير بالحديث معك ألا يبدأ بالمنابع، بل بالإله؛ ولكن لكى تنبشب لغتى أنيابها وتصير لى ولك إجراء يمكن الاعتماد عليه؛ يجب أن تتعلق بشىء ما فيك، لذا فإنى إن أردت أن أنبئك بالإله؛ فسأبعثك ـ أولا ـ تتسلق الجبال حتى تغريك ذرى النجوم أشد إغراء، وسأبعثك إلى صحراء يقتلك فيها الظمأ؛ حتى تستسلم لسحر المنابع، ثم سأبعثك إلى حيث تحطم الأحجار طيلة ستة أشهر؛ كى تقضى عليك شمس الظهيرة؛ وبعد ذلك سأقول لك: «هذا الذى فرغ من شمس الظهيرة، سيشرب صامتا من المنابع الإلهية؛ إذا تسلق ـ متى جاء الليل؛ ليشفع له ظلامه ـ ذرى النجوم».

وستؤمن بالحى الذى لا يموت.

ولن تستطيع إنكاره؛ لأنه سيكون موجودا، مثلما يوجد الحزن فى الوجه، إذا ما قمت أنا بنحته.

ذلك أنه لا يوجد فعل ولا لغة، وإنما ملمحان للمعبود نفسه. لذا أعد العمل عبادة، والتعبد عملا.

٥٣

لن تتلقى إشارة؛ لأن علامة الألوهيـة ـ التى تبغـى أنت إشـارة إليها ـ هى الصمت نفسه. والأحجار لا تعرف شيئا عن المعبد الذى تكونه ولا تستطيع أن تعرف. ولا القطعة من لحاء الشجرة تعرف شيئا عن الشجرة التى تكونها مع غيرها، ولا الشجرة نفسها، ولا هذه الدار ـ أو تلك ـ تعرف عما تكونه مع غيرها. ولا أنت عن الإله؛ فإنما يجب أن يظهر المعبد للحجر، أو الشجرة للحاء، وهو ما ليس له معنى؛ فما للحجر من لغة يتلقى فيها المعنى. اللغة هى على مستوى الشجرة.

هذا هو اكتشافى بعد هذه الرحلة صوب الإله.

وحيد أنا على الدوام، منغلق فى نفسـى قبالة نفسى. ولا أمل لى فى الخروج بنفسى من عزلتى. لا أمـل للحجـر فى أن يكـون شيئـا آخـر سـوى الحجر. لكنى متى تعاونت الأحجـار؛ فإنهـا تتجمع وتصير معبدا.

كذلك، فلا أمل لى فى ظهور الملاك المنشود؛ لإنه إما خفى وإما غير موجود. أما أولئك المتطلعون إلى إشارة من الإله، فإن ما يحدوهم هو ظنهم أنه سيطل عليهم من المرآة، ثم إذا نظروا فيها ما عادوا يرون سوى صورهم. لكننى أنا، متى اقترنت بشعبى؛ فإنما يغشانى دفء يغير

ما بى. وفى ذا علامة على الإله؛ ذلك أن الصمت متى ساد؛ فقد دانت له الأحجار كلها.

إذن، فأنا نفسى، لست ـ خارج أى من المجتمعات ـ شيئا يعتد به؛ وما أنا بقادر على إرضاء نفسى.

وإذن، فلتدع نفسك تصير حبة قمح ـ من أجل الشتاء ـ فى المستودع؛ وحيث تخلد إلى النوم.

٥٤

رفض المرء هذا أن يتم التفوق عليه:

يقول كل منهم: «أنا».

ويدقون على بطونهم؛ وكأن الفضل فى وجود ما فيهم يرجع إليهم! أبالمثل إذن يمكن لأحجار المعبد أن تقول: «أنا.. أنا.. أنا»؟!

كذلك أولئك الذين حكمت عليهم بأن يستخرجوا الماس؛ صار العرق والمعاناة والإرهاق، ماسات وضياء؛ وصاروا مدينين بوجودهم للماس الذى به وجد ما لهم من معنى. لكن جاء اليوم الذى فيه تمردوا؛ راحوا يقولون: «أنا.. أنا.. أنا»! وها هم يرفضون أن يخضعوا للماس. ما عاد مرادهم أن يصيروا؛ بل أن يشعروا بأنفسهم مكرمين لذواتهم. لقد رشحوا أنفسهم للتكريم بدلا من الماس، وبدوا دماما؛ لأنه بالماس كان جمالهم! فإنما بالمعبد يكون جمال الأحجار، وإنما بحديقة الدار يكون جمال الشجرة، وإنما بالمملكة يكون جمال النهر؛ الذى تجرى دماؤه متئدة إلى قلب الأمة، والذى يتغنى له: «أنت يا من تغذى قطعاننا، أنت يا من تروى سهولنا، أنت يا من ترشد سفننا».

لكن أولئك، اعتدوا بأنفسهم كهدف وكغاية؛ ومنذئذ لم يعودوا يهتمون إلا بما يخدمهم، لا بما يعلوهم وينبغى عليهم هم أن يخدموه.

ولهذا أعملوا فى الأمراء التقتيل، وسحقوا الماسات إلى ذرات كى يتقاسموها فيما بينهم جميعا، وجعلوا فى غياهب السجون من يمكنهم ـ وهم الباحثون عن الحقيقة ـ أن يكونوا هم المسيطرين يوما ما. قالوا: «لقد آن الأوان أن يخدم المعبد الأحجار»!! ومضوا جميعا؛ ظانين أنهم أثروا بفضل أنصبتهم من المعبد، وإن حرموا من نصيبهم الإلهى وصاروا حصى ولا غير!!

٥٥

إلا أنك تسائلنى، قائلا: «أين تبدأ العبودية وأين تنتهى؟ وأين الحدود بين ما هو خاص وبين ما هو عام؟ وما هى حقوق الإنسان؟ فإننى أعرف حقوق المعبد؛ والذى تستمد منه الأحجار معناها، وحقوق المملكة؛ والتى يستمد منها البشر معناهم، وحقوق القصيدة؛ والتى تستمد منها الكلمات معناها، ولكننى لا أعترف بحقوق للأحجار على المعبد، ولا للكلمات على القصيدة، ولا للإنسان على المملكة».

ليست الأنانية هى الموجود حقا، إنما هو الغياب؛ وذلك الذى يمضى وحده، قائلا: «أنا... أنا... أنا» هو كالغائب عن المملكة، وكذلك الحجر خارج المعبد أو الكلمة وحدها دون القصيدة، أو قطعة اللحم المبتورة، التى لم تعد جزءا من البدن.

وقد ووجه أبى بمن احتج عليه، قائلا: «لكننى أستطيع محو الممالك وتوحيد البشر فى معبد واحد؛ وعندئذ سيستمدون معناهم من معبد يفوق سابقه رحابة».

وأجابه أبى، قائلا: «فإنما لم تفهم أنت شيئا! لأن هذه الأحجار تراها أنت أولا مكونة ذراعا ومستمدة منه معناها، وترى غيرها مكونة عنقا أو جناحا. لكنها معا تكون ملاكا فى حجر، وغيرها تكون معاقبة، وغيرها

عمودا، ثم ترى تلك الملائكة والقباب والأعمدة كلها تكون معا معبدا، ثم ترى كل المعابد: إنها تكون المدينة المقدسة التي تحكمك في سيرك بالصحراء. فهل لك أن تزعم أن من الأجدى لك أن تستعين بالأحجار دفعة واحدة في بناء تلك المدينة المقدسة؛ بأن تجعل منها كوما واحدا متماثلا بدلا من أن تستعين بالأحجار في صنع ذراع تمثال، وعنق له وجناح، ثم بالتماثيل في استكمال المعبد، ثم بالمعابد في تكوين المدينة المقدسة؟! وكأن تألق المدينة المقدسة ـ وهو المتوحد ـ ليس مصدره هذا التنوع!! وكأن تألق العمود ـ وهو تألق متوحد ـ ليس مصدره أجزاءه المتنوعة، من تاج وساق وقاعدة. ذلك أنه بقدر سمو الحقيقة يكون ارتفاع الموقع الواجب على المرء أن يشهدها منه. إن الحياة متوحدة، ولكنها تتنوع في كل مرحلة؛ وتفوض سلطانها كائنا تلو كائن. كذلك المهبط المنتهي بالبحر: فيه يتلو كل مستوى الآخر. فإنما الزورق متوحد وإن كان جمعا من متنوعات؛ لأن من يقترب منه يكتشف فيه الشراع والمجداف والدفة والصدر، ومن يزداد اقترابا يرى الحبال والمسامير والألواح والزوايا الخشبية، وكل من هذا ينقسم بدوره إلى أجزاء؛ متى زيد تأمله.

ما من دلالة أو حياة حقيقية لمملكتي، ولا كذلك لاستعراضات الجنود بعد اصطفافهم، بل ولا للمدينة وحدها؛ إن ظنت هذه اصطفافا حسنا لأحجار!! إنما هو المنزل أولا، وبالمنازل جيرة، وباجتماع الجيرة والجيرة تكون العشيرة، ومن العشائر يكون الإقليم، ومن الأقاليم مملكتي. وهذه المملكة تبصرها نابضة بالحياة والحماس، من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، كزورق في البحر يغتذي على الريح ويتجه بها صوب هدف لا يختلف؛ وإن اختلفت الريح، وإن كان الزورق تجميعا.

عندئذ، تستطيع مواصلة عملك على الترقي، وجمعك الممالك كي

تجعل منها سفينة أكثر اتساعا تستوعب فيها السفن وتمضى بها صوب وجهة ستكون واحدة، تغتذى على مختلف الرياح؛ التى تتنوع دون أن يتنوع توجه صدر السفينة فى استهدائه نجما واحدا من بين النجوم. إن التوحيد هو إحساس الربط بين التنوعات المنفرد كل منها بنفسه، لا محوها فى سبيل تنسيق لا جدوى منه.

(إلا أن المستوى فى حد ذاته لا وجود له. قد يمكنك تمييز بعض المستويات، التى اندمجت فى غيرها، وليس هذا بالمؤكد).

٥٦

وإذا أنت ـ على الرغم ـ ينتابك ما يقلقك؛ إذ رأيت الطاغية الشرير يسحق البشر، والمرابى يكبلهم بما يستعبدهم به، بل أحيانا رأيت مشيد المعبد غير خادم للإله بل لنفسه، ويستغل بأنانيته جهد البشر؛ وبذا، لم ينتفع البشر بما بذلوه، ولا زادت بفضله عظمتهم؛ كما اتضح لك.

فإنما المسيرة هى التى كانت سيئة! فليس ما فى الأمر هو القدرة على التسلق، والأخذ من الأحجار كيفما اتفق؛ لصنع جزء من تمثال الملاك، ثم جزء آخر، ثم لإقامة المعبد مما تصادف صنعه من تماثيل لملائكة أو من أعمدة أو من قباب؛ فإنك على هذا النحو ستملك حرية التوقف عند المستوى الذى آثرته. ليس إخضاع الناس للمعبد بأفضل من إخضاعهم لجزء من التمثال وحده؛ فلا الطاغية ولا المرابى ولا الجزء من التمثال ولا المعبد، يملك أيهم قيمة بها يستوعب البشر، ويجزيهم عن إثراء سلف أن أمدوه هم به، بإثراء مماثل.

ليست مواد أولية من الأرض، هى التى انتظمت كيفما اتفق وقامت بصعودها فى الشجرة؛ بل لقد ألقيت البذرة التى أبدعت منها الشجرة، إلى حيث كان مرقدها. الشجرة جاءت من أعلى لا من أسفل.

ما من معنى للهرم الذى تشيده، إن لم يكن بالإله اكتماله. إن الإله

يفيض على القوم بعد أن يغير ما بهم. لك أن تضحى فى سبيل العاهل؛ إذا كان ركوعه هو نفسه للإله. فعندئذ تجنى العائد عليك من خيراتك؛ وقد تغير ما لها من مذاق وما تملكه من جوهر. ولن يعود للمرابى وجود؛ ولا للجزء من التمثال وحده، ولا للمعبد وحده، ولا للتمثال؛ فمن أين سيجىء هذا الجزء، إن لم يكن مصدره البدن بأكمله؟! والبدن ليس تجميعا لأجزاء، بل بمثلما لا يكون الزورق ناتجا عن تجميع لعناصر متنوعة كيفما اتفق؛ وإنما على العكس ينصب بكل ما يظهر عليه فى متنوعات ومتناقضات، نحو البحر عبر مهبط واحد ووحيد: يكون البدن متنوعا بأجزائه، وإن لم يكن تجميعا؛ فإنما لا يكون المضى من المواد الأولية إلى المجموع؛ بل كما سيقولها لك كل مبدع وكل بستانى وكل شاعر: من المجموع إلى المواد الأولية. وإنه يكفينى أن ألهب الرجال بحب الأبراج التى تهيمن على الرمال؛ لكى يبتكر عبيد المعماريين العاملين لدىَّ ـ وعبيد عبيدهم ـ حاملات الأحجار وأشياء كثيرة غيرها.

٥٧

الماسة ثمرة عرق شعب! ولكن الشعب متى عرق! فقد كتبت الصيـرورة لماسـة لا يمكن استهـلاكهـا ولا تقسيمها، ولا أن ينتفـع بها العاملـون جميعـا؛ على حد سـواء. أعلىَّ إذن، أن أعدل عن «صـيد» الماس، وهو النجم الذى يهب من الأرض؟ وإذا عمدت إلى الحى الذى يضم العـاملين لـدىً بسبـك المعادن، واستأصلت منه أولئك الذين طالما عملوا بسبك الأباريق الذهبية (والتى لا يمكـن تقسيمهـا هـى الأخـرى؛ لأن كلا منها تبلـغ قيمتـه حياة آدمى، وإذ الآدمى يعمـل بالسبـك؛ فإن علىَّ أن أغذيه بطعـام مجعـول من حبوب تزرع فى بقعة أخرى. ثم إذا بعثته بدوره ليعمل فى الأرض فلـن يعود للأباريـق الذهبيـة وجـود، بل وستـزيد أعباء تدبـر الحبوب) فهل ستزعم لى أن من نبل الإنسان ألا يستخـرج الماس وألا يعود يسبك مصنوعات من الذهـب؟! فيم ترى أن الإنسـان بهذا سيثرى؟ فيـم يهمنى مصيـر الماس؟! بل أرضى ـ إذا ما تطلب الأمر ـ بأن أقـوم فى كل عـام؛ إرضاء للحشـد الحاسـد أو اتقـاء لشره، بإحراق كل ما حصلته من ماس! وبذا سيستمتعون بيوم عيد! أو حتى باختلاق شريكة لى فى العرش، أكسوها ببريق الماسات! وبذا ستكون لهم ملكة مرصعة بالماس! وعلى هذا النحو سيعمهم بدورهم بريق مصدره الملكة، أو دفء مبعثة بهجة العيد. لكن كيف لك أن تظن أن قيمة تلك

الماسات ستزداد، إذا ما أودعتها متحفا؟! وفى موضع وموعد لن يشهدا استمتاعا بها من أحد، سوى بعض العاطلين الأغبياء، كما لن تعود بالتكريم على أحد، سوى حارس فظ ثقيل!

ذلك أنه سيتوجب عليك أن تقر بأن ما قد كلف البشر وقتا، هو وحده الذى له قيمة؛ مثلما المعبد، وبأن مجد مملكتى ـ الذى سينال كل أمرئ نصيبه منه ـ ما له من مصدر سوى الماس الذى أوجب أنا استخراجه، والملكة التى أجعلها أنا تتحلى به.

ذلك أننى لا أعرف للحرية إلا مدلولا واحدا، وهو تدريب النفس؛ لا المدلول الآخر؛ الذى ليس إلا جديرًا بالسخرية! فمهما ظننت نفسك حرا، فإن عليك أن تلتمس الباب للخروج من الحجرة. لا اختيار أى موضع من الحائط لتخترقه إلى الخارج! ولا كذلك لك الحرية فى العودة إلى الشباب أو فى الاستمتاع بالشمس ليلا! إذا أرغمتك على الخروج من تلك الفتحة لا من أى موضع آخر؛ فستشكو تضييقى الخناق عليك؛ بينما فاتك أنك تقيد نفسك بنفس الفرض؛ إذ لا يوجد سوى باب واحد يمكن فتحه والخروج منه! وإذا أنكرت عليك حق الاقتران بمن تبدو لك أنت جميلة؛ فستشكو طغيانى، بينما فاتك أنهن فى قريتك جميعا ذوات أعين حولاء؛ لأنك لم تر من النساء غيرهن!

لكن تلك التى ستقترن بها، ستشاركك الاستمتاع بتلك الحرية، التى لها هى وحدها معنى، وهو تدريب الروح؛ لأننى فرضت عليها الصيرورة، ولك أنت أيضا صغت نفسا!

فإن الإباحة تنحط بك؛ وإنما «ليس حرا من لا وجود له!»، كما قال أبى.

٥٨

فإننى سأحدثك يوما عن الضرورة، أو عن المطلق؛ وهو المربط الإلهى الجامع بين الأشياء.

ذلك أنه مستحيل التعزى بالمراهنة؛ إن لم تكن المراهنة على شيء حقيقى. وذلك الذى أبعثه إلى البحر آمرا إياه؛ ستتجلى عظمته بتنفيذه أمرى ذاك؛ حتى وإن رأى البحر عاصفا وأحاط بمخاطره علما بعد نظرة شاملة، وأدرك السحب الثقيلة ولم يستهن بها، بل بدت له كأعداء شديدى الشراسة، ولم يفته تموج البحر، واستنشق الريح العاتية؛ وتنبأ بخطورة كل هذا مجتمعا. لكنه فى التزامه بتنفيذ أمرى يتقدم، كأنما إلى عتبة معبد، أمثل أنا له القبة؛ ولا ينحرف، شأن المشاهد ـ الملول ـ لأحد عروض المهرجانات السنوية.

لكن غيره، الخارج علىَّ: يبغى زيارة للبحر مثل النزهة. ويريد أن يجول كما يهوى وأن يعود أدراجه متى شاء. هذا لن تفتح له أبواب المعبد؛ ولن تبدو له السحب الثقيلة إلا كلوحة مرسومة (لا كمحنة لها أهميتها فى حياته)، ولا الريح العاتية إلا كملاطفة هينة (لا كتغير مناخى) ولا نذير التموج إلا كتذكير بالغثيان.

ولهذا؛ فإن ما أسميه «الواجب»؛ وهو المربط الإلهى الجامع بين

الأشياء، لن ينشئ مملكة ولا معبدا ولا دارا ما لم يعرف على حقيقته كضرورة مطلقة لا كلعبة تتغير قواعدها في كل حين.

قال أبي: «ستميز الواجب من غيره، بكون اختياره لا يرجع إليك أنت أولا».

لذا، يخطىء أولئك الذين يبتغون الإعجاب؛ ولكي يعجبوا الآخرين يجعلون أنفسهم بالغى الدماثة، مسارعين إلى تلبية ما يطلب منهم، بل وقد يرتكبون الخيانة ويتخلون عن كل شيء ليرضوا غيرهم. لكنهم ـ في عرفي ـ كالمخلوقات البحرية الرخوة التي بلا عظام ولا شكل؛ جدير بالمرء أن يتقيأها ويعيدها إلى أغوارها المبهمة، قائلا: «لا يعودن أي منكم لرؤيتي إلا بعد أن يكتسب صلابة!».

كذلك، فإن النساء أنفسهن يسأمن من يحبهن؛ إذا قبل أن يجعل في نفسه صدى ومرآة؛ مبالغة منه في التعبير عن حبه! فما من أحد تعوزه نفس صورته. لكن موضع التطلع هو ذاك الذي جعل من نفسه مركزا لقلعة تعلو أبراجها إلى السماء؛ فيزور ويزار.

هذا الذي تفخر به المملكة، تقترن به المرأة وتجعل من نفسها خادمة له.

٥٩

إذن، فقد حضرتنى هذه الملاحظات عن الحرية:

عندما صار أبى بمماته جبلا وحجب الأفق عن البشر؛ استيقظ المناطقة والمؤرخون والنقاد؛ وقد نفخت فيهم روح الأقوال التى سبق أن فرض عليهم أبى كتمانها! واكتشفوا أن الإنسان جميل.

حقا، إنه جميل؛ لأن أبى قد أسسه.

وتصايحوا، قائلين: «بما أن الإنسان جميل؛ فمن الواجب تخليصه؛ لأن تألقه لم يزل محجوبا، ومتى تحرر فإنه سيزدهر، وكل فعل يأتيه سيكون رائعا.».

وأنا ـ السائر ليلا فى مزارعى التى أقيم فيها جذوع أشجار البرتقال وأشذب أغصانها ـ لى أيضا أن أقول «إن أشجارى جميلة ومثقلة بثمار البرتقال. إذن، فلم يشذب من الأغصان بعضها وإن أمكن أن يحمل بدوره ثمارا؟ ينبغى تحرير الشجرة؛ ومتى تحررت؛ فإنها ستكبر وتعلو؛ لأن الحاصل هو أن تألقها قد حجب.».

إذن، فقد حرروا الإنسان، ووقف الإنسان مستقيما؛ لأنه خلق مستقيما. وعندما ظهر رجال الشرطة الذين جاهدوا لإخضاع الأنام لفروضهم؛ مدفوعين بحاجتهم الفظة إلى السيطرة، لا حرصا على النسيج الذى

يستحيل رأبه متى انقطع: تمرد الذين حجب تألقهم، وتوهجوا ـ بعشقهم للحرية ـ فى كل أنحاء الوطن، فكأنما شب حريق. معنى الحرية لديهم تمثل فى حرية التجمل، وعندما ماتوا فى سبيل الحرية؛ ماتوا فى سبيل جمالهم، وازدادوا بموتهم جمالا.

كلمة الحرية اكتسب رنينها نقاء لا يدانيها فيه رنين البوق.

على أننى تذكرت كلمات أبـى: «إن حريتهم هى حرية عدم الوجود!».

فها هم الباقون على قيد الحياة يغدون من غوغاء الميادين. فمتى اتخذ كلٌ قراره على هواه؛ فإن الأفعال تتناقض فيما بينها ويخرب كل منها الآخر، وإذا جاء كل ـ ومعه طلاؤه الأثير ـ إلى نفس الشىء المطلوب طلاؤه؛ فإن واحدا سيطليه باللون الأحمر، والآخر بالأصفر، وثالث بالأزرق؛ ولا يعود للشىء لون! إذا ما انتظم الموكب واختار كل مشارك فيه وجهة لنفسه؛ فستنثر الريح ذلك الغبار، ولن يعود للموكب وجود. وإذا ما قسمت سلطتك ووزعتها على الجميع؛ فلن يعود عليك هذا بدعم سلطتك تلك، بل بتفسخها. وإذا ما اختار كل مكلف بالعمل فى بناء المعبد موقع المعبد، وذهب إليه بحجر يحمله؛ فلن يوجد عندئذ معبد، بل سهل حافل بالأحجار! فإن الإبداع واحد، والشجرة ما هى إلا الانبثاق من بذرة واحدة. ويقينا أن كل شجرة ظالمة! فقد آثرت إن تنمو من بذرة واحدة فقضت على آمال سائر البذور، كما تقضى المحبة لرجلها على آمال مئات من الرجال اختارته وحده من بينهم.

ذلك أننى أحكم على السلطة بأنها طموح أحمق؛ إذا ما كانت حبا للسيطرة. أما إن كانت عمل المبدع وممارسة للإبداع، إن راحت تعاكس ذلك المنزلق الطبيعى (الذى فيه تختلط المواد وتذوب جبال الثلج فتكون

مستنقعات، وتتفتت المعابد على مر الأزمان، وتتشتت حرارة الشمس فى فتور رخو، وتستهلك صفحات الكتاب ويتفكك من غلافه، وتختلط الألسنة وتنحط اللغات، وتتساوى السلطات وتتوازن الجهود، وينكسر كل بناء إلى مجموع غير متجانس؛ بينما نشأ هو أصلا عن المربط الإلهى الذى يجمع بين الأشياء)؛ فهذه السلطة أمجدها؛ فإنها مثل شجرة الأرز التى تجتذب الحصى من الصحراء، تغوص بجذورها فى تربة لم يعد يسيرا أن تستمد منها عصارة مخصبة، وتأسر فى فروعها شمسا، متى تركت لراحت تشتبك بالجليد ليفسد الاثنان معا!! ولكنها متى استعادتها الشجرة إلى الصحراء المستعصية على كل تحول.. الصحراء التى توزع فيها قليلا قليلا كل شيء واستوى وتوازن ـ بدأت بأشعتها تتواطأ مع الشجرة فى ظلمها!! الشجرة التى تسمو عن الصخر والحصى، وتنشئ تحت الشمس معبدا، وتشدو فى الريح مثل قيثارة، وتعيد الحركة إلى حيث ساد السكون!

فإنما الحياة هيكل، وخطوط دفاع، وظلم!! ألا تذكر لجوءك إلى إخضاع أطفال لفروضك؛ لأنك رأيتهم ملولين؟ وما فروضك إلا قواعد مباراة؛ وما إن خضع لها الأطفال إلا ورأيتهم يتواثبون ويستكملون السباق!!

إذن، فإن الحرية لا تعود سوى توزيع للمئونات بمساواة متسمة بالحقد؛ متى انعدمت الحاجة الحقيقية إليها.

فإنما بالحرية تصادم جارك ويصادمك، وحالة الاستجمام التى تبلغها بها، هى حالة الفوضى المستقرة لا حالة السكون الثابتة؛ ومن ثم، تؤدى الحرية إلى توازن هو أشبه بالموت. أليس من الأفضل أن تحكمك الحياه وأن تصطدم بخطوط دفاع الشجرة المقبلة؛ وكأنها عقبات؟ فإن الفرض الوحيد الذى ينغص عليك ـ والذى يجب أن تمقته ـ هو الذى تظهره لك

شراسة جارك الحاقد عليك، وغيرة قرينك منك، وأى محاولة لمساواتك بالبهائم. تلك فروض ستغوص بك فى أوساط الصعاليك. لكنك ـ أنت وغيرك من الناس ـ متى صار صعودك هو صعود الشجرة، فما أهون الطغيان! وما أسخف ما يردد عنه باطلا؛ من كلمات تذروها الريح.

إذن، فقد جاء حين من الدهر لم تعد فيه الحرية حرية الجمال الإنسانى، بل تعبيرا عن الحشد؛ ذلك الحشد الذى يتمتع بالحرية لأنه بلا وجهة، بل يثقل فحسب، ويظل فى مكانه؛ وقد انصهر داخله الإنسان حتما. وهو ما لم يمنع من إطلاق اسم «الحرية» على حرية الفساد تلك، واسم «العدالة» على ذلك الفساد!!

جاء حين من الدهر، فيه خلت من دلالتها الشجية كلمة «الحرية»، تلك الكلمة التى طالما شابه رنينها دوى البوق؛ بينما راودت البشر أحلام مبهمة، ببوق جديد، يوقظهم دويه ويحفزهم على التشييد.

ذلك أن صوت البوق، لا يكون جميلا إلا متى أيقظ البشر من نومهم.

إلا أن الفرض الذى له ـ وحده دون غيره ـ قيمة، هو ذلك الذى يخضعك للمعبد وفقا لما لك من دلالة؛ فإن الأحجار ليست لها الحرية أن تفعل ما تشاء، وإلا لما وجد ما تعطيه دلالة وما تتلقى منه مثلها. إنه الفرض الذى يخضعك للبوق عندما يبعث منك من هو أعظم منك؛ لينهض بك. وقد رضى بالفروض أولئك الذين ماتوا فى سبيل الحرية، عندما مثلت وجها لهم أعظم منهم، ومسيرة لما فيهم من جمال، وهبوا ليلا فور سماع البوق؛ لا أحرارا فى مواصلة النوم أو فى ملاطفة نسائهم، بل مأمورين! ومن يقضى عليه بفرض ما ـ لا يهمه أن يعرف أين يوجد من هو رقيب عليه؛ إن كان قريبا أو بعيدا.

وإن كان قريبا، فإننى أعلم أنه كان من قبل بعيدا، بمثلما أعلم أن معنى الشرف لديك مصدره أن حزم أبيك جعلك تشب وفقا للشرف قبل أى شيء.

وإذا كنت أعنى بالفرض، نقيض الإباحة ـ التى للتدليس ـ فإننى لا أود أن يكون الفرض بواسطة شرطتى؛ فقد لاحظت وأنا أتنزه ـ مجللا بصمت حبى ـ أولئك الأطفال الذين حدثتك عنهم؛ فرأيتهم خاضعين لقواعد المباراة التى يلعبونها، ولا يدلسون، وإلا انتابهم الخزى، وهذا؛ لأنهم يعرفون للمباراة وجها. وأنا أتخذ هذا الاسم لما يولد من المباراة. إن حماسهم واستمتاعهم بما يحلونه من مسائل، وجسارتهم الصبيانية؛ كل هذا يجتمع على إيثارهم تلك المباراة على غيرهم، وكأنها المنشىء لهم؛ وبها تكون صيرورتهم. ذلك أن كل مباراة تختلف عن غيرها فى كيفية تأثيرها فى لاعبيها؛ ومن يريد أن يغير ما بنفسه عليه أن يغير ما اعتاد لعبه من مباراة. لكن متى وجد المرء نفسه قد اكتسب ـ بفضل لعبة مباراة ما ـ عظمة ونبلا؛ فإنه يكتشف أنه إذا ارتكب تدليسا؛ فقد دمر بالتحديد هذين اللذين لعب المباراة فى سبيلهما: العظمة والنبل، وهو عندئذ لا يدلس؛ ويفرض عليه الحب وجها.

ذلك أن ما يؤسسه الشرطى هو تشابه الواحد من الناس بالآخر، وأنَّى له أن يبصر ما هو أسمى؟! النظام فى عرفه هو نظام المتحف الذى يتم ترتيبه. أما أنا فلا أؤسس وحدة المملكة على تشابه الواحد من الناس بجاره؛ بل على تماسك ـ كذلك الذى فى المعبد بين العمود والتمثال ـ بين الواحد والآخر فى المملكة، التى هى وحيدة وواحدة.

الفرض الذى أقيمه هو تكريم للحب!

٦٠

إذن، فإنك إذا حكمت بالسجن وفقا لفكرة مسبقة، وحدث أن سجنت الكثيرين (وربما ستستطيع أن تسجنهم جميعا؛ فإن فى كل منهم شيئا مما تدينه، كالرغبات المحرمة على سبيل المثال؛ وعندئذ فإن القديسين أنفسهم سيزج بهم فى السجون !!)؛ فإن دلالة هذا هى أن فكرتك المسبقة تلك، ما هى إلا وجهة نظر قاصرة عن الحكم على البشر، كأنها هضبة محظورة دامية تفصل ـ ظلما ـ بين المواطنين، وترغم حاكمهم على جعل المستهدف بفعاله هو الإنسان نفسه؛ إنها قاصرة؛ لأن الجانب النبيل فيمن يدان، قد يكون كبيرا. لكنك تستحقه.

رجال شرطتك الذين هم بالضرورة أغبياء، وبحكم وظيفتهم التى لا تتوقع أنت من شاغلها بصيرة، بل على العكس تماما، تأبى عليه الحق فى ذلك؛ فإن المعول عليه بشأن أمثاله، ليس الإدراك والحكم، بل التمييز وفقا لإشاراتك ـ أولئك إذا تلقوا ـ على سبيل المثال ـ تعليمات بأن يضعوا فى فئة الأسود، لا الأبيض (فإنه لا يوجد فى عرفهم إلا لونان لا ثالث لهما) هذا الذى يدندن حينما ينفرد بنفسه، أو ذاك الذى تزعزعت عقيدته يوما ما، أو غير هذا وذاك ممن تثاءبوا وهم يعملون بالأرض، أو من هم ـ على أى نحو كان ـ فكروا، أو تصرفوا، أو أحبوا، أو أعجبوا بأى شىء كان، أو أعرضوا عن أى شىء كان؛ فعندئذ تستهل حقبة شنعاء فيها تجد نفسك

منذ البدء محاطا بشعب من الخونة، لن يكفيك عدد من تضرب أعناقهم منه؛ ولن يكون من حولك سوى حشد من المشبوهين، ومن الجواسيس يكون شعبك؛ لأنك اخترت أن تطبق أسلوبا من التقسيم غير متجاوز للبشر ـ من قبيل ذلك الذى يصنف البعض فى ناحية والبعض الآخر فى أخرى؛ وبذلك يحقق الشفافية ـ بل يخترق الإنسان نفسه؛ مفرقا بينه وبين نفسه، جاعلا منه جاسوسا على نفسه؛ ومرتابا فى نفسه، وخائنا لنفسه! فإن من حق كل إنسان أن تتزعزع عقيدته يوما ما.. يوما فيه زادت الحرارة حتى لم يستطع مجىء الليل أن يبددها! ومن حق الإنسان أن يتثاءب وهو يعمل بالأرض، أو أن يختلف تفكيره أو فعله أو شعوره بالحب أو بالحقد على أى نحو كان، أو ذلك الذى بالإعجاب بأى شىء كان، أو بالإعراض عن أى شىء كان. فإنما الإنسان يحيا؛ ولن يبدو لك قديسا معصوما، وقدوة إلا ذلك الذى لن تكون أفكاره بوادر من فؤاده؛ بل أشبه بمعروضات فى متجر ـ للعاديات ـ جدير بالسخرية.

وبما أنك تطلب إلى رجال شرطتك أن ينقبوا فى كل امرئ عما يعيبه؛ فإنهم سيبدون تلهفهم على هذا وسيكتشفون فى كل امرئ ما يعيبه؛ بما أن كل إنسان ـ أصلا ـ يعيبه أمر ما! وسيفزعون من مدى تفشى الشر؛ ويفزعونك!!

٦١

إذن، فقد خطر لى مفهوم السلب، الذى طالما فكرت فيه وإن دون أن يلهمنى الإله تمام الوعى به. ويقينا أنه لم يغب عن ذهنى أن السالب هو الذى يخرق الأسلوب بالغا؛ لكى يستخرج منه ما يستعين به. وهذا الذى يخرج به، يستحق الثناء فى حد ذاته؛ فقد سمح به الأسلوب نفسه؛ وهو الذى تأسس لكى يستطيع الناس تناقل بوادرهم الداخلية عبره. لكن الحاصل أن البعض يحطم الأداة التى يستخدمها فى النقل؛ بحجة التنويع فى أساليب استخدامه لها، على غرار ذلك الذى يقتل أتانه بالإثقال عليها بأحمال لا تطيق السير بها، فى حين أنه إذا أحسن قياس أحماله؛ فسيستطيع تدريب دابته على ما هو مطلوب عمله منها، وستؤديه بإتقان يفوق ذلك الذى أدته به سلفا. إذن، فإن الذى يكتب منتهكا القواعد، أقصيه! فليجاهد ـ بقدر استطاعته ـ لكى يعبر عن نفسه وفقا للقواعد؛ فعندئذ، سوف يؤسس القواعد، وليس قبل أن يقوم بذلك!

إلا أن الحاصل أنه حينما تكون الحرية حرية الجمال الإنسانى؛ فإن ممارستها تكون سلبا، كأنما لمئونة. ويقينا إن المئونة لا تجدى فى شىء حين تلزم مكانها؛ كما لا يجدى جمال ما يصب فى قالب ـ قيمته ـ ما لم يحدث فى أى وقت أن أخرج من القالب إلى الضوء. جميل أن تؤسس المستودعات لكى تودع فيها الحبوب؛ ولكن ما من معنى لها إلا إذا اعترف

من حبوبها ما يبذر فى الشتاء. ومعنى المستودع هو نقيض المستودع، الذى هو الموضع الذى يحتوى فى داخله؛ فيصير الموضع الذى يؤخذ منه إلى الخارج. لكن السبب الوحيد فى التناقض هو اللغة الخرقاء؛ ذلك أن الإدخال أو الإخراج بعضٌ من كلمات تتعابث، بينما لا يعدو الأمر إحكام السيطرة على الأقوال، واستيعاب ما بينها من تناقضات، وتأسيس دلالة المستودع باعتباره معيارا للمستودعات؛ وألا يقول المرء: «هذا المستودع موضع أضع فى داخله»، وإلا أجابه أحد المناطقة بقوله عن حق: «هذا هو الموضع الذى أخرج منه»!!

كذلك، فإن حريتى ليست إلا استخدام ثمار ما فرض على. والذى له وحده القدرة على تأسيس شىء يستحق أن يخلص. وأنا أصف بالحرية من أراه وهو يعانى التعذيب! بما أنه يأبى أن يرتد، وبما أنه يقاوم فى نفسه ما يأمر به الطاغية وجلادوه، وأيضا أصف بالحرية من يقاوم المشاعر الفظة؛ فإننى لا أستطيع أن أعد حرا من يجعل من نفسه عبدا يلبى كل ما يطلب منه؛ إذ بلغ الأمر وصف حرية المرء فى جعل نفسه عبدا، بأنها حرية!!

ذلك أننى إذا أسست الإنسان استولدت منه مجهودات الإنسان، وإذا أسست الشاعر استولدت منه قصائد، ومن أجعله ملاكا أستولد منه أقوالا مجنحة، وخطى ثابتة كخطى الراقص.

٦٢

إن حراس سجونى هم أعرف بالناس من علماء الهندسة فى مملكتى!! ما عليك إلا أن تستثيرهم لكى تتأكد من هذا. كذلك بشأن حكم مملكتى؛ وفى هذا قد أتردد بين قواد جيوشى وبين حراس سجونى، ولكننى لن أتردد بين أى من الفئتين وبين علماء الهندسة!

ذلك أن الأمر لا يتعلق بالمقاييس، ولا بالخلط بين فن المقاييس وبين الحكمة؛ وهى «معرفة الحقيقة»، كما يقولون! أجل: «المعرفة بحقيقة تتيح المقاييس»؛ ويقينا أن المرء يستطيع فى تعثره أن يستعين بهذه اللغة المفتقرة إلى الدقة؛ لكى يحكم! وليعتنى - أكبر اعتناء - برفع مقاييس مجردة ومعقدة لأمكنه - بأثقل القليل - القيام بها؛ إن عرف كيف يرقص، أو كيف يراقب السجون!! فإن نزلاءها أطفال، وكذلك سائر البشر!

٦٣

تحلقوا حول أبى، وقالوا: «إن لنا أن نحكم البشر؛ نحن الأعلم بالحقيقة!».

هكذا تكلم شراح علماء الهندسة بالمملكة. وأجابهم أبى، قائلا: «إنكم تعرفون حقيقة تعلمتموها من علماء الهندسة»، فقالوا: «وإذن؛ أفليست هى الحقيقة؟».

قال لهم أبى: «كلا.».

ولى قال أبى: «إنهم يعرفون حقيقة مثلثاتهم وأرقامهم، وغيرهم يعرفون حقيقة الخبز: إذا أسىء عجنه صعب تكويره، وإذا زادت درجة حرارة الموقد عما يلزم؛ احترق الخبز! وإذا قلت السخونة عن اللازم؛ فإن العجين يتلاصق. ورغم أن الخبز يخرج من بين أيدى من يحسنون صنعه، طيب المذاق متقصفا بين الأسنان؛ فإن أولئك لا يلتمسون منى حكم المملكة.».

وأجبته، قائلا: «ربما صدق قولك على شراح علماء الهندسة، لكن يوجد مؤرخون ونقاد. هؤلاء قد فسروا أفعال البشر. إنهم أعلم بالإنسان.».

قال أبى: «أنا أوثر أن أفوض فى حكم المملكة ذاك الذى يؤمن

بالشيطان؛ فمنذ الأحقاب الطويلة التى استغرقها نفوذ تأثير معبوده فيه: قد اكتسب هو ـ بلا أدنى شك ـ خبرة بتصريف أمور البشر مهما بلغ سلوكهم من غموض. لكن ما لا شك فيه هو أن الشيطان لا يجدى شيئا فى شرح العلاقات التى بين الخطوط؛ ولذا، لا أتوقع من علماء الهندسة أن يظهروا لى الشيطان فى مثلثاتهم، وليس فى مثلثاتهم أى مما يمكن أن يجدى فى إرشاد البشر.».

قلت: «أنا لا أفهمك! أفأنت إذن، تؤمن بالشيطان؟».

قال أبى: «كلا»؛ ولكنه أضاف قوله: «فماذا يعنى الإيمان؟ إذا آمنت بأن الصيف ينضج الشعير، فما للذى قلته من قيمة ولا هو قابل للتنفيذ؛ بما أننى أولا قد أطلقت اسم «الصيف» على الموسم الذى فيه ينضج الشعير، وكذلك بشأن أى مما يحتمل أن أنعت به الواحد أو الآخر من سائر الفصول. لكننى إذا استخلصت من الفصول حقائق بشأن نسبة أى من الأشياء إلى غيره، كمعرفتى بنضج الشعير فى آوان يسبق ذلك الذى ينضج فيه الشوفان؛ فسأومن بهذه النسبة أو بتلك؛ بما أنها كائنة. إن الأشياء المترابطة فيما بينها لا تهمنى إلا قليلا! إنما كانت استعانتى بها كمثل شبكة لاقتناص الفريسة!».

وأضاف أبى قوله «إن فى هذا ما يشبه أمر التمثال. أتظن أن ما يقوم به المبدع هو محاكاة فم أو أنف أو فك؟ كلا يقينا! بل هو دوى تحدثه أشياء من هذا القبيل؛ فى ارتطامها بعضها بالبعض. ذلك الدوى الموحى ـ على سبيل المثال ـ بالألم الإنسانى، والذى ـ بالإضافة إلى هذا ـ يمكنك سماعه؛ لأنه بالمربط الجامع بين الأشياء يكون تواصلك، لا بالأشياء ذاتها أو بأى منها منفردا.

إن الهمجى هو وحده الذى يظن مكمن الصوت فى الطبول؛

والهمجى يقـدس الطبول! ويظن آخر فى الأعواد مكمنه؛ ويقدس الأعواد! ولا تنسين ذلك الذى يظن الفضل فى الصوت راجعا إلى ذراعه؛ وتراه يطوح بها مختالا وأنت تقر بأن الصوت ليس فى الطبل ولا فى الأعواد ولا فى الذراع؛ وما يقوم به قارع الطبول من قرع، تطلق عليه اسم «الحقيقة».

إذن، فإننى لا أرضى بشراح علماء الهندسة على رأس مملكتى؛ إن هؤلاء يقدسون ـ بمثل الوثن ـ كل ما أستعين به فى البناء!! ولأن للمعبد سطوة تنخلع لها قلوبهم؛ فإنهم يعبدون أحجاره!! سيجيئون لحكم البشر بحقائقهم التى لا تصلح إلا للمثلثات!».

إلا أننى انتابنى حزن؛ وقلت لأبى: «لا توجد حقيقة إذن!».

وأجابنى أبى، مبتسما: «إذا أفلحت فى أن تعرب لى عما تعرفه عن احتمال إنكار الإجابة على أى من التطلعات إلى المعرفة؛ لبكيت أنا أيضا مما يعوقنا فى عجز! بيد أننى لا أدرك ما تزعم لى أنك توصلت إليه. إن ذلك الذى يقرأ رسالة غرام؛ يعد نفسه راضيا، أيا كان الورق ـ الذى كتبت عليه الرسالة ـ أو المداد الذى سطرت به. ما هو بباحث عن الحب فى الورق ولا فى المداد. متى أدركت المعانى؛ فما لوسائل إدراكها من أهمية تذكر!».

٦٤

هذا ما حدث عندما قمت بجولة؛ فوجدت أحد حراسى نائما.

فإن هذا وجب أن يعاقب بالموت؛ بما أن الاعتماد فى أمان المواطنين ـ وفى استغراقهم فى نوم هادئ به ينتظم تنفسهم ـ هو على يقظة الحارس، عندما تغذوهم الحياة وتتواصل من خلالهم؛ بمثلما يستشعر اضطراب أمواج البحر العاتية فى مياه الخليج الصغير، وعليه ـ أيضا يعتمد أمان المعابد المقفلة، وبها الكنوز القدسية التى استغرق جمعها وقتا طويلا، (كالذى يستغرقه من النحل جمع العسل! أى جهد، وأى إعمال للمطارق، وأى نقل للأحجار! أى إعمال لأدوات الحياكة، واستهلاك لأعين وأيد تدفع بالإبر فى الأقمشة؛ كى تزينها بخيوط من ذهب، وتعيد ترتيبها بجمال مبعثه التقوى!) وأمان مستودعات القمح التى تحفظ المئونات حتى يستطاع تحمل الشتاء، والكتب المقدسة؛ وهى مستودعات الحكمة التى تحفظ للإنسان ذخره، والمرضى الذين أخفف عنهم آلام الموت؛ وفقا للعرف الذى جرى عليه أسلافهم؛ فأهون عليهم لكيلا يعذبهم استخلافهم الجيل التالى. أيها الحارس.. أيها الحارس! أنت من يكسب الأسوار معناها كمعاقل لجسد المدينة المرهف: تحميها من التبدد؛ لأن ثغرة واحدة لا تبقى فى الجسد أى دماء؛ متى ثقبت الأسوار. أنت تمضى جيئة وذهابا ـ أولا ـ ترهف سمعك للغط الصحراء؛ الصحراء التى تعد عتادها، وبلا

كلل ترتد عليك لتلطمك كما تفعل الموجة العاتية؛ وتشكلك وتكسبك صلابة فى نفس الوقت الذى تهددك فيه. فإنه ما من تمييز لما يدمرك مما يؤسسك؛ لأن نفس الريح تشكل الكثبان وتمحوها، ونفس الموج يشكل صخور الشاطئ ويهدمها، ونفس المشقة تلهم نفسك تقواها أو تذهب عنها رشدها، ونفس الجهد قد يهبك الحياة أو ينزعها منك، ونفس الحب المشبوب يزكى فؤادك أو يقضى عليك وعدوك هو كقالب تشكل فيه نفسك؛ لأنه يفرض عليك بناءك نفسك داخل أسوارك. وبالمثل لنا أن نقول عن البحر: «إنه عدو السفينة؛ بما أنه مهيأ لاحتوائها، وأن السفينة هى ـ قبل كل شىء ـ نضال ضده، وإن جاز القول عنه ـ أيضا ـ إنه سد وحد لنفس السفينة، وقالب فيه تتشكل؛ بما أن الجيل من السفن تلو الجيل، قد تشكل فيه البدن ـ بدن السفينة ـ بفعل شق صدرها الأمواج تباعا، فزاد انسجام البدن فى انسيابه؛ وإذن؛ فإن البحر هو مؤسسه ومكسبه جماله، ولنا أن نقول: «إن الريح التى تمزق الأشرعة هى التى تفسح لها، مثلما للأجنحة، وإنك إذا كنت بلا عدو؛ فلا شكل لك ولا أبعاد. وما الذى ستكونه الأسوار إن لم يوجد حارس؟».

لذا، فإن من ينام (أثناء نوبة حراسته) يجعل المدينة عارية؛ ولذا يقبض عليه عندما يكتشف نائما؛ كى يجعل نومه أبديا!

لكن ها هو الحارس قد نام، مسندا رأسه إلى الحجر المنبسط، وفمه منفرج قليلا، ووجهه وجه طفل. وهو يظل ممسكا ببندقيته ملتصقة به، كما يتمسك الطفل باصطحابه لعبته إلى حلمه. وبتأملى إياه؛ استشعرت الشفقة؛ فإننى فى الليالى الحارة أشفق على أولئك الذين بهم عجز.

عجز الحراس مرجعه إلى الهمجى الذى يغشيهم النعاس؛ فتهزمهم الصحراء ويسهل فتح البوابات ببطء فى الصمت؛ تدور على محاورها

إلى الخلف؛ لكى يتم إخصاب المدينة وهى مجهدة وبحاجة إلى الهمجى!!

أيها الحارس النائم! أنت طليعة العدو!! فإن نومك يعنى انتهاء انتمائك إلى المدينة، وانفصام صلتك بها، ونهاية ما فيك من ثبات، وانتظارك تحولا يطرأ عليك، وانفتاحك لنطفة تغير ما بك.

وإذن، فقد حضرتنى صورة المدينة وقد تمزقت لسبب وحيد؛ هو نومك أنت أيها الحارس، فإنما بك يلتئم كل شىء، وبك يتمزق. ما أجملك وأنت ساهر! وللمدينة سمعك وبصرك، وما أنبلك وأنت واع، تتفوق بحبك وحده على المناطقة وما يملكونه من ذكاء؛ فإنهم لا يفهمون المدينة بل يقسمونها: فى عرفهم أن سجنا هنا ومستشفى هناك، وفى موضع آخر دار أصدقاء لهم؛ وهذه نفسها يدركونها مقسمة.. فيرون فيها هذه الحجرة وتلك، بل والحجرات ـ أيضا ـ يرون فى كل منها هذا الشىء وذاك، وغيرهما بعد، ثم الشىء نفسه يمحونه. وما الذى سيفعلونه بهذه المواد التى لا يريدون أن يشيدوا بها شيئا؟!.

أما أنت أيها الحارس، فإنك عندما تسهر تعقد صلة بالمدينة؛ التى اؤتمنت النجوم عليها. لا بهذه الدار ولا بتلك، ولا بهذا المستشفى ولا بذاك القصر؛ بل بالمدينة لا بحسرة ذاك المحتضر ولا بتلك الصيحات التى بعثتها من امرأة آلام المخاض، ولا بصرخة ذاك الوليد؛ بل بزفير متنوع يبعثه بدن واحد.. بل بالمدينة؛ لا بسهر هذا ولا بنوم ذاك، ولا بشعر هذا ولا ببحث ذاك؛ بل بهذا المزيج من الحمية والنوم.. بنار تحت الرماد الذى تعلوه المجرة، بل بالمدينة. أيها الحارس.. أيها الحارس! إن أذنك بلصق صدر محبوبة؛ تسمع ذاك الصمت، وذلك الاعتكاف وتلك الزفرات

المتنوعة التى ينبغى عدم تقسيمها إذا ما أريد الاستماع؛ فإنما هى دقات قلب، والتى هى دقات القلب ولا شىء غير ذاك.

أيها الحارس! إذا ما سهرت فإنك نظير لى؛ لأن المدينة تعتمد عليك، وعلى المدينة تعتمد المملكة. يقينا أننى أقر ركوعك لحظة مرورى بك؛ فإن هذا هو مسار الأمور، وحيوية الشجرة من الجذور إلى الأوراق. وحسن أن يسير إجلالك لى صاعدا إلى؛ فإنه دورة الدماء فى المملكة، مثل الحب المتبادل بين العروسين.. مثل لبن الأم ترضعه للطفل.. مثل إجلال الشباب للمشيب. إلا أنه مخطىء من يقول إن فى ذا تلقيا لعطاء؛ فإننى أنا أخدمك أولا!.

لذا، فعندما أرى قامتك وأنت متوكئ على سلاحك، يا نظيرى، (فمن ذا الذى يملك أن يميز القبة من أحجار القاعدة، ومن ذا الذى يمكن أن يظهر غيرته على أى منهما دون الأخرى؟) يخفق قلبى حبا؛ إذ أنظر إليك، دون أن يوجد أى مما يمكن أن يحول بينى وبين جعلى رجال شرطتى يقبضون عليك.

فها أنت تنام. أيها الحارس النائم.. أيها الحارس الميت! وأنظر إليك بفزع؛ فإنما بك تنام المملكة وتموت؛ فإنه لنذير شؤم، أن يفد علىَّ حراس كى يناموا.

وأقول فى نفسى: «يقينا أن الجلاد سيقوم بمهمته ويجعل نوم هذا أبديا..»، لكن شفقتى جعلت نزاعا مستجدا غير منتظر، يتسلط على؛ فإنما هى الممالك القعساء وحدها التى تدق أعناق الحراس النائمين، ولكن تلك التى لا يعود يفد منها إلا حراس نائمون؛ لا يحق لها بعد دق أى عنق. فإن من المهم فهم الانضباط تمام الفهم، ليس بدق أعناق الحراس

النائمين إيقاظ الممالك، وإنما تدق أعناق الحراس النائمين متى أوقظت الممالك. وهنا ـ أيضا ـ يقع الخلط بين العلة والمعلول؛ ويريد من يرى الممالك القوية تدق الأعناق، أن يستمد لنفسه قوة من دقها؛ فلا يفلح إلا فى أن يكون مضحكا سفاحا للدماء!!

لا بد من تأسيس الحب لتأسيس حزم الحراس، ولإدانة من منهم ينامون؛ صلة هؤلاء بالمملكة، قد قطعت من قبل أن تقطع رقابهم.

لا يوجد ما يسيطر عليك سوى انضباط مبعثه قائدك المباشر، والذى يراقبك. والقواد المباشرون لا انضباط لهم ـ إن ارتابوا فى أنفسهم ـ إلا بفضل ذلك المنبعث إليهم من قوادهم، والذين يراقبونهم. وقوادهم مثلهم يستلهمون الانضباط من قوادهم هم، وهكذا حتى إياى، أنا الذى لا يحكمنى إلا الإله، والذى أظل ـ إذا ارتبت ـ شاردا فى الصحراء.

لكننى أروم البوح لك بسر هو المتعلق بالدوام؛ فإن حياتك ـ متى نمت ـ تتعطل، لكنها بالمثل تتعطل عندما تحضرك هذه الغيوم التى تأخذ بقلبك؛ وفيها سر ضعفك. إذ إن شيئا من حولك لم يتغير؛ وفيك أنت قد تغير كل شىء. وإذا أنت قبالة المدينة ـ أيها الحارس ـ ولكن دون أن تضع رأسك على صدر محبوبتك (تتسمع دقات القلب التى لا تميزها من صمتها ولا من أنفاسها؛ فليس أى من الأشياء إلا علامة على المحبوبة التى هى واحدة)، بل تضل بين أشياء مبعثرة لا تعود تعرف كيف توحدها، خاضعا لأصداء الليل المتناقضة فيما بينها.. لشدو ذلك الثمل؛ الذى ينكر شكوى العليل.. لذلك النواح حول ميت، الذى ينكر صرخة الوليد.. لذلك المعبد الذى ينكر ضجة السوق. وتقول فى نفسك: «ما حاجتى إلى كل هذه الفوضى وهذا المشهد المتباين؟». ذلك أنك إن لم تعد تعرف أن فى هذا

الموضع شجرة؛ فإن الجذور والجذع والأغصان والأوراق لم يعد بينها قاسم مشترك. وكيف ستكون مخلصا إن لم يوجد من تخلص له؟ وأعلم عنك أنك لن تذوق النوم إن كنت ساهرا على مريض توليه محبتك. لكن من أمكن أن تحبه قد أغمى عليه وصار موادا مبعثرة.

فقد انحل المعقد الإلهى الجامع بين الأشياء.

لكننى أريدك مخلصا لنفسك؛ عالما أنك ستئوب. لا أطلب إليك أن تفهم ولا أن تشعر فى كل لحظة ـ أنا البالغ العلم ـ بأنه حتى الحب المنتشى على أقصاه لا يبلغ إلا بعد اجتياز ربوع فى باطن الإنسان جرداء. وأنت قبالة المحبوبة نفسها تتساءل: «إن لها جنبا مثلما لسائر الناس؛ كيف لى أن أحبها؟ إن لها هذا الصوت بعينه. هنا فاهت بهذه الحماقة، وهنا ارتكبت هذه الهفوة..» إنها جمع يتفكك ولا يعود قادرا على إمدادك، وسرعان ما تظن أنك تمقتها، لكن كيف ستمقتها؟ إنك غير قادر حتى على الحب!

إلا أنك تصمت؛ لأنك تدرك عبر الغيوم أن الأمر لا يعدو نعاسا. إن ما يصدق ـ فى هذه اللحظة ـ على المرأة، يصدق على القصيدة ـ التى قرأتها ـ أو على الضيعة أو على المملكة. تعوزك القدرة على أن تنهل وتكتشف المرابط الإلهية الجامعة بين الأشياء؛ وفى ذا ـ أيضا ـ محبة ومعرفة أنت يا حارسى النائم، سوف تستجمع ما أحببت، كأنه جزاء تناله، لا بعض ما أحببت، بل كل ما أحببت؛ وينبغى تبجيل ما فيك من دار مهجورة؛ عندما ينتابك الانزعاج من عدم الإخلاص.

عندما يمضى حراسى فى جولاتهم المفروضة عليهم، لا أزعم أنهم جميعا متحمسون؛ كثير منهم يتملكهم الضجر ويحلمون بطيب المأكل؛ فحتى إذا خلا جوف الإنسان من كل التطلعات ـ فإن الدعوة الحيوانية

إلى إشباع بطنه تبقى، والذى يتملكه الضجر يفكر فى الطعام. لا أزعم أن نفوسهم جميعا متيقظة؛ فإننى لا أسمى نفسا إلا ذلك الذى فى الإنسان يتواصل بتلك التجمعات التى هى مرابط إلهية تربط بين الأشياء بعضها والبعض، وتسخر من السدود.

أيها الحارس.. أيها الحارس! أنا لا أعرف لمملكتك حدودا؛ حينما يهبك الإله صفاء النفس الواجب للحراس.. تلك النظرة إلى البراح؛ الذى يحق لك. وقليلا ما يهمنى إغفاؤك فى أوقات أخرى؛ فإنه حسن أن تنام، وإنه حسن أن تنسى. ولكنه سيئ أن تترك ـ فى نسيانك ـ موتك ينقضى.

فإن الإخلاص هو أولا إخلاص المرء لذاته.

إذن، فسأبعث رجالى المسلحين كى يقبضوا عليك، وسيحكم عليك بتلك الميتة التى يجازى بها الحراس النائمون، وستكون فى معاناتك عبرة للحراس جميعا.

٦٥

والجهاد الأكبر؛ الذى هو ضد الأشياء. لقد آن أوان الحديث إليك عن خطئك الجسيم؛ فإن أولئك الذين يقتاتون من استخراج الماس الخالص مرة فى كل عام، أشهد بحماسهم وأعتد بهم كأناس سعداء؛ وهم الذين يقلبون الأراضى الجرداء اليابسة؛ بغية الاكتشاف، وتشققهم الشمس، مثلما تفعل بالفاكهة الذابلة، وتجرحهم الصخور، ويحفرون فى أعماق الطين حتى ساعة نومهم؛ فيعاودون الصعود ليرقدوا عرايا فى الخيام. ومن رأيتهم فى رفاهيتهم يتلقون الماسات؛ فلا يعودون ـ بالرغم من ذلك ـ يملكون سوى مصنوعات زجاجية لا جدوى منها، عددتهم تعساء ذوى قلوب مريرة، ومنقسمين، فإن ما يحتاجه المرء ليس الشىء، بل الرمز.

فإن امتلاك الشىء هو يقينا دائم، ولكنه ليس دائما ما يتلقاه منه المرء من زاد؛ فما من معنى للشىء إن لم يزدك، وما يزيدك هو غزوك إياه، لا امتلاكك له؛ لذا أبجل من يجابه صعود الجبل باعتباره غزوا شاقا، أو كذلك الاغتراف من العلم بغية إبداع قصيدة، أو ترويض النفس العاصية، ومن ثم يرغمك على الصيرورة. أما الآخر الذى جعل من نفسه كالمئونة المكنونة؛ فإننى أحتقره؛ إذ لم يعد له ما يمكن أن تتلقاه، وما الذى سيفعله بالماسة متى استخرجت؟!

ذلك أننى جالب للعيد معناه، الذى أغفل وتنوسى؛ العيد تتويج

للاستعدادات للعيـد.. العيد ذروة الجبـل بعد الصعـود، العيد استحواذ على الماسة بعد أن أبيح استخراجها من الأرض، العيد نصر يكلل المعركة.. العيد أول وجبة للمريض فى الأول من أيام شفائه، العيد وعد المحبوبة بمبادلة الحب؛ عندما تخفض عينيها ومحبها يحدثها!

ولذا، فسأختلق هذه الصورة؛ لكى أنبئك:

إذا أردت، فسأستطيع إنشاء حضارة تراها متقدة بالحماس: كتائبها مفعمة بالبهجة، وتنبعث الضحكات الصافية من العمال العائدين فى نهاية النهار.. حب الحياة فيها شديد، والأمل قوى فى معجزات يأتى بها الغد وقصائد يسمع فيها للنجوم صدى! وبالرغم من ذلك، لن تفعل شيئا سوى تقليب الأرض؛ لكى تستخرج منها ذلك الماس الذى سيصير فى النهاية ضوءا، بعقب ذلك التغيير الصامت فى أحشاء الكرة الأرضية (فإنما يكون من الشمس مقدم الماس؛ ليصير بذورا، ثم ليلا حالكا، ثم يعود فيبزغ كالضوء). وإذن ـ فكما قلت لك ـ أضمن أنا لك حياة مثيرة للمشاعر؛ إذ أقضى عليك بهذا العمل فى الاستخراج وأدعوك ـ يوما فى العام ـ إلى العيد العظيم الذى سيكون قوامه تقديم قربان من الماسات، فتحرق أمام الشعب المتصبب عرقا وتتطاير فى أشعة من نور؛ فإن بوادرك الداخلية لا يحكمها ما تغزوه من أشياء، وفؤادك ليس زاده من الأشياء، بل من معنى الأشياء.

ويقينا، إننى أستطيع ـ على نفس ـ النحو أن أمتعك بتقديمه إلى أميرة من الأميرات، بدلا من إحراقه، لكى تزدان به، أو أغلق عليه صندوقا أضعه فى خبايا معبد من المعابد؛ فتزداد قوة إشعاعه على الأرواح لا على الأبصار.. الأرواح التى ستغتذى منه عبر الجدران. إنما يقينا ـ أيضا ـ أنى لن آتيك شيئًا جوهريًا إذا ما أعطيتك إياه.

فإن الحاصل هو أننى فهمت المعنى العميق للتضحية؛ الذى هو فى إثرائك لا فى اقتطاع شىء منك. ذلك أنك تخطئ الطريق إلى المنهل؛ عندما تمد يديك ملتمسا الشىء، بينما هو المعنى ما تنشده. فإننى إن ابتكرت مملكة تنال فيها نصيبا مما أوزعه كل مساء من ماسات حصدت من أرض أخـرى، فيستوى بذلك توزيعى بدلا منها حصى!! لأنك لن تجد فى الماس أيا مما كنت تتمنى الحصول عليه. إن ذلك الذى كدح طيلة السنة مصطدما بالصخور، وأحرق فى نهايتها ـ طيلة يوم واحد أو أقل!ـ ثمرة عمله طوال العام كى يستوهب منها نورا؛ لهو أغنى من ذلك الذى يتلقى فى كل الأيام ـ من أرض أخرى ـ ثمارا لم تتطلب منه شيئا.

(كذلك بشأن لعبة الوتد والكرة: إن بهجتك هى بإحكام تسديد الكرة إلى الوتد، أو دحرجتها صوبه بقوة لإسقاطه، ولكن أى بهجة لك بوتد ساقط ـ أصلا ـ إلى الأرض؟!).

لذا، تمتزج الأضاحى والأعياد؛ لأن المرء يظهر بالأضحية معنى فعله. إنما كيف ستزعم لى أن العيد ليس النار التى توقدها؛ ابتهاجا متى جمعت الحطب، وعضلاتك المسترخية فى البراح، متى تسلقت الجبل، وظهور الماس فى الضوء، متى انتهى استخراجه، وقطاف العناقيد، متى نضجت الأعناب؟ كيف ترى أن من الممكن استهلاك العيد مثلما تستهلك المئونة؟! إن العيد هو وصولك بعد المسيرة؛ ومن ثم، فهو تتويج لمسيرتك. بيد أنه ما أمل لك من تحولك إلى قعيد دار. لذا، لا تجد استقرارك فى الموسيقى ولا فى الشعر ولا فى المرأة التى غزوتها ولا فى المشهد الذى تشرف عليه من أعلى الجبل. وإذا وزعتك على أيامى بالتساوى فقد فقدتك؛ما لم أرتب أيامى وفقا لسفينة ذاهبة إلى موضع ما. فإن القصيدة نفسها عيد؛ بشرط أن تتسلقها!! فإن المعبد عيد فيه تحتفل بتخلصك من الهموم المبتذلة. لقد عاينت كل يوم من المدينة التى وطأتك

بمركباتها، عانيت كل يوم تلك الحمى وليدة الإلحاح، والقوت الواجب تكسبه، والأمراض الواجب التداوى منها، والمشاكل الواجب حلها؛ ماضيا إلى هنا وإلى هناك، ضاحكا هنا، باكيا هناك؛ ثم جاءت الساعة المقدرة للصمت وللهناء. وتصعد الدرجات وتدفع الباب، ولايعود لك سوى البحر الفسيح وتأمل المجرة واستيداع الصمت والانتصار على ما هو مبتذل؛ وإن كنت فى حاجة إليه، مثلما إلى الغذاء؛ فإنك قد عانيت من الأشياء ومما لا تمتلكه منها. ووجب عليك الآن أن تصير لكى يولد من الأشياء وجه ويتأسس هيكل يسبغ عليها معنى عبر المشاهد اليومية المشتتة. ولكن ما الذى أنت قادم إلى هذا المعبد لتفعله؛ ما لم تكن قد عشت فى المدينة، وناضلت وتسلقت وعانيت؟! ما لم تكن قد جلبت مئونة من الأحجار المقدر لك أن تبنى بها. قلتها لك عن مقاتلى والغرام: من ليس إلا مغرما لا يغرم بأحد؛ والمرأة بقربه تتثاءب. وحده المقاتل هو القادر على ممارسة الغرام. ومن ليس إلا مقاتلا لا ينال شرف الشهادة، ولن يسقط فى ميدان القتال سوى كحشرة مكتسية بقشور من معدن. وحده الرجل الذى أحب هو الذى يستطيع أن يموت رجلا. وفى ذا، لا يوجد تناقض إلا باللغة. كذلك فإن بين الثمار والجذور قاسما مشتركا، هو الشجرة.

٦٦

فإنما نحن لم نتوصل إلى اتفاق على حقيقة الشيء؛ فأنا لا أطلق هذا الوصف على ما يمكن تقدير زنته في ميزان، بل بما يثقلني أنا؛ وأنا لست ميزانا (ويبعث في هذا الخاطر السخرية؛ ولا أعود أهتم بالميزان، ولا بما يمكن تقديره بواسطته)، ويثقلني هذا الوجه الحزين أو هذه الأغنية أو هذه الشفقة بالناس أو هذا الحب للحياة، وكثير من سائر حقائق الأشياء.

إن الكلب يهتم بالتأكد من حقيقة قطعة العظام التي تلقى إليه. لكن الإنسان يهتم بالتأكد من حقائق أخرى.

لذا، أعد الممولين تافهين، والراقصات عاقلات؛ ليس لأنني أزدري صنيع الممولين، بل لأنني أحتقر ما يتملكهم من عجرفة وثقة بالنفس ورضا عنها؛ يحسبون أنفسهم الهدف والغاية والجوهر وهم ليسوا إلا خدما؛ وأول من يخدمونهم هن الراقصات.

فإن عليك ألا تخطئ في معنى العمل. توجد أعمال هي عاجلة؛ مثل تلك التي في مطابخ قصري. ذلك أنه إن لم يوجد غذاء فلن يوجد بشر! والواجب هو أن يتغذى البشر ويكتسوا ويقيموا قبل أي شيء. الواجب هو أن يكونوا.. لا غير! ومثل هذه الأعمال هي عاجلة ولها الأسبقية على غيرها. إلا أن مكمن الأهمية ليس ثمت: إنه فيما لها من قيمة.. لا غير!

والذى يمجد الإنسان هو الرقص والشعر وعالم الهندسة ومراقب النجوم، وسائر ما هو متوقف على العمل فى المطابخ أولا.

إذن، فعندما سيجيئنى ذلك الذى لا يعرف غير المطابخ، والتى هى بالفعل مصدر حقائق الأشياء التى تقدر فى الميزان، وقطع العظام المقدرة للكلاب؛ فسأحظر عليه الحديث عن الإنسان؛ لأنه سيغفل ما هو أساسى، على غرار الضابط الذى لا يعتد إلا بقدرة الشاب على استخدام السلاح.

وهل إذا أرسلت فى قصرك الراقصات إلى المطابخ؛ لكى يشاركن فى إعداد مزيد من الطعام لك، ستستغنى عن رقصهن؟ ولم ـ إذن ـ تتمنى أن يعمل بعض الناس بصقل الناس وبعضهم الآخر بكتابة الشعر؛ إن كان فى الإمكان أن يجندوا جميعا للعمل فى ذرو القمح حتى يتوافر المزيد من الخبز؟ إن الرقص قتال وإغواء وخطيئة وتكفير، والقصيدة ارتقاء صوب السماء، والماسة سنة كاملة من العمل صارت كوكبا دريا. لكن الذين يخلطون بين المعانى الحقيقية لكل من هذا وبين معان زائفة ـ ستضطر لإرضائهم بما يروقهم من رقص زائف ومن ماس زائف ومن شعر زائف؛ فهل سيروقهم ـ أيضا ـ الطعام الزائف متى اضطررتهم أنت إليه؟!

٦٧

لكن لا تحسبن أننى أحتقر ـ بأى حال من الأحوال ـ حاجاتك الطبيعية، بل ولا تخيلن أنها تناقض مدلولك؛ فلكم وددت أن أعرب عن نفسى بكلمات يعابث بعضها بعضا؛ لكى أثبت لك حقيقتى؛ كلمات من قبيل: «الضرورى والزائد عن الحاجة»، و«العلة والمعلول»، و«المطبخ وقاعة الرقص»؛ لولا أننى لا أومن بهذه التقسيمات التى هى من مصائب اللغة، وأشبه بربوة لا تصلح لاتخاذها موقعا يمكن منه التبصر بتحركات البشر.

وبالمثل بشأن معنى الوطن؛ فإن حارسى لا يتوصل إليه إلا عندما يثريه الإله بوضوح الرؤية والسمع المستوجب على الحراس؛ وعندئذ لن تناقض صيحة الوليد الأولى نواح المتحلقين حول الميت، ولا الدار المعبد، ولا الأماكن المشبوهة ديارا تُؤوى الحب العفيف. إنما من هذا التنوع تولد المدينة؛ التى تستوعب، وتزاوج، وتوحد! بمثلما تبزغ الشجرة واحدة من العناصر المتنوعة للشجرة، بمثلما يسود المعبد ـ بما فى صمته من قيمة ـ على ذلك الشتات من التماثيل والأعمدة والمحاريب؛ فكذلك لا ألاقى الإنسان إلا فى الطابق الذى لا يبدو لى فيه كذلك الذى يشدو مناقضا ذلك الذى يذرو القمح، أو يرقص مناقضا ذلك الذى يلقى الحب

إلى الرحى، أو يرقب النجوم مناقضا ذلك الذى يطرق المسامير؛ فإننى إذا قسمتك لا أفهمك، وأفقدك.

لذا مضيت ـ منغلقا فى صمت حبى ـ أرقب مواطنى مدينتى؛ وبى توق إلى الفهم.

٦٨

فيما يخص جارى، لاحظت أنه ليس من المفيد بحث ما فى مملكته من وقائع وأوضاع للأمور ومؤسسات، بل إن المفيد بحث ما فيها من مهابط، ولا شىء غيرها؛ فإن من يبحث أحوال مملكتى أنا سيجد فيها الحدادين، ويجدهم يصنعون مساميرهم وينشدون الأناشيد للمسامير وصناعتها، ثم سيجد فيها الحطابين وسيجدهم يقطعون الأشجار؛ وسيرى مدى شغفهم بقطعها، وابتهاجهم البالغ عندما يجىء عيد الحطاب، وهو الذى يبشر به أول تقصف، عندما تبدأ الشجرة الجليلة فى الانحناء. وإذا مضى ليلاقى علماء الفلك؛ فسيجدهم شغوفين بالنجوم والكواكب ولا يصغون إلا لصمتها. وبالفعل، فإن كلا يستغرقه ما يشتغل به. لكن إذا سألتك: «ما الذى يجرى فى مملكتى؟ ما الذى سيولد غدا لدى؟»؛ فإنك ستجيبنى بأن الحدادين سيواصلون صنع المسامير، والحطابين سيواصلون قطع الشجر، وعلماء الفلك سيواصلون مراقبة النجوم؛ وإذن، فسيوجد المزيد من المسامير والأخشاب، والمزيد من مراقبة النجوم!! فإنك أنت الأعشى العاجز عن الرؤية من بعد؛ لم تتعرف فى هذا على عمليات بناء السفينة.

ويقينا، إن أيا منهم لم يقل لك: «غدا، سنكون على ظهر البحر». فإن كلا ظن أنه يؤدى الفروض لمقدساته هو؛ ولتعثرت الكلمات فى أفواهم لو راموا الإعراب لك عما يؤدى من فروض لما تقدسه المقدسات، وهو

السفينة. فإن النعمة التى تسبغها السفينة هى جعل المسامير هى التى تنشد الأناشيد لصانعيها، لا العكس.

أما عن زيادة ما يعد للمستقبل، فلقد عرفت أنت عنها أكثر مما عرفت؛ لو كنت قد أشرفت على هذا التجميع للشتات، وأدركت ما أزيد أنا عندئذ، تلك السفينة ـ التى هى تجميع للمسامير والألواح وجذوع الأشجار، وتحكمها النجوم ـ تتشكل ببطء فى الصمت وتتجمع بنفس أسلوب شجرة الأرز، التى تجتذب من الحصى العصارات والأملاح؛ لتتأسس بها فى الضياء.

ولستتعرف على هذا المهبط المؤدى إلى الغد وما له من آثار لا تقاوم؛ فمن الصعب أن تخطئ.. إنه يتجلى أينما يستطيع التجلى. أليس أن المهبط صوب أدنى الأرض يتجلى لنا عندما نسقط حصاة؛ فنجدها تهبط منزلقة؟!

وإذا رأيت رجلا يسير صوب الشرق؛ فما أنا بمستبصر وجهته؛ فمن الجائز أن يسير طويلا، ثم متى ظننته عاقدا العزم على استكمال مساره، فاجأنى بالاستدارة والعودة. أما كلبى؛ فإننى قادر على استبصار وجهته؛ لأننى متى أرخيت له الحبل ـ ولو بأقل القليل ـ واتجه صوب الشرق جاذبا إياى خلفه؛ لعرفت أنه تعرف على رائحة الفريسة، وأنه منطلق إلى هناك إذا ما أطلقته. لقد أنبأتنى بوصة من الحبل بأكثر مما أنبأتنى به ألف خطوة.

هذا السجين الذى أرقبه والجالس أو الراقد؛ كأنه متخل عن كل رغبة ومتجرد من كل إرادة ـ سأعرف أى مهبط سيتخذ؛ فإن ما يجذبه هو الحرية. يكفى أن أريه ثقبا فى الحائط لكى يختلج ويعود ثانية كتلة من العضلات وبالغ الانتباه. فإذا كانت الثغرة تظهر الريف النائى؛ فلن يكون إلا أعمى، إذا أغفل رؤيتها.

إذا أعملت أنت ذكاءك؛ فربما نسيت هذا الثقب أو ذاك ، بل لم تبصره وهو أمامك؛ لأن شيئا آخر يشغل ذهنك، أو أبصرته وانخرطت فى قياسات تستدل منها على الجدوى من استخدامه، وعندما تكتشفها يكون الأوان قد فات؛ لأن البنائين سيكونون قد تداركوا الأمر وأعادوا الحائط إلى ما كان عليه! لكن أرنى فى ذلك الخزان الذى تملؤه المياه شرخا واحد سيفوتها الخروج منه!.

لذلك أقول إن المرتقى ـ وإن استعصى التعبير عنه بسبب فقر اللغة: هو أقوى من الحكمة، وإن له وحده الحكم، ولذلك أقول: «إن الحكمة ليست إلا خادمة للروح. وقبيح بك أن تستعلم عن أنباء السيدة من خادمتها».

٦٩

أتذكر مدعى النبوة ذاك، ذا النظرة الجامدة، وهو ـ بالإضافة إلى ذلك ـ مصاب بالحول ـ جاء لرؤيتى وقد استبد به غضب: غضب مكفهر.

قال لى: «الأجدر بنا أن نبيدهم!».

وفهمت أن به تعطشا إلى الكمال؛ فإنه لاكمال إلا بالموت.

قال: «إنهم خطاة.».

لم أنطق. وضحت لعينى تلك النفس المشحوذة كالسيف. لكننى قلت فى نفسى: «إنه موجود ليقضى على الشر. ما هو موجود إلا بفضل الشر. ماذا سيكون هو إذن، بدون الشر؟»!!

وسألته، قائلا: «ما الذى تتمناه لكى تكون سعيدا؟».

قال: «انتصار الخير».

وأدركت أنه يكذب؛ فإن ما يدعى تمنيه، سيعنى تعطل سيفه وصدأه؛ فهل سيرضيه هذا؟

شيئا فشيئا، تجلت لى حقيقة وجب أن أنتبه إليها أصلا، وهى أن من يحب الخير؛ يغتفر الشر، من يحب القوة؛ يغتفر الضعف! لأن الكلمات إن كانت تتعابث؛ فإن الخير والشر يمتزجان، وصغار النحاتين هم التربة

التى تنتج كبار النحاتين، والطغيان يستدعى النفوس الأبية لمقاومته، والمجاعة تؤدى إلى اقتسام الخبز؛ واقتسام الخبز أحلى من الخبز نفسه. وأولئك الذين يحيكون الدسائس ضدى؛ المطاردون من رجال شرطتى، والمحرمون من الضوء فى كهوفهم، والمرحبون بما هو متوقع لهم من هلاك، والمضحون فى سبيل غيرهم؛ إذ رضوا بالمخاطرة والبؤس والظلم حبا للحرية والعدل ـ أولئك بدوا لى دائما ذوى جمال رائع.. جمال توهج كالشعلة فى ساحات التعذيب، لذا ـ لم أحرمهم من موتهم قط! ما الماسة، إن لم يوجد غلاف صلب ينبغى شقه؛ فلا يعود يخفيها؟ ما السيف، إن لم يوجد عدو؟ ما العودة، إن لم تكن عاقبة لغياب؟ ما الوفاء، إن لم يوجد إغواء؟ إن انتصار الخير هو انتصار القطيع المطيع المرابط أمام مزوده. وما أنا بمعول على قعيدى الدار والمتخمين.

قلت له: «أنت تناضل ضد الشر. وكل نضال رقصة! وتستمد متعتك من متعة الرقص؛ أى من الشر؛ ولآثرت أنا أن ترقص حبا».

فإننى إذا أسست مملكة تستثير فيها القصائد المشاعر؛ فسيحين وقت يجىء فيه المناطقة؛ فيتمحكون بهذا الشأن، ويكتشفون الأخطار التى تهدد القصائد، فى نقيض القصيدة، كأنما يمكن أن يوجد لأى شىء فى العالم نقيض! وعندئذ ـ أيضا ـ سينشأ رجال شرطة، يخلطون بين حب القصيدة وكراهية نقيض القصيدة، وبدورهم تشغلهم الكراهية، لا الحب؛ كما لو كان حب شجرة الأرز مساويا للقضاء على شجرة الزيتون. وسيودعون فى السجون الموسيقى أو النحات أو عالم الفلك؛ متعللين بحجج تناقلتها الأقوال السخيفة وترددت دون أساس من الصحة. وسيكون مآل مملكتى إلى الزوال؛ فما إحياء شجرة الأرز بإهلاك شجرة الزيتون ولا بصد رائحة الورد. اغرس فى قلب أى شعب حب السفن؛ وسيجتذب أبناؤه كل ما فى أرض بلادك من حماس كى تصنع السفن. لكنك تريد أن تشرف

على إنتاج السفن؛ مبتاعا ما هو لازم، وقاضيا على المعارضين بعد ثبوت التهمة عليهم. إلا أن الحاصل هو أن كل ما ليس سفينة، يمكن أن ينعت بنقيض السفينة؛ فإن المنطق يأخذك إلى حيث تريد، ومن استبعاد إلى استبعاد، ستقضى على شعبك بأكمله؛ فإن كلا من أفراده يحب ـ أيضا ـ شيئا آخر (فهل ستتهم كلا منهم بأنه يحب نقيضا للسفينة؟!)، بل ستقضى على السفينة نفسها؛ لأن كلا من صانعيها يحب ما يصنعه بأكثر مما يحب السفينة. فهل ستعاقب صانع المسامير؛ لأنه يتغزل فى المسامير، لا فى السفينة؟ وإذا سجنته فلن تعود لديك مسامير ولا سفينة!!

كذلك بشأن ذلك الذى يظن أنه يحابى كبار النحاتين بالقضاء على صغار النحاتين؛ الذين يصفهم بأقواله السخيفة ـ التى تتناقل فتبلغ آذان السذج ـ بأنهم مناقضون لكبار النحاتين. وأنا أقول: «إنك أنت ـ أيضا ـ ستحظر على ابنك امتهان حرفة تقل مكاسبها إلى هذا المدى».

انتفض مدعى النبوة، قائلا: إذا كنت قد فهمتك جيدا؛ فإن علىَّ أن أتقبل الرذيلة!».

قلت له: «كلا، على الإطلاق. أنت لم تفهم شيئًا».

٧٠

ذلك أننى إذا أردت ألا أشن الحرب، وشد ساقى ما بى من داء؛ فسيصير لى، ربما المانع من الحرب فى حين أننى عندما ملت إلى الحرب؛ ظننت أن أستطيع مداواة الداء بفضل الفعل!! ذلك أنها وحدها رغبتى فى السلام، التى تلبست برداء الداء! بمثلما أمكن التذرع بحب الدار، أو بتبجيلى لعدوى، أو بأى من غير هذا وذاك. إذا أردت أن تفهم البشر، فابدأ أولا ـ بعدم الاستماع إليهم إطلاقا!

فإن صانع المسامير سيحدثك عن مساميره، والفلكى عن نجومه. وكلهم ينسون البحر.

٧١

عندما تكون الحقائق جلية ومتناقضة فيما بينها على نحو بالغ؛ فما أنت بقادر إلا على تغيير لغتك.

لا جدوى من التشبث بالمنطق؛ كي تتمكن من الارتفاع إلى مستوى يعلو ذلك الذى أنت فيه. ما الأحجار بالمعينة لك على التأمل! إذا تحدثت عن التأمل بلغة الأحجار أخفقت. عليك أن تبتكر كلمة جديدة للإنباء بخاصية التركيب المعمارى للأحجار. فقد ولد كائن جديد، غير قابل للتقسيم ولا للتفسير؛ فإن التفسير هو التفكيك. وهذا الكائن تعمده ـ إذن ـ باسم ما.

كيف ستتفكر فى التأمل؟ كيف ستتفكر فى الحب؟ كيف ستتفكر فى الدار؟ ما هذه بأشياء، بل هى مقدسات.

لقد عرفت ذلك الذى تمنى الموت؛ لأنه سمع من يشدو بأسطورة بلد من بلاد الشمال، وبلغته أنباء مبهمة عما يحدث فيه فى ليلة واحدة بعينها من ليالى السنة؛ عندما تكتسى الأرض بالثلوج فتتقصف تحت أقدام السائرين ـ تعلوهم النجوم ـ صوب منازل خشبية مضاءة. فإذا احتواك هذا الضياء وألصقت وجهك بالنافذة؛ لاكتشفت أن مصدر هذا الضياء شجرة، وسيقال لك: «إنها ليلة لها مذاق الدمى المصنوعة من الخشب المطلى،

ورائحة الشمع». وسيقال لك عن وجوه الناس من تلك الليلة: «إنها خارقة للعادة؛ فإنهم فى انتظار معجزة». وترى جميع المسنين يحبسون أنفاسهم ولا يرفعون أعينهم عن أعين الأطفال؛ ويستعدون لخفقات قلب شديدة؛ فسيحدث فى عيون الأطفال شيء يستحيل احتواؤه ولا يقدر بثمن. فطيلة السنة، جرى العمل فى بنائه بالانتظار وبالأقاصيص وبالوعود، وخاصة بألحان عزفت وبإشارات سرية وبمحبة عظيمة، والآن ستنتزع من الشجرة شيئا متواضعا من الخشب المطلى لتعطيه للطفل وفقا لطقوس احتفالك. وهى اللحظة! لا يعود أحد يتنفس. والطفل يطرف بجفنيه فقد أوقظ لتوه من نومه. وهو جالس على ركبتيك وفيه رائحة الطفل الطازج الذى أوقظ من نومه. وينظر الطفل إلى الشجرة؛ وأنت تنظر إلى الطفل؛ إذ قد آن أوان المفاجأة المدهشة، كالزهرة التى لا تولد إلا مرة كل عام فى الثلج.

وينكفئ الطفل على كنزه ليستدفئ به فى أعماقه، ولو تركته يفلت لأفلت. ولا أمل لك فى بلوغه. لا تتحدث إليه؛ فإنه لا يسمعك.

لا توجد كيفية للتفكر فى هذه اللحظة التى لا مثيل لها؛ كما لا توجد كيفية للتفكر فى حب الدار أو فى صمت المعبد.

إذن، فقد تمنى الجندى الذى عرفته، الموت؛ لأنه قيل له إن غزو ما يتهدد ذلك البلد الذى فى الشمال، يتهدد كل ما أنبئ به من احتفال وبهجة، هو الذى ما عاش إلا على الرمل والشمس، وما عرف فى حياته شجرة الضياء، بل كاد ألا يعرف جهة الشمال.

وأنا ما عرفت سببا للموت أروع من هذا.

لقد حشدت الجيوش لإنقاذ احتفال وبهجة، ودمى من خشب مطلى له رائحة الشمع. لكننى لما حشدت الجيوش للدفاع عن المؤن؛ فما هى

بحاجة إلى دفاع، وما لك أن تتوقع منها شيئا، إلا إذا صرت من أفراد القطيع الكئيب.

لهذا، لا تعود ترضى بأن تموت إذا غابت عنك مقدساتك. بيد أنك كذلك لن تحيى. فإنك لا تحيى إلا مما يمكن أن يميتك؛ ومن يرفض الموت يرفض الحياة.

فإنما لا يوجد ما يفوقك، ولا ما يمكن أن تتلقاه؛ إلا منك أنت نفسك. ولكن ما الذى ستستمده من مرآة خاوية؟!

٧٢

إن حديثى موجه إليك يا من تنفردين بنفسك؛ لأن بى رغبة أن أفيض عليك بهذا الضوء. الآن قد أدركت أن من الممكن إمدادك بالغذاء حيثما أنت منعزلة وصامته؛ فإن الآلهة تسخر من الحواجز، إن كانت أسوارا أو بحارا؛ وأنت ـ أيضا ـ تثريك معرفتك بوجود العسل ذى الشمع فى مكان ما، وإن انقطع ـ إلى الأبد ـ أملك فى تذوقه أبدا.

إلا أننى لا أملك وسيلة للحكم على قيمة ما آتيك به من غذاء؛ إلا بمعرفة قيمتك أنت؛ ما الذى ستصيرين إليه متى تلقيت الغذاء؟ أريدك أن تضمى فى الصمت راحتيك إحداهما إلى الأخرى، وفى عينيك تتلبد الغيوم على نحو ما أبصره من الطفل عندما ينال منى ما يلهو به غافلا عن سائر ما حوله؛ فبدوره لم يكن عطائى للطفل شيئا. إن من يعرف كيف يصنع بثلاث من الحصى أسطولا حربيا ويهدده بإعصار، إذا أعطيته جنديا من خشب؛ فسيجعل منه جيشا وقوادا وإخلاصًا للمملكة؛ وصلابة الانضباط والموت ظمأ فى الصحراء. وإنه لكذلك ـ أيضا ـ بشأن الآلة الموسيقية؛ والتى ليست على الإطلاق آلة، ولكنها بعض من عناصر يستعين بها الإنسان فى نصب كمائنه؛ حيث تسقط فرائس، لها جوهر مغاير لذلك الذى للكمين. وأنت ـ أيضا ـ سأفيض عليك من ضوئى؛ حتى يستنير مأواك ويسكن إليه قلبك. ذلك أننى متى حدثتك عن النار التى تحت الرماد؛ فلن

تعود المدينة النائمة التى تبصرينها من نافذتك هى نفسها. وطريق الدورية لن يعود ـ لحارسى ـ ممثلا ما كان يمثله من قبل، بل جبهة المملكة.

عندما يهب المرء نفسه؛ فإنه يتلقى أكثر مما وهب؛ لأنه لم يكن شيئا، ثم صار، وليس بذى أهمية أن الكلمات تتعابث.

إن حديثى موجه إليك يا من تنفردين بنفسك؛ لأن لى رغبة أن أقيم فيك. قد يكون عسيرا عليك ـ بسبب خلع كتفك أو عجز عينك ـ استقبالك فى دارك من تأملين الاقتران به جسدًا! لكن يوجد ما له حضور أقوى من حضور الجسد؛ وقد لاحظت أن الراقد فى غرفته مقضيا عليه بالموت بالسرطان؛ قد تبدل حاله؛ فى الصباح الذى بلغته فيه أنباء النصر! ورغم أن سمك الجدران يحول دون سماع دوى الأبواق؛ فإن حجرته بدت يومها آهلة.

ولكن ما الذى يخترق الجدران ـ قادما من خارجها ـ ليفعم الحجرة، إن لم يكن المربط الجامع بين الأشياء؛ والذى هو نصر.. يسخر من الحواجز، إن كانت أسوارا أو بحارا؟ ولم لا نتطلع من الألوهية إلى مزيد من الإشراق؛ لكى تشكل منك امرأة متقدة القلب.. رائعة.. مخلصة؟!

ذلك أن الحب الحقيقى لا يفنى، مهما أنفقت منه. وكلما زاد ما تعطينه منه؛ زاد ما يبقى منه لك. وإذا ذهبت تغترفين من ماء المنبع الأصيل؛ فإنه يزداد إنعاما عليك بقدر ما تزيدين من اغترافك منه. والعسل ذو الشمع قد تحقق الجميع من وجوده؛ فإذا ذاقه غيرك؛ فلقد تغذيت أنت نفسك عليه.

لكن هذا الذى سيقترن به جسدك ـ متى ابتسم لأخرى ـ سلبك ما تملكين، وأذاقك حبك حسرات.

لذا، سأزورك. ولا حاجة بى لتعريفك بنفسى: أنا مربط المملكة، وقد أنشأت من أجلك ضراعة، أنا البالغ بك نوعا من الفهم للأمور، أنا المربط لك؛ وما عاد لعزتك وجود.

وكيف لن تتبعينى، إذن؟! أنا لست إلا أنت نفسك!! وهكذا أمر الموسيقى؛ التى تنشىء فيك صيغة معينة، تجعلك تتوهجين. والموسيقى ليست بالصادقة ولا بالكاذبة. إنك أنت التى لتوك قد صرت!

لا أريد منك أن تكونى منعزلة فى كمالك، منعزلة ومريرة. سأنبهك إلى الحماس، الذى يهب ولا يسلب أبدا؛ لأن الحماس لا يدعى لنفسه امتلاكا ولا حضورا.

لكن القصيدة جميلة لأسباب لا صلة لها بالمنطق؛ بما أنها من مستوى آخر. وبقدر ما تتيحه لك من اتساع؛ تثير مشاعرك. ذلك أن فيك نغما يمكن سماعه منك، ويمكنك أنت التغنى به وإن بدرجات متفاوتة. توجد موسيقى أقل جمالا؛ لا تمهد فى قلبك لأفضل الدروب؛ ولا تتراءى لك من الإله أروع دلائله.

لكن من الزيارات ما يغشيك نعاسا آمنا من فرط ما أحببت.

ولذا، قد أنشأت ـ من أجلك يا من تنفردين بنفسك ـ هذه الضراعة.

٧٣

ضراعة العزلة:

«رباه شفقة بى؛ فإن العزلة تثقل علىَّ. ما من شىء أتطلع إليه. ها أنا فى هذه الحجرة التى لا أجد فيها صدى لحديثى. إلا أن مطلبى ليس الحضور عندى؛ إذ أكتشف ضياعى مزيدا إذا أوغلت فى الحشد. لكن أخرى تشابهنى.. وحيدة هى ـ أيضا ـ فى حجرة مشابهة، تجد نفسها بالرغم راضية ما دام ذووها منكبين على ما يشغلهم فى مواضع أخرى من الدار. لا هى تبصرهم ولا تسمعهم، لا تتلقى هى شيئا منهم فى الحال، لكن يكفيها ـ لكى تكون سعيدة ـ أن تعرف أن دارها عامرة.

رباه! ولا كذلك ألتمس أيا مما يمكن إبصاره أو سماعه. إن معجزاتك ليست للحواس. لكن يكفيك لكى تشفينى من يأسى أن تنير روحى فى موئلى.

رباه! إن الرحال الموغل فيما اختير له من صحراء، يبتهج بداره إن كانت عامرة؛ حتى وإن أدرك مدى ما يباعد بينه وبينها من مسافات شاسعة. ما من مسافة ستمنع ارتواءه من داره! وإذا مات؛ فإن الحب يكتنفه فى موته. رباه! فإنى إذن، لا ألتمس حتى أن تكون دارى على مقربة.

إن المتجول الذى راعه فى الحشد أحد الوجوه، يجد ما به يتغير، حتى

إن لم يكن الوجه محتفلا به. وكذلك الجندى الواقع فى حب الملكة، يصبح جنديا لملكة. إذن، فإننى لا ألتمس حتى أن أوعد بهذا الموئل.

فى عرض البحار وجد من ضحوا بمصائرهم فى سبيل جزر لا وجود لها. أنشودة الجزيرة ينشدها ذوو السفينة، وإذا هم سعداء! ليست الجزيرة هى التى ترضيهم، بل الأنشودة. إذن، فإننى لا ألتمس حتى أن يوجد هذا الموئل فى بقعة ما.

رب، إن العزلة هى ثمرة الروح إن عجزت. ما للروح من موطن سوى واحد؛ هو معنى الأشياء. كذلك المعبد عندما يكون هو معنى الأحجار. وما للروح من أجنحة إلا لهذا الفضاء. الروح لا تبتهج بالأشياء، بل بالوجه الذى يستقرأ من خلالها ويربطها، وبه وحده. رب، لا تنعم علىَّ سوى بتعليمى القراءة!.

عندئذ؛ سأفرغ من عزلتى.».

٧٤

مثلما يكون المعبد ترتيبا معينا لأحجار، كلها متشابهة، ولكنها موزعة وفقا لمسالك للطاقة يخاطب هيكلها الروح؛ فعلى نفس النحو توجد طقوس لأحجارى؛ ويكاد المعبد أن يكون جميلا.

مثلما تكون طقوسى السنوية ترتيبا معينا لأيام تبدو فى البداية كلها متشابهة، ولكنها موزعـة وفقا لمسالك للطاقة يخاطب هيكلها الروح؛ فعلى نفس النحو، توجد طقوس لأيامى؛ وتكاد السنة أن تكون عامرة بالحياة.

وعلى نفس النحو توجد لملامح الوجه طقوس؛ ويكاد الوجه أن يكون جميلا، ولقوات جيشى؛ ويكاد جيشى أن يكون قويا.

ولقريتى طقوس؛ فها هو يوم العيد، أو دق الناقوس للأموات، أو أوان جنى الكرم، أو الجدار الواجب التعاون فى بنائه، أو المجتمع الذى تتهدده المجاعة والجفاف؛ فيلزم اقتسام الماء.

لا أعرف فى العالم شيئا واحدا لا يكون فى البداية طقوسا؛ فما لك أن تتوقع شيئا من معبد بلا معمار، ولا من سنة بلا أعياد، ولا من وجه بلا أبعاد، ولا من جيش بلا لوائح ولا من بلد بلا تقاليد؛ فستحار فى هذه المواد المبعثرة.

لماذا تقول لى عن هذه المواد المبعثرة إنها حقائق، وعن الطقوس إنها أوهام؛ ما دام الشىء نفسه طقوسا لأجزائه؟! وكيف تظن نصيب الجيش من الحقيقة أقل من نصيب الحجر منها؟ إذا أطلقت اسم الحجر على طقوس من التراب الذى تكون منه، واسم السنة على طقوس الأيام؛ فكيف سيكون نصيب السنة من الحقيقة أقل من نصيب الحجر منها؟!

أولئك لم يكتشفوا إلا الأفراد، ويقينا أنه حسن للأفراد أن يثروا وأن يكتسوا وألا يتعذبوا على نحو بالغ. لكنهم يموتون دون الجوهر؛ ولا يعودون سوى أحجار مبعثرة؛ ما لم تؤسس فى مملكتك طقوسا لبنى الإنسان.

كيف يمكن أن أوضح لك ما أبحث عنه؟! إنه ليس ما يخاطب الحواس، بل ما يخاطب الروح، لا تطالبنى بتبرير الطقوس التى أقرضها. إن المنطق هو على مستوى الأشياء لا على مستوى المربط الذى يجمعها، هنا لا تعود لى لغة.

إن كل ما فعلته هو أننى عثرت لنفسى على شىء ما، مثل الأعمى الذى يبحث فى الشتاء عن النار براحتى يديه؛ ويجدها. ويلقى عصاه ويجلس بقربها، عاقدا ساقيه. وهذا رغم أنه لا يعرف شيئا عن النار بمثلما تعرف أنت أيها المبصر؛ لقد اهتدى إلى حقيقة جسده؛ لأنك ستراه غير تارك موقعه.

وإن كنت تتهم حقيقتى بأنها ليست حقيقة؛ فسأحكى لك عن موت عالم الهندسة الأصيل الوحيد ـ صديقى ـ الذى طلب إلىّ أن أعاونه وهو يتأهب للموت.

٧٥

مضيت ـ إذن ـ إليه بخطاى البطيئة؛ لأننى كنت أحبه.

قلت له: «يا عالم الهندسة، يا صديقى، سأدعو الإله إلى الرحمة بك».

لكنه كان متعبا؛ لشدة ما عاناه.

قال: «لا تقلق على بدنى. أنا كالشجرة المسنة. دع الحطاب يفعل فعله».

وقلت: «ألا تبكى ما حرمت منه، يا عالم الهندسة؟».

قال: «ما الذى سأبكيه؟ وهل تبكى أنت طفولتك أوصباك أو سنوات نضجك؟ هذا البكاء، بكاء الشاعر الردىء. ما بى من بكاء الحرمان، بل رقة الحزن؛ الذى ما هو بعذاب، بل إنه عطر بقى فى إناء تبخر منه الرحيق.».

قلت: «وإذا تذكر المرء سعادته؟».

قال: «ما فى هذا بدوره من عذاب. إن الاشتياق إلى الحب هو الحب نفسه؛ ولو لم يوجد الحب؛ لما وجد الاشتياق إليه.».

قلت: «ولكن الأم التى أحبت ابنها لا تجد عزاء فى الاشتياق إليه إن مات.».

قال: «هذا فى البداية فقط، ثم يجىء حين فيه يظهر معنى الأشياء الماضية، يجىء حين فيه تخلد للأم ذكرى الطفل الذى مات. أسمعت أمّا تقول: إنها كانت تؤثر ألا تلد ابنها؟».

وقلت: «قل لى يا صديقى، عما أكسبك هذه الرزانة.».

قال: «ربما كانت المعرفة بأى من الحقائق هى رؤيتها فى جلال الصمت. قد تكون معرفة الحقيقة هى نيل الحق أخيرا فى الصمت الأبدى. إن العثور هو الإبصار، وكيف سأبحث عما لا يلوح لى منه شىء بعد؟ أحيانا تحدونى غريزة كتلك التى تحدو الديدان صوب الدفء، أو الأعمى الذى حكيت لى عنه، وكيف اهتدى إلى النار؟ إلا أن الديدان لا تعرف الشمس التى تدفئها، ولا الأعمى يعرف النار التى اهتدى إليها. فإن حقيقة الشىء هى ما بين أجزائه من صلات؛ مثلما أن حقيقة المملكة هى ما بين بقاعها من صلات، وحقيقة الغابة هى ما بين أشجارها من صلات، وحقيقة الشجرة هى ما بين أغصانها وجذعها وجذورها من صلات.».

٧٦

تسألينني: «لماذا يرضى هذا الشعب بانحطاطه إلى العبودية؛ ولا يواصل نضاله حتى يفنى الأخير من أبنائه؟».

إلا أنه من الملائم تمييز التضحية عن حب ـ وهى نبل وسمو ـ من الانتحار عن يأس؛ وهو انحطاط وفظاظة: التضحية محتوم أن يكون لها رب، مثلما للدار أو للجماعة أو للمعبد؛ يتلقى منك ما عاهدته عليه، وبه بذلت نفسك.

قد يرضى البعض بالموت فى سبيل الكل، وإن بلا جدوى! وأبدا لن يكون الموت بلا جدوى؛ فإنما الآخرون يزدادون بفضله جمالا، ويمضون، والعين منهم أكثر صفاء، والروح أكثر رحابة.

أى أب لن ينتزع نفسه من بين أحضانك؛ لكى يلقى بها فى اللجة التى يكاد ابنه يغرق فيها؟! لن تستطيعين منعه ولكن هل ستتمنين أن يغرق الاثنان معا؟ من ذا الذى سيفيد من موتهما فتزداد حياته ثراء؟!

إن الشرف إشراق للتضحية لا للانتحار.

٧٧

إذا حكمت على صنيعي؛ فإنني أود أن تحدثني عنه دون أن تدخلني في حكمك! فإنني متى أنحت وجها، أبذل فيه نفسي وأخدمه؛ وليس هو الذي يخدمني. وبالفعل، إنني أرضى حتى بالمجازفة؛ لكي أستكمل إبداعي.

إذن، فلا تدار انتقاداتك خوفا من خدش غروري؛ فما فيَّ من غرور؛ ليس للغرور عندي معنى؛ بما أن الأمر لا يتعلق بي، بل بذلك الوجه.

لكن، ها هو الوجه قد بدل فيك؛ إذ حرك فيك شيئا. كذلك فلا تجهد نفسك في مداراة شهاداتك؛ خوفا من أن تخجل تواضعي؛ فما فيَّ من تواضع! إنما يتعلق الأمر بتصويب يسودنا معناه، وإن توزعت علينا مهامه: أنا كسهم، وأنت كهدف!

٧٨

«لقد كتبت قصيدتى، وبقى علىَّ أن أصوبها.».

ويقول أبى، غاضبا:

«تكتب قصيدتك، ثم تصوبها؟! وما الكتابة إن لم تكن تصويبا؟! وما النحت إن لم يكن تصويبا؟! هل رأيت الطين وهو يتشكل؟ من تصويب إلى تصويب يخرج منه الوجه! وأول لمسة بالأنامل هى أصلا تصويب لكتلة الصلصال. عندما أؤسس مدينتى أصوب الرمال!! ومن تصويب إلى تصويب أمضى صوب الإله.».

٧٩

فإن من المؤكد، أنك تعبر عن نفسك بواسطة روابط، وتجعل دوى كل ناقوس يتردد فيطغى على دوى غيره. وما من أهمية للأشياء التى تجعلها تدوى؛ إنها عناصر الكمين الذى سيأسر الفرائس؛ تلك التى ليست على الإطلاق من جوهر الكمين. وقد قلت لك إن الأشياء المترابطة هى المستلزمة.

أما الرقص أو الموسيقى، فإن للواحد منهما والآخر تعاقبا فى الزمن يحول دون أى خطأ منى فى فهم رسالتك إلىَّ. تطيل هنا وتبطىء هناك، تصعد هنا وتهبط هناك، ثم تجعل من نفسك صدى لنفسك.

إلا أنه حيث تقدم لى كل شىء فى مجموعه، يلزمنى اصطلاح؛ فأَنَّى لى أن أعرف ما تجعله طويلا أو قصيرا.. سميكا أو رقيقا.. مستقيما أو معوجا.. غائرا أو بارزا، وأن أرصد تحركاتك وأميز ما يصدر عنك من ترداد وأصداء، وأن أقرأ رسالتك؛ أقول أَنَّى لى هذا كله، إن لم يوجد أنف ولا فم ولا أذن ولا فك؟ لكن الوجه سيصير لى اصطلاحا؛ لأننى أعرف واحدا، هو كامل وعادى.

ويقينا، إنك لا تعبر عن شىء إذا ما أمددتنى بالوجه العادى تماما، إلا الاصطلاح وحده الذى تعطينى إياه. الشىء الذى يرجع إليه، والنموذج

الذى يتم تدريسه لطلاب الفنون الجميلة؛ أنا بحاجة إليه لا لكى أتأثر؛ بل لكى أقرأ ما سوف تنقله صوبى، كذلك أرضى بأن تحيد عن النموذج وتشوه وتخلط؛ على أن يظل المفتاح فى حوزتى. ولن آخذ عليك بتاتا نزوعك إلى وضع العين فى منتصف الجبين!!

على أننى عندئذ؛ سأعدك أخرق؛ مثلما ذلك الذى يحدث جلبة شديدة؛ لكى تسمع موسيقاه، أو ذلك الذى يجعل بعضا من التشبيهات فى قصيدته بالغ الوضوح؛ لكى لا تستعصى على الفهم.

ذلك أننى أقول إن اللائق هو رفع الأخشاب والحبال التى أستعين بها فى البناء؛ متى أستكمل تشييد المعبد. لا حاجة لى إلى أن أستقرئ فى الإبداع وسائله؛ بل إن العمل المبدع يبلغ كماله بعدم اكتشاف رائيه له.

ذلك أن ما يهمنى بالتحديد ليس من بين ملامح الوجه، ولا تلك من بين كلمات القصيدة؛ فلا الأنف ـ مثلا ـ يجوز وضعه على الجبين؛ لكى يظهر لى على نحو بالغ، ولا اللفظ يجوز أن ينتقى من بين أقوى الألفاظ؛ وإلا لطمس الصورة؛ بل ولا الصورة نفسها تجوز المغالاة فيها؛ وإلا لأخلت بالأسلوب.

إن لما أنشده منك جوهرا مغايرا لذلك الذى للكمين، شأن صمتك داخل المعبد؛ وإن كان المعبد من حجر. إلا أن الحاصل أنك أنت ـ يا من ادعيت احتقار المادة والتماس الجوهر، واستندت إلى هذا الطموح الجذاب لكى تبعث إلىَّ برسائل تستعصى على القراءة ـ قد نصبت كمينا هائلا ذا ألوان زاهية؛ دهمنى وحجب عنى الجرذ الذى أسرته فيه، والذى ولد ميتا!!

ذلك أننى طالما وجدتك جذابا أو متألقا أو غريبا؛ فما أنا بمتلق منك شيئا؛ لأن كل ما فعلته أنت هو الاستعراض، مثلما فى أسواق الأعياد. بيد

أنك أخطأت فى موضوع الإبداع؛ لأنه ليس استعراضك نفسك؛ بل جعلى صائرا. أما إذا أخذت تلوح أمامى بمروحتك ذات العصافير؛ فسأمضى لأتخذ لنفسى موضعا آخر.

وأما ذلك الذى مضى بى إلى حيث أراد، ثم انسحب، فإنه يجعلنى أعتقد أننى أكتشف العالم، ويجعل منى ما يريد هو أن يكون.

على ألا تظن أن قوام هذا الاحتشام هو ـ على العكس ـ فى جلو كتلة يتموج فيها بلا وضوح، أنف وفم وفك؛ مثلما من بعض شمع نسى فى النار؛ فما دمت تغالى على هذا النحو فى احتقارك للوسائل التى تستعين بها؛ إذن؛ فابدأ بمحو هذا الرخام نفسه أو هذا الطين أو هذا البرونز، وفى كل منها من المادية ما يفوق شكل الشفة ذاك الذى أخللت أنت بوضوحه!

إن قوام الاحتشام، هو عدم الإلحاح على ما تبغى أن ترينى إياه. بيد أننى سألاحظ ـ من النظرة الأولى؛ فإننى أرى وجوها عديدة طيلة النهار ـ أنك ترمى إلى محو واحد من ملامح الوجه أو آخر. ولا كذلك سأعد من الاحتشام وضعك ما صنعته من الرخام فى غرفة مظلمة.

إن الوجه الخفى حقا ـ والذى لن أعود أتلقى منه أى شىء ـ هو الوجه العادى.

إلا أنكم صرتم كالعجماوات؛ وينبغى الصياح بكم لكى تسمعوا!!

يقينا، إنك قادر على رسم بساط مزخرف، بيد أنه ليس إلا ثنائى الأبعاد. وإن خاطب حواسى؛ فإنه لا يخاطب روحى ولا قلبى.

٨٠

إن أردت أن تحدثنى عن شمس مهددة بالموت؛ فقل لى: «شمس الخريف»؛ فإنها آخذة فى الضعف، وتنتقل إليك منها هذه الشيخوخة. أما الشمس فى بداية الشتاء ـ أو فى الشتاء ـ فإنها تسترعى الانتباه إلى الموت؛ وأراك تشير لى لكنك لا تثير اهتمامى؛ فإن ما سأتلقاه منك عندئذ، ليس مذاق الموت، بل مذاق الإشارة إلى الموت. وهذا ليس الهدف المنشود.

متى رفعت الكلمة رأسها من وسط عبارتك؛ فاقطع رأسها! فما المعول عليه أن تكشف لى كلمة. إن عبارتك كمين لفريسة؛ وأنا لا أبغى رؤية الكمين.

ذلك أنك تخطئ بشأن مضمون الكلمات؛ إن ظننت الإبلاغ به ممكنا، وإلا فلصرت أنا حزينا؛ إذا ما نطقت أنت أمامى بكلمة «حزن»؛ وما الأمر بهذا اليسر! لا شك أن شيئا من المحاكاة يبتعث منك حينما تنصت؛ فيجعلك شبيها بما أتحدث عنه. إذا قلت أنا: «عصف الأمواج»؛ فإنك تترنح قليلا، وإذا قلت: «المقاتل المهدد بالموت»؛ فإن بعض القلق على المقاتل ينتابك. هذا بحكم العادة، ولا يجرى إلا على السطح. لكن ما أريد أنا إجراؤه ـ وهو وحده ما له قيمة ـ هو إرشادك إلى حيث ترى العالم على النحو الذى أردته أنا.

ذلك أنه ما من قصيدة ـ ولا من تشبيه داخل قصيدة ـ إلا؛ لكى تنفعل أنت على نحو ما. ليس ما فى الأمر تفسير هذا أو ذاك لك، بل ولا الإيحاء بأى من هذا أو ذاك إليك ـ كما يظن بعض الحاذقين ـ فإن ما فى الأمر ليس أيا من هذا أو ذاك، بل جعلك تصير هذا أو ذاك! وبمثلما أنا من النحت بحاجة إلى كل من ملامح الوجه: إلى الأنف والفم والفك؛ لأجعل دوى كل منها يعلو دوى الآخر؛ وأقتنصك فى شباكى، فأنا فى التعبير مستعين بهذا أو ذاك، الذى أوحى به إليك أو أبلغك به؛ لكى أجعلك تصير كائنا آخر.

فإذا ما استعنت بضياء القمر؛ فلا تظن موضوع حديثى وجودك أنت عندما يسطع القمر، بل إنه وجودك أنت، لا غير، وبالمثل عندما أتحدث عن الشمس أو الدار أو الغرام. إلا أننى عندما اخترت ضوء القمر كنت بحاجة إلى إشارة بها أفرض الاستماع إلىَّ؛ فما جاز لى إلا أن أنتقى من بين الإشارات إحداها. والمعجزة، هى فى فعلى الذى سيجرى، متشابها فى تنوعه بفعل الشجرة؛ إذ لم تكد ـ أصلا ـ أن تكون شيئا، إلا بذرة (والبذرة ليست شجرة مصغرة) ولكنها أنمت أغصانها وجذورها عندما امتد بها الزمن. وبالمثل بشأن الإنسان! إذا أضغت إليه ما لا يكاد يكون شيئا، وتكفى عبارة واحدة ربما؛ لإبلاغه به؛ فإن سطوتى ستتنافى فى تنوعها، وسأغير ما بهذا الإنسان فى جوهره، وسيغير هو من أفعاله، متى وجد بالدار أو متى شغل بالغرام أو متى تألق القمر.

٨١

لا تنس أن قولك فعل! لا حاجة بك إلى الحجج، إن كنت تريد دفعي إلى الفعل. أتظن الحجج هي المؤثرة في قراري؟! إن بمقدوري أن أجد منها ما يفضل ما تجادلني به.

ومتى حدث ـ في أي وقت من الأوقات ـ أن استردت المرأة المهجورة رجلها بواسطة دعوى أثبتت فيها أنها هي المحقة؟!

إن الدعوى تثير الغضب؛ ولن تستطيع المرأة استرداد رجلها، حتى إن عادت تظهر بمظهر تلك التي أحبها يوما؛ فإنه لم يعد يحبها. وقد رأيت مثل تلك التعسة تكرر أغنيتها الحزينة تلك؛ فلا تزيد بعلها إلا إصرارا على الطلاق.

ربما استطاعت استرداده إذا أعادته هو إلى ما كان عليه يوم آثرها على غيرها. لكن هذا يستلزم عبقرية مبدعة؛ لأن المستهدف هو إمداد الرجل بطاقة ما؛ مثلما أمده أنا بسبيل صوب البحر؛ حتى يصير بانيا لسفن. عندئذ؛ فلا شك أن الشجرة ستنمو وسيتغير ما بها. وسيعود ثانية إلى الاستماع لتلك الأغنية.

لكي أؤسس المحبة لي: أجعل منك واحدا تولد من أجلي. لن أحدثك عن عذابي؛ فإنه سيجعلك تشمئز مني. لن ألومك؛ لكيلا أثير غضبك.

لن أذكر لك ما يدعوك لمحبتى؛ فلا يوجد ما يدعوك لمحبتى!! المحبة سببها المحبة! ولا كذلك سأظهر بالمظهر الذى تمنيت أن ترينى به؛ فإنك لم تعودى تتمنينه؛ وإلا لما استمررت فى حبك لى، رغم تغيرى، لكننى سأرتفع بك إلى مستواى. وأريك مشهدا تتوج به محبتنا.

إن امرأة نسيتها قد جرحت كالسهم قلبى؛ إذ قالت لى: «أتسمع صوت ناقوسك المفقود؟».

فما الذى ـ فى نهاية الأمر ـ أستطيع قوله لك؟ لقد مضيت مرارا؛ لأتخذ مجلسًا فوق الجبل، وتأملت المدينة أو أصغيت إلى البشر وهم يتحدثون، مجللا بصمت حبى. ويقينا أننى سمعت أقوالا أعقبتها أفعال، كقول الأب لابنه: «اذهب إلى المنبع؛ لملء هذه الجرة»، أو قول الجاويش للجندى: «تحل عليك نوبة الحراسة فى منتصف الليل». إلا أنه بدا لى على الدوام أن تلك الأقوال لا تغمض على أحد؛ وأنه حتى المسافر العابر الذى يجهل لغة قائليها، سيفطن إلى معانيها، مثلما يستطيع أى منا التنبؤ بسلوك النمل، متى رأى منه جمعا. وأنا عندما لاحظت سلوك أبناء شعبى، فى صناعاتهم وتنقلاتهم وتجارتهم ورعايتهم لمرضاهم؛ لم أجد أيا مما يعجز عنه فصيل من الحيوان، يمتاز أفراده بشىء من القدرة والابتكار والذكاء. لكننى لم ألحظ الإنسان بعد.

فإن ما بدا لى غير مضاه لسلوك النمل، وما أمكن أن أغفل عنه لو لم أكن أعرف لغتنا ـ هو إمكان راوية للأساطير أن يفتنهم بحديثه؛ فإذا قام ليحرق المدينة تبعوه!!

يقينا، إننى رأيت حشودا طائعة، تهب بأمر مدع للنبوة؛ وتتبعه إلى حيث تلقى بنفسها فى أتون القتال. لقد وجب ألا يمكن على الإطلاق عصيان ما

ينقله الريح من تلك الأقوال؛ لكى يخالف الحشد بسماعها سلوك النمل ويتحول إلى حريق يميت أو يموت!

لقد أدركت أننا لسنا بحاجة إلى تمتمات السحرة، ولا إلى ألعابهم الوهمية؛ بما أن لبعض جمل تأثير المعجزة فى آذاننا؛ إذ تنتزعنا من ديارنا ومن أعمالنا ومن جماعاتنا، وتهون الموت علينا.

لذلك، فكلما ألقيت السمع ضاعفت انتباهى؛ كى أميز بين القول السديد، وذلك الذى لا يفيد بشىء؛ فأتعرف على ما يتم الإبلاغ به؛ فلا شك أنه ما من أهمية للبلاغ فى حد ذاته، وإلا لأصبح كل ذى لسان قائدا للبشر؛ يكفى أن يقول: «اتبعونى؛ لفعل كذا وكذا»؛ ولكن من يحاول مثل ذا ـ لاينال سوى الاستهزاء. ومثله من يدعون الناس إلى الخير، وهم ليسوا لهذا مؤهلين.

لكننى حين سمعت بعضا ممن نجحوا فى تغيير ما ببنى الإنسان، وإذ دعوت الإله إلى إنارة بصيرتى؛ فقد أنعم علىَّ بالقدرة على التعرف فى الرياح على تلك التى تنقل البذور، من بين تلك التى لا تنقل شيئا؛ ومثلها الكثير من الأقوال!

٨٢

فإنه قد عاد لرؤيتى مدعى النبوة ذاك، ذو العينين الجامدتين، الذى يكن ـ طيلة الليل وطيلة النهار ـ حفيظة بالغة، وبالإضافة إلى ذلك هو مصاب بالحول.

قال لى: «جدير بنا أن نفرض عليهم التضحية.».

وأجبته، بقولى: «يقينا؛ فإنه حسن أن يجبى ـ عن مئوناتهم ـ جزء من ثرواتهم؛ فيصيبهم بشىء من الفقر طفيف ولكنه يزيد تلك الثروات بما تكتسبه ـ عندئذ ـ من معنى؛ فإنها لا تساوى لهم شيئا، إن لم تتخذ موضعها فى وجه ما.».

إلا أنه لم يكن مصغيا لى؛ فى انشغاله التام بحفيظته.

قال: «حسن أن يغالوا فى التكفير»، أجبته، بقولى: «يقينا؛ فإنهم إن أعوزهم الغذاء فى أيام الصيام؛ فسيعرفون متعته عند الرجوع إليه، أو بالإضافة إلى ذلك سيجعلون من أنفسهم متضامنين مع أولئك الذين يصومون قسرا، أو سيتحدون بالإله؛ إذ ينمون منهم إرادة قوية، أو حسبهم أن ينجوا من مصير بالغى البدانة!».

عندئذ، ماجت به حفيظة؛ قائلا: «إنه حسن أن يعاقبوا أولا!».

وفهمت أنه لا يتحمل الإنسان إلا طريح فراش رث، محروما من الزاد ومن الضوء فى جوف سجن.

قال: «فإنه جدير بنا استئصال الشر».

أجبته، بقولى: «أنت تخاطر باستئصال كل شىء. أليس أفضل من استئصال الشر أن ينمى الخير؟ وأن تبتكر الأعياد التى تكرم الإنسان؟ وأن يكسى ثيابا تجعل قذارته أقل مما هى؟ وأن تحسن تغذية بنيه؛ فيستطيعون أن يتجملوا بما تعلمهم إياه الصلاة، دون أن تستغرقهم معاناة أمعائهم؟!

فإنما لا يتعلق الأمر بحدود توضع للخيرات المستوجبة للإنسان؛ بل بإنقاذ مجالات القوى التى تحكم وحدها قيمته، والوجوه التى تخاطب وحدها روحه وقلبه.

أولئك الذين يستطيعون صنع الزوارق، سأبعث بزوارقهم على سطح الماء؛ وهم فيها ليصطادوا السمك. أما أولئك الذين يستطيعون إطلاق السفن فسأجعلهم يطلقون السفن فى البحار؛ وهم فيها ليغزوا العالم».

قال: «أنت إذن، تريد إفسادهم بثرواتهم!».

قلت له: «إن أيا مما هو مدخر من المؤن، لا يثير اهتمامى؛ وأنت لم تفقه شيئا!».

٨٣

إذن، فإننى سأقول عن الإنسان: «إنه لكونه ذلك الذى لا تظهر قيمته إلا فى مجال القوى، لكونه ذلك الذى لا يرتبط إلا من خلال ما يعيه من مقدسات تحكم أفعاله وأفعال الآخرين.. لكونه لا يجد متعته إلا إذا بذل نفسه؛ بفضل إبداعه، لكونه ذلك الذى لا يموت سعيدا إلا إذا كان قد جشم نفسه ما يفخر به، والذى يكون كل ما يراه من تكوين له لاعجا، لكونه ذلك الذى يسعى إلى المعرفة وينتشى؛ متى اكتشف شيئا.. لكونه ذلك الذى...».

يرضينى أن أعرب عن الإنسان على نحو لا يفرض على تطلعاته الأصيلة خضوعا ولا يعرضها لتخريب. ذلك أنه إذا لزم لتأسيس النظام الإضرار بروح الإبداع؛ فلا شاغل لى ـ إذن ـ بالنظام هذا! إذا وجب محو مجال الطاقات الإنسانية لكى تمتلئ البطون؛ فلا شاغل لى بالبطون هذه! وبالمثل، فإذا اشترط إفساد الإنسان بالفوضى لكى تزيد عظمته من حيث إيحاؤه بالإبداع؛ فلا شاغل لى بإبداع على هذا النحو؛ يدمر نفسه بنفسه. وبالمثل، إذا أبيد الإنسان من أجل تنمية مجال الطاقات هذا؛ لأنه عندئذ، سيوجد مجال للطاقات، ولكن لن يعود للإنسان وجود.

إذن، فإننى أنا القائد الساهر على المدينة، لدىَّ هذا المساء ما أقوله عن الإنسان، ومن المرتقى الذى أنشئه، ستولد للترحال قيمة.

٨٤

مع العلم ـ أولا وقبل كل شيء ـ بأننى لن أبلغ على هذا النحو حقيقة مطلقة قابلة للإثبات ولإقناع خصومى؛ بل صورة تظهر إنسانًا بكامل قوته؛ مبرزة ما يبدو لى فى الإنسان نبيلا؛ ومخضعة الآخرين جميعا لهذا المبدأ.

فإنه من أوضح ما يكون، أننى لا أهتم بإخضاع قيمة عواطف الإنسان ومعارفه وحرارة مباهجه، لما يؤدى إلى رفاهيته المادية؛ بأن أجعل منه ذلك الذى يستهلك وينتج. وإن كنت أزعم أننى أمده بأقصى ما يمكن، دونما تناقض ولا تحايل؛ بمثلما يزعم أولئك الذين يهتمون برفاهية الإنسان المادية، أنهم لا يهزءون بالروح.

ذلك أن صورتى إن كانت قوية؛ فإنها ستتنامى مثلما بذرة، وبالتالى تصير وطنا بالغ التنوع. وهل رأيت مهبطا صوب البحر لم تنتج عنه سفينة؟!

وعلى نفس النحو، أرى ألا تكون الغلبة للمعارف، فالفارق بين التعليم والتربية فارق كبير. وأنا لم أقر بارتكاز قيمة الإنسان على مجموع الأفكار التى يحوزها، وإنما على قيمة الأداة التى تتيح له تحصيلها.

فإن ما لديك من مواد، لا يتغير منه شىء؛ وعليك ألا تهمل منها أيًا، ومن نفس المواد تستطيع استمداد جميع الوجوه.

أنا الذى أسود المدينة، صرت هذا المساء، كربان سفينة فى عرض البحر؛ فإنك تظن أن ما يحكم الإنسان هو: المصلحة والسعادة والعقل. لكننى أنكر ما تقوله؛ إذ بدا لى أنك تكتفى بإطلاق هذه الأسماء: المصلحة والسعادة والعقل، على ما ينحو البشر صوبه؛ وأنا الذى أسود المدينة وصرت، كربان سفينة فى عرض البحر، أعلم أن ما يحكم البشر ليس إلا الروح؛ وأن حكمها مطلق.

ولا قدرة لك على الدفاع عن نفسك ضد الروح؛ فإننى إذا أقررتك على هذا الجبل لا غيره؛ فكيف ستنكر تمثل المدن والأنهار فى ترتيب ما لا غيره؛ بما أن هذا هو الكائن، ولا شىء غيره؟!

لهذا، سأجعلك صائرا. وعلى هذا النحو، فها أنا مسئول عن توجيه المدينة إلى هدفها الحقيقى، وإن نامت المدينة تحت النجوم، واستقرأت أنت أفعال البشر؛ فلم تجد فيها سوى طلب المصلحة والبحث عن السعادة، والسعى إلى التوصل للعقل.

٨٥

على أننى فى ذلك المساء، ذهبت فى زيارة إلى السجون التابعة لى. وفيها اكتشفت أن الذين انتقاهم الشرطى؛ لكى يلقى بهم فى السجن، هم الذين أظهروا استقامتهم؛ ولم يزخرفوا القول ولم ينكروا ما فى حقيقتهم من بديهة.

وأولئك الذين ظلوا أحرارًا، كانوا هم أنفسهم الذين أنكروا والذين دلسوا! ذلك أن عليك أن تتذكر كلمتى: «أيا ما تكون الحضارة فى عرف الشرطى، وأيا ما تكون فى عرفك؛ فإن الشرطى لا يعتد - متى حيزت له سلطة الإدانة - إلا بما هو منحط؛ لأن كل حقيقة أيا كانت - إذا كانت من بين حقائق الإنسان، لا أيا مما يظنه الحمقى من المناطقة حقائق! - هى فى عرف الشرطى رذيلة وخطيئة. فإنما ذاك يريدك ذا كتاب واحد، ذا مخدوم واحد، ذا صيغة واحدة؛ لأن جهد الشرطى - متى أراد بناء السفينة - يقوم على محو البحر!

٨٦

ذلك أننى سئمت الكلمات، التى يعابث بعضها بعضا؛ ولم يبد لى من العبث أن أنشد مما فى فروضى من قيمة، قيمة حريتى.

بمثلما لبسالة الرجل فى القتال من قيمة؛ تكون لحبه قيمة.

بمثلما تكون لما يفرضه على نفسه ـ من ضروب الحرمان ـ قيمة؛ تكون لرفاهيته قيمة.

بمثلما تكون لرضاه بالموت قيمة؛ تكون لمباهجه فى الحياة قيمة.

بمثلما تكون لانضباطه قيمة؛ تكون قيمة لما يتمتع به من مساواة، والتى أسميها تحالفًا.

بمثلما تكون لإبائه منافع الدنيا قيمة؛ تكون لإقباله على نفس خيرات الدنيا تلك قيمة.

بمثلما تكون لخضوعه التام للملكة قيمة؛ تكون قيمة لكرامته كفرد.

ومن ثم، فلتقل لى: «ما هو الإنسان المتوحد بنفسه ـ إن كنت تدعى إيثاره؟ ـ فلطالما رأيت أمثاله فيمن لدى من مصابين بالبرص!».

ولتقل لى: «ما هو المجتمع الثرى الحر ـ إن كنت تدعى إيثاره؟ ـ فما أبلغ تجسيد الأفارقة الذين آواهم أبى، لذلك المجتمع!!

٨٧

ذلك أننى أجبت أولئك الذين عجزوا عن فهم فروضى، قائلا: «ما أشبهكم بالطفل الذى لم يدرك من الدنيا إلا صورة الجرة؛ يظن أنه لا يوجد غيرها، بمثلما يظن كلا من الديار على شاكلة دار أبويه؛ فإذا انتقل به إلى دار غيرها؛ ظنها اعوجاجا وتشويها للصورة الأصيلة للدار!! وكذلك، فعندما تعرف بتأسيس الإنسان فى المملكة المجاورة، على نحو مغاير لذلك الذى تأسست أنت عليه، ويكون ذلك الإنسان مختلفا عنك فى معاناته وتفكيره وحبه وتألمه وبغضه؛ فإنك تتساءل عما حدا بأولئك على تشويه الإنسان، لهذا فأنت ضعيف؛ فإنك لن تحفظ البنيان المعمارى للمعبد إذا جهلت ما فى تصميمه من دقة، وأنه انتصار للإنسان على الطبيعة، وأن فى مواضع ما منه قناطر وأعمدة وأسقف ودعائم تسانده.

وأنت لا تدرك ما يتهددك من أخطار؛ لأنك لا ترى فى صنيع الآخر إلا تأثيرا لضلال قليل الدوام، ولا تفهم أن انقطاع الإنسان عن التوالد، هو تهديد بالغرق إلى الأبد.

وتظن نفسك حرا، ويسوؤك أن أحدثك عما أسنه من فروض. وما هى فروض يتمسك بها شرطى متعسف لا يرى للعيان؛ وإنما تكتسب سطوتها من احتجابها، شأن الباب الذى لا تستشعر منه تعديا على حريتك؛ وإن

اضطررت إلى السير بحذاء الحائط؛ سعيا إليه لكى تستطيع الانتقال من حجرة إلى أخرى.

لكن إذا أردت أن يتبدى لك مجال الطاقات المؤسس لك وجاعلك على هذا النحو ـ من التحرك والمعاناة والتفكير والوقوع فى الحب والتعبير عن الألم، والإحساس بالكراهية ـ لا غيره؛ فابحث فى جارك عما يقيده؛ حيث يبدأ هو فى تقرير ما سيفعله؛ وعندئذ، سيغدو لك مفهوما.

وإلا فستجهله على الدوام؛ فإن الحجر الذى يسقط لا يحتمل القوة التى تجذبه إلى أسفل، الحجر لا زنة له إلا وهو ساكن.

إنما لا تعرف من يحركك إلا عندما تشرع فى المقاومة. والورقة فى مهب الريح لا تعرف الريح، كما أن الحجر المنفلت لازنة له.

ولهذا لا تعود تبصر الفرض الجسيم الذى يثقلك، ومثله كمثل الجدار. لا يتبدى لك؛ إلا إذا خطر بذهنك ـ مثلا ـ أن تشعل فى المدينة حريقا.

بمثلما لا يتبدى لك فرض من أبسط الفروض: هو لغتك.

إن كل اصطلاح هو فرض، وإن كان لا يتبدى.».

٨٨

إذن، فقد درست كتب الأمراء، والمراسيم الصادرة إلى الممالك، وطقوس مختلف الديانات، وترتيبات الاحتفالات بالزيجات وبالمواليد، التى لشعبى والتى للشعوب الأخرى، التى كانت فى الماضى والتى لا تزال فى الحاضر؛ ساعيا إلى قراءة الروابط بين البشر، والقوانين التى استنت لتأسيسها وتدبيرها وإدامتها، ولم أستطع اكتشافها.

إلا أننى فى تعاملى مع أولئك القادمين إلىَّ من المملكة المجاورة؛ حيث سادت طقوس للتضحيات؛ قد أكتشف تلك الطقوس بكل ما فيها، ورغم اختلافها عما يتبع فى بلادى من طقوس.

لم يدهشنى هذا الاختلاف، بما أننى عرفت ـ طيلة حياتى ـ أن البشر يختلفون فيما بينهم؛ رغم أن الاختلافات لا تظهر فى البداية، ولا يعبر عنها بكلمات، بما أنك تستعين بمن يترجم لك لغة قوم لا يتحدثون لغتك؛ فيبحث المترجم فى لغتك عما يشابه ـ على أتم نحو ـ ما يذكر فى لغتهم؛ فيعبر لك عن الحب ـ إن ذكروه فى حديثهم ـ بالكلمة المقابلة له فى لغتك: كلمة «الحب»، وكذلك عن العدالة أو الغيرة، فتسعد أنت بما تكتشفه من تشابه، بالرغم من اختلاف مضمون كل كلمة فى لغتهم عنه فى لغتك؛ وإذا واصلت تحليل الكلمات، فى ترجمة إثر ترجمة؛ فما أنت

بباحث إلا عن التشابهات، ولا أنت بعاثر إلا عليها، وكما يحدث دائما؛ لن تفلح بتحليلك فى الاستحواذ على ما كنت تتمنى إدراكه.

ذلك أنك إذا أردت فهم البشر، فعليك ألا تستمع إلى حديثهم.

إلا أن الاختلافات طاغية؛ فما الحب ولا العدالة ولا الغيرة ولا الموت بما يتشابه مضمونه فى لغة بمضمونه فى أخرى.

يقينا، إننى فى شبابى قد اصطدت الفهود؛ مستعينا بالكمائن: كنت أضع فيها الحملان لكى أجتذب الفهد، ومتى عدت فى فجر اليوم التالى وجدت الفهد أسير الكمين. وأنت إذا عرفت طبائع الفهود؛ فستستطيع نصب الكمائن لها. ولكن إذا درست تكوين الكمين دون أن تكون عليما بطبائع الفهود؛ فلن يفلح ما تنصبه فى اقتناص أى منها.

فلا المؤرخون ولا المناطقة ولا النقاد، بقادرين على تعليمك أسرار الاقتناص، بل إنك تتعلمها من فريستك.

٨٩

إلا أننى استطعت اكتشاف السدود التى تدعم الإنسان. وقع هذا مصادفة، وأنا أتجول فى ريف أجنبى، يوم أبطأت خطى حصانى؛ متخذا طريقا يربط قرية بأخرى. ولأمكن أن يجتاز السهل مباشرة، ولكنه حاذى منعطفات أحد الحقول؛ واستغرق منى ذلك الانعطاف وقتا ندمت على فقدانه. وقد تأثر قرارى برقعة متسعة من الأرض زرعت بالشوفان، ولو تركت نفسى أنقاد لغريزتى؛ لسرت فى خط مستقيم؛ ولكننى تأثرت فى قرارى بأوضاع الحقل، واستهلكت رقعة الشوفان بعضا من حياتى! فقد كلفنى الدوران حولها دقائق أمكن أن أفيد منها فى غير ذلك، والحقل هو الذى انتصر علىَّ؛ فقد رضيت بأن أدور، بينما كان فى مقدورى أن أخوض الشوفان بجوادى. لقد بجلت الشوفان، بمثلما أبجل المعبد. ثم مضى بى طريقى بحذاء ضيعة تحدها الجدران، والطريق - فى حفظه حرمة الضيعة - ينعطف فى منحنى، ترغم تعرجات الجدار سالكه على إبطاء خطاه. ورأيت خلف الجدار أشجارًا يفوق تلاصقها، ذلك الذى لأشجار واحاتنا، وبريق مياه رقراقة يلوح من خلف فروع الشجر. وخريرها سمعته يشق الصمت، ثم مررت ببوابة. تعلوها أوراق خضراء. وهناك تشعب الطريق أمامى؛ لتقضى إحدى شعبه إلى داخل الضيعة. وأثناء هذا الطواف البطىء - وجوادى يتعثر بين الأخاديد، أو يجذب الأعنة كى يقضم

الأعشاب القصيرة بحذاء الجدران ـ اعترانى شعور بأن ما اضطرنى إليه طريقى من انعطافات مدروسة بعناية، ومن تفاديات، وصبر على الوقت الضائع؛ كالذى يستعين من ينتظر إذن ملك بدخوله عليه؛ ما اضطرنى إليه طريقى، كأنما رسم وجها ساميا، وأن كل من اتخذوا نفس الطريق ـ معانين الاهتزازات فى مركباتهم، أو مستنيمين إلى هدهدات أتنهم ـ يجرون دون أن يدركوا؛ تدريبا على الحب.

٩٠

قال أبى: «إنهم يظنون أنفسهم يزدادون ثراء حين يزيدون حصيلتهم من الكلمات. ويقينا أننى لقادر على استخدام كلمة زائدة أميز بها الدفء، الذى تبعثه الشمس فى أحد الشهور، عن ذلك الذى تبعثه فى سائر الشهور؛ فأقول: «شمس أغسطس». إلا أننى لا أدرك ما يمكن أن أربحه بهذا؛ فإن الشمس هى الشمس. وعلى العكس أكتشف أننى أضفت الشمس إلى ما يختص به هذا الشهر من ثمار ونباتات؛ بينما لا تختلف فيه الشمس عنها فى غيره من الشهور. نادرة هى الكلمات التى تجعلنى أربح شيئا ما؛ بتعبيرها بداية عن نظام من العلاقات يمكننى تطبيقه على مختلف المواقف، من هذا القبيل كلمة: «الاحتياج»؛ فإنها تعيننى على تمييز وضع ما من آخر. إذن، فبوسعى أن أقول: «إن الظمأ احتياج إلى الماء»؛ لأن من رأيتهم يتعذبون بظمأهم، مختلفون عمن رأيتهم يتعذبون بما بهم من مرض أليم، حتى إن كان الطاعون البشع؛ فإن المرض لا يبعث من ضحيته إلا أنات خافتة. أما الاحتياج إلى الماء فيعبر عنه بصرخات مدوية؛ لأن ما يعانيه يعرف هو دواءه، ويرى بعين الخيال غيره يشرب منه. ومثله من يعانى الاحتياج إلى الأنثى؛ فليست آلامه آلام المريض، بل آلام الظمآن. آلامه تنبع من إيمانه ومن حبه ومن خياله؛ لأن المرء يحيى فى ملكوت لا يحوى أشياء، بل معانى للأشياء.

أما كلمة: «شمس أغسطس»؛ فإنها قليلة النفع لى؛ لأن بها تخصيصا مبالغا فيه.

وعلى النقيض سأزيدك قوة إذا دربتك على أساليب تتيح لك نصب مختلف الكمائن وأسر العديد من الفرائس، وإن ظللت تستخدم نفس الكلمات! فمن ذلك عقد الحبل: إذا صنعت منها ما يستخدم لصيد الثعالب أو إقامة أشرعة السفن التى تسرع بها. وما الأفعال التى أستخدمها ولا الجمل الاعتراضية التى أقحمها، ولا أى من إمكانات اللغة التى أطوعها؛ إلا مناورة أريدك أن تتقن القيام بها؛ وعندئذ، ستستطيع أن تنقل إلى غيرك ما تطمع فى نقله إليه، أو تستوعب من الكتاب ما تطمع فى استيعابه منه.».

وأضاف أبى، قوله: «إن بلوغ الوعى هو ـ أولا ـ اكتساب الأسلوب».

وعاد يؤكد كلامه، قائلا: «إن بلوغ الوعى ليس بتلقى بضاعة من الأفكار لتخزينها؛ ما من أهمية لما لديك من معلومات؛ ما لم تكن أهدافا ووسائل لحرفتك، التى قد تكون بناء الجسور أو استخراج الذهب، أو إنباء المستفسر عن مواقع المدن والأنهار. لكن هذا المخزون ليس هو الإنسان، ولا كذلك يكون بلوغ الوعى بزيادة حصيلتك من الكلمات؛ فما لتزايدها من هدف سوى أن يتيح لك المضى إلى أبعد مما بلغت؛ بالموازنة بين احتياجاتك؛ لكن قيمة أسلوبك هى الضمان الوحيد لقيمة أعمالك، وإلا فما أنا بحاجة إلى هذه المختصرات لفكرك. أوثر سماع كلمة: «شمس أغسطس»، التى تبدو لى محسوسة بأكثر مما يبدو لى ما أضفته أنت إلى حصيلتك، وتخاطب عينى وقلبى. إن أحجارك أحجار، ثم متى جمعت صارت أعمدة، وتصير الأعمدة معابد. لكننى لم أتح لك تلك المجموعات التى تكبر كل منها سابقتها؛ إلا بفضل إبداع المعمارى الذى كلفته بالبناء،

والذى آثر أن يجعل منها فى كل مرة عملا يفوق سابقه فى أسلوبه. وأنت فى جمل اللغة ـ أيضا ـ تقوم بعمل؛ وهو ما يعول عليه أولا».

قال أبى: «إليك هذا الهمجى: تستطيع أن تزيد حصيلته من الكلمات؛ وسيتحول إلى ثرثار لا حد لكلامه. لك أن تحشو مخه بمجموع معارفك؛ وسيغدو هذا الثرثار دعيا مزهوا؛ ولن تستطيع كبحه. وسينتشى بهذا الهذر الأجوف. وأنت ـ يا من عميت عن الحق ـ ستقول فى نفسك: «كيف أمكن أن ينحط بهذا الهمجى ما لدى من علم، لا أن يرتقى به؟! كيف أمكن ألا يجعل منه الحكيم الذى رجوته، بل هذا الحطام الذى لا حاجة لى به؟! ما أبلغ إقرارى ـ الآن ـ بأنه بجهله كان أعظم وأنبل!!

ذلك أن الهدية الوحيدة التى وجب أن تقدم إليه ـ تلك التى نسيتها أنت وأهملتها أكثر فأكثر ـ هى تعليمه أسلوبا يستخدمه؛ فعندئذ، تراه يتجه صوب مراحل من الذهن، هى للإنسان صعود وارتقاء (بدلا من أن يلعب بموضوعات المعرفة، وكأنها كرات ملونة؛ فيسر بما تحدثه من صوت وينتشى بقدرته على مطايرتها وتلقفها)، وتراه مبديا التحفظ والتفكر الصامت، كمثل الطفل الذى تلقى منك لعبة فلم يستطع سوى أن يصدر بها صوتا. وإذا هو يتعلم منك كيف يكون من أجزائها أشكالا؛ وعندئذ، تراه يصمت ويتفكر، ويعتكف فى ركن من حجرته، مقطبا جبينه؛ وقد بدأ دخوله طور الرجل.

علم ذلك المتخلف إذن، القواعد واستخدام الأفعال أولا، والمفعولات أيضا!! علمه كيف يفعل قبل أن تعهد إليه بما يمكن أن يفعل به شيئا. وأولئك الذين يحدثون كثيرا من الجلبة، الذين يثيرون ـ كما تقول ـ كثيرا من المسائل؛ ويعيونك: ستلاحظهم إذ يكتشفون الصمت...

الصمت؛ الذى هو الدلالة الوحيدة على القيمة.».

٩١

هكذا هى الحقيقة عندما أستعين بها.

وأنت تندهش! بيد أننى أعرف أنك لا تندهش، متى صار الماء الذى تشربه، والخبز الذى تأكله نورا للعيون، ومتى صارت من الشمس أغصان وفاكهة وبذور. ويقينا أنك لن تجد فى الفاكهة أيا مما يشابه الشمس، ولا فى شجرة الأرز أيا مما يشابه بذرة الشجرة.

فإن وليد الكائن ليس شبيها به.

أو بالأحرى أطلق أنا اسم «التشابه» على شىء لا يسترعى منك الأعين ولا الذهن، بل الروح وحدها. وهو ما أعنيه بقولى: «إن الخليقة هى على صورة الخالق، والفاكهة على صورة الشمس، والقصيدة على صورة موضوعها؛ والإنسان الذى أخرج به منك، على صورة طقوس المملكة».

إن لهذا أهمية بالغة؛ فمتى فاتك أن تتعرف بالأعين على ارتباط لا تعرف إلا الروح معناه؛ فإنك ترفض شروط عظمتك، تتشابه بالشجرة التى ترفض الشمس؛ لأنها لم تلق فى الفاكهة دلائل الشمس. أو بالأحرى مثل الباحث الذى لا يعثر فى العمل على الحركة ـ المستعصية على التعبير ـ

التى صدر عنها؛ فيستخلص ما يستطيع العثور عليه من القوانين الداخلية؛ ثم يصنع عملا فيه تطبيق لهذه القوانين، ويجعل من يسمعه يفر منه.

إنما فى ذا ما تتميز به راعية الغنم ـ أو النجار أو المتسول ـ عن جميع المناطقة والمؤرخين والنقاد الذين فى مملكتى؛ فإن ما يميز أولئك هو أنهم يسوؤهم أن يفقد دربهم الضيق تعرجاته. فإذا سألتهم: «لماذ؟»؛ لأجابوك بأنهم مدفوعون بالمحبة. وهذه المحبة: هى المورد الغامض لما يغتذون عليه. وبما أن دافعهم هو المحبة؛ فلا بد أن يحظوا بشىء ما. وما من أهمية لعدم استطاعتك أنت التعبير عن هذا الشىء. ليس سوى المناطقة والمؤرخين والنقاد من لا يقبلون من العالم إلا ما يستطيعون صياغته فى جمل. ذلك أن ما أظنه أنا، هو أنك أنت أيها الرجل البسيط، لست إلا شارعا فى تعلم لغة تتفاهم بها؛ وتتخبط وتجاهد للتدريب عليها، ولا تدرك ـ بعد ـ من العالم إلا غشاء رقيقا؛ لأنه أثقل من أن ينقل.

أما هؤلاء فليسوا قادرين على الاقتناع بسوى ما فى بضاعتهم القليلة من الأفكار من مضمون هزيل.

إذا ما أنكرت معبدا شيدته أنا، أو طقوسا فرضتها، أو دربا متواضعا فى الريف أسلكه؛ لأنك غير قادر على إبلاغى بالهدف من التواصل ولا بمعناه؛ فثق أننى سأعمل على إذلالك؛ فإنك تستقبل من الزوار من لا تعرف أسماءهم، بالرغم من أنك تفتقر إلى الكلمات، التى يمكنك أن تدهشنى بدويها، بمثلما إلى الصور المقنعة، التى يمكنك أن تلوح لى بها باعتبارها براهين ملموسة. هل استمعت ـ فى أى وقت من الأوقات ـ إلى الموسيقى؟ لماذا تستمع إليها؟!

أنت تشارك فى الإقرار بطقوس غروب الشمس على البحر؛ باعتبارها بالغة الجمال. ألك أن تقول لى لماذا؟!

وأنا أقول: «إنك إذا امتطيت أتانك على طول ذلك الدرب من الريف الذى حدثتك عنه؛ فهناك يتغير ما بك. وما لأهمية كبيرة لعدم استطاعتك ذكر السبب.

لذا، فإن الطقوس جميعا ـ وكذلك التضحيات والسبل ـ تتفاوت ضروب كل منها فيما بينها تفاوتا كبيرا، من حيث القيمة: فمنها ما هو سيىء، مثلما من الموسيقى ما هى مبتذلة، بيد أننى لا أعمل العقل بهدف التمييز؛ فما أنا براغب إلا فى إشارة واحدة، هى أنت.

إذا أردت تقييم القصيدة أو الطقوس أو الدرب، أو أى مما يفرض علىَّ أن أقيمه ـ نظرت إلى الإنسان المنبعث منه، أو تسمعت دقات قلبه.

٩٢

هبت ريح محملة بالغبار فجاءتنا ببقايا واحة نائية؛ وامتلأ معسكرنا بالطيور، وجد منها داخل كل خيمة، شاركتنا الطيور حياتنا؛ ولم تكن بالخجولة؛ تنشد أكتافنا لتحط عليها. إلا أن الآلاف هلكت منها فى كل يوم؛ إذ أعوزها الغذاء. وسرعان ما تراكمت حول أقدامنا جثثها، يابسة منقصفة، مثل لحاء الأشجار المتردية. ولأنها هددت بتلويث الهواء؛ فقد أمرت بحجمها وملأت بها سلالاً كبيرة. وتكرر إلقاء هذا الغبار فى البحر.

عندما عرفنا الظمأ لأول مرة، صار السراب لنا عزاء؛ وإن إلى حين. وأصيب أحد الرجال بالجنون وصاح وانطلق صوب السراب، وفهمت أن صيحته ستستثير الآخرين؛ مثلما تستثير صيحة البطة المهاجرة سائر الفصيلة، وأن الرجال قد ينطلقون وراءه إلى السراب وإلى العدم. ورصاصة من غدارة وضعت حدا لمغامرته؛ ولم يعد سوى جثة، ولم يعد إلينا الاطمئنان إلا بسقوطه.

وبكى أحد جنودى، وقلت له: «مابك؟»؛ ظننته يبكى الميت. لكنه كان قد اكتشف عند قدميه بعضا من اللحاء اليابس المتقصف؛ وأجابنى بأنه يبكى سماء خلت من طيورها.

قال: «عندما تفقد السماء زغبها؛ فقد صار بدن الإنسان مهددا!!».

ومن أعماق البئر أصعدنا العامل الموشك على الإغماء، لكنه استطاع أن يفهمنا بإشارة أن الأمل فى العثور على الماء معدوم. واتجهنا صوب الشمال؛ لكى نبحث عن الماء فى بئر أخرى. وقرب تلك؛ فوجئنا بأسراب من الغربان حجبت عنا ضوء القمر، وقتلنا منها ثلاثة آلاف؛ فقد باتت مئونتنا من الغذاء ضئيلة، وأقمنا مواقد فى الرمال للطهى؛ وما أروعها من وليمة!

ومن خلال تزاحم الرجال حول البئر وحول الطعام؛ رأيت بعينى خيالى المدينة التى سأسودها، وبها المعابد والحدائق المعلقة، وتحيط بها الأسوار، وتعلوها النجوم.

٩٣

سرعان ما تراءت لنا المدينة. إلا أننا لم نكتشف منها شيئا؛ سوى أسوار ذات ارتفاع استثنائى، ولا فتحات بها. بدت وكأنها تدير لنا ظهرها؛ نحن الذين اعتدنا من المدن أن تبادلنا النظرات، وكلما أتينا على مدينة بدت لنا أنها تهب لنا نفسها، والمدينة كالأنثى: تصدك أو تغويك، تقيم أبراجها لكى تقاومك، وترقبك من خلال ما فى أسوارها من فتحات، وتغلق أبوابها فى وجهك. أو تفتحها لاستقبالك؛ وتنشد حبك ومودتك، وتبتسم وتدير صوبك وجهها مزينا مجملا.

لكن هذه أكدت لنا أنها تصدنا؛ وأسوارها تكبر كلما اقتربنا منها، وقضينا أول الأيام دائرين حولها، باحثين عن ثغرة أو منفذ؛ ولم نجد. ولما تأكد رجالى من حصانة المدينة؛ تملك بعضهم الفزع؛ فإن تلك المدينة لم تكن فى أى وقت قد بعثت بأى من القوافل أو استقبلت أيا منها، ولم يجئها أى من الرحالة حاملا مع متاعه عدوى تقاليد متبعة على مبعدة منها، ولم يجلب لها أى من التجار أداة، جرت العادة على استخدامها فى غيرها من المدن، ولم تعرفها هى بعد، ولا غيرت من تكوين سكانها فتاة جيء بها أسيرة؛ فجاءت منها سلالة تختلف صفاتها عن تلك التى لأهل المدينة. وشعر رجالى بأنهم كمن يتحسسون إهابًا وحشيًا غريبًا، لا يشترك فى صفاته مع أى مما عرفوه.

على أن بعضا آخر من رجالى، قد خامرهم حب فريد يصعب التعبير

عنه؛ مصدره هذا الثبات والصمود، وهذه الأصالة، وهذا النقاء. وشعرت أنا ـ أيضا ـ مثلهم بأننا مجذوبون إلى ما هو بمستعصٍ علينا. وفى ظلمة المساء غلب علىَّ انطباع بأننا نحن المعرضون للأسرِ، لا المدينة. وقلت فى نفسى «إنه إن كانت هذه الأسوار تخفى آلات موسيقية لم نعرفها بعد، وفتح رجالى المدينة وانتشروا فيها؛ فلربما وجدتهم مأخوذين بهذه الآلات، جاعلين همهم تعلم عزفها؛ فهل غزونا نحن المدينة، أم هى التى ـ عندئذ ـ ستغزونا؟! فإن الموسيقى التى سيتعلمون عزفها؛ ستؤثر فى قلوبهم؛ وهى التى لم يألفوها من قبل ولم تعتدها آذانهم».

يكفى أن يكون مقيما بتلك المدينة حكيم واحد، يحتمى بصمته الجليل؛ لكى يحبط قوة الجيش الغازى. وكيف سأميزه؛ لكى أضرب عنقه قبل أن يتماس برجالى؟ لقد كنت قادرا على تمييز المجنون. أما الحكيم، فهو كالبذرة لا يرى منه إلا نتاجه. ومن نتاجه تكون كل ملامح الواقع الذى نعيشه جميعا، ولا ينفرد بصياغته أحد.

إن كل معنى مجعول فى معنى الآخرين؛ شئت أو أبيت. ما يروقك هو ما يروق الآخرين؛ شئت أو أبيت. قيامك بحركة فى مباراة، أو بخطوة من رقصة. أنا أغير المباراة أو أغير الرقصة؛ فتستبدل أنت بفعلك فعلا آخر؛ فما مصدر حياتك من الأشياء، بل من معنى الأشياء.

لقد ظن أهل هذه المدينة أنهم أحسنوا صنعا بالاحتماء بأسوارهم؛ وسيلقون عقابهم.

فإنما السور الوحيد الذى يعد الاحتماء به صنيعا حسنا، هو الذى يفرض قوته على من يحتمى به بأكثر مما على من يحاول اقتحامه. ولحاء شجرة الأرز ما هو الآخر إلا ثمرة البذرة. الجذور واللحاء والأوراق كلها تعبير البذرة عن نفسها. وقوتك أنت هى ما تعبر به عن نفسها بذرتك؛ وبمرور الزمن يتاح لك قياسها.

٩٤

على هذا النحو، تفكرت مليا فى التحصين؛ إن التحصين الحقيقى فيك أنت. هذا يعرفه ـ تماما ـ أولئك الجنود الذين يلوحون لك بسيوفهم؛ فلا تعود تستطيع المرور. الأسد ليست له درقة، لكن لضربة مخلبه مضاء البرق؛وإذا وثب على بقرتك؛ لشقها نصفين وكأنها قربة لينة.

ستقول لى: «إنه مرهف بلا شك، ذلك الطفل الصغير، والذى سيغير العالم عندما يشب؛ فلو نفخ فيه ـ فى أيامه الأولى مثلما فى الشمعة ـ لانطفأ، لكننى شهدت موت ابن إبراهيم: ذلك الطفل الذى كانت ابتسامته ـ عندما كان فى تمام صحته ـ هدية. كانوا يقولون له: «أقدم»؛ ويقدم إلى المسن ويبتسم له. والمسن تنيره الابتسامة، ويربت على وجنة الطفل الذى حيره ما يجب عليه أن يقوله للمسن؛ فإن الطفل مرآة تصيب بالدوار قليلا، أو نافذة. فإن الطفل ـ دائما ـ يخجلك، كأنه يستأثر بمعارف؛ وما أنت بمخطئ؛ فإنه حديد الذهن من قبل أن تستطيع كبح نموه، وبثلاث من الحصى يستطيع أن يصنع لك أسطولا. ولا شك أن المسن لا يلمح فى الطفل قائد الأسطول المقبل، ولكنه يعترف بهذه القوة. كان ابن إبراهيم، كالنحلة التى تغترف مما حولها؛ لتجعل منه عسلا، وإذا ابتسم كشف عن أسنان بيضاء كاللبن. من رآه يبتسم؛ ظل فى مكانه غير متأكد مما عليه أن يستخلصه من تلك الابتسامة، لكأنها فرصة رائعة لا يعرف

رائيها كيف يغتنمها. وهو بطفولته يعلم الرائى الكثير؛ فإن التعليم الحقيقى ليس بالكلام، وإنما بالإرشاد. كان كالراعى الشاب، الذى يقود البهائم الطاعنة فى السن، وتقول عنه: «إنه طفل هزيل»؟! أين هزاله هذا؟! هل يقود الجيوش هزيل؟

من يرى البذرة يحسبها هشة، وأى هشوشة فى تلك التى تجتذب الأملاح المعدنية وتعلو منها شجرة الأرز ذات المعقل الصلب من لحائها، وما هشوشة النطفة، إن كان نتاجها آدميا: يجمع حوله الأصدقاء ويرهب الأعداء؟! أنت تحكم على البذرة لحظة رؤيتك لها. لكنك تغفل عن الزمن، الزمن ينشئ الجذور؛ ومن البذرة ستكون الشجرة الصاعدة إلى السماء، ومن الطفل سيكون البطل الذى يقهر العمالقة.

٩٥

جاء المساء، واخترت العليا من بين ربى البقعة؛ كى أرتقيها، وأرقب المدينة فى نومها، وأنوار معسكرى تنطفئ واحدة تلو الأخرى؛ ليتحول إلى مجموعة من النقاط المظلمة تحتضن المدينة فى الصحراء. وهدفى هو استقصاء الأمور؛ عالما أن جيشى هو قوة متحركة، وأن المدينة قوة معبأة، كشحنة البارود. وعالما أن عبر هذا المشهد لجيش يحتشد حول ما يستقطبه، يمثل مشهدًا آخر آخذًا بعد، فى التشكل؛ وتمتد جذوره. هذا المشهد الذى لا أستطيع معرفة شىء عنه بعد، ترتبط فيه نفس العناصر بعضها بالبعض؛ وإن كان على نحو مختلف. وسعيت فى ظلام الليل إلى استقراء علامات ذلك التشكل الغامض؛ بهدف التحكم فيها، لا التكهن بها.

ذلك أن الجميع سكنوا إلى النوم، وبقى الحراس وحدهم مستيقظين. أما الحاكم، فها هو كزورق فى نهر الزمن! وعليه يمر كل من الصباح والظهر والمساء، ولكل ضوء يتميز به، حتى ساعة الرقاد، ثم انطلاقة الليل الصامت وقد طال انزواء الشمس. فإذا تسارع إيقاع الحياة باقتراب الليل؛ فإن الليل ينساب بنعومة، ويستضيف الأحلام. فى النهار لا تحتاج الأعمال إلى من ينجزها؛ كمثل الجرح يندمل من تلقاء نفسه، أو جذع الشجرة يستقى من الأرض ما يعينه على النمو. أما الليل، ففيه يعمل الخدم؛

لأن السيد قد سكن إلى النوم. الليل فيه إصلاح الأخطاء؛ فإن تركت إلى الصباح ظهرت آثارها. وحتى الأمجاد، لا تظهر آثارها قبل الصباح؛ فإن كنت منتصرا ليلا، أرجأت انتصارى إلى غد.

فى الليل تنتظر الكرمة حصاد الأعناب، والليل يدخرها، الليل يرجئ الحصاد. فى الليل يحاصر الأعداء المدينة، ثم يداهمونها فى الصباح. فى الليل تتخذ التدابير؛ ولكن من يدبر يسكن إلى النوم: التاجر يسكن إلى النوم، ولكنه يعهد بتعليماته إلى المكلف بالمراقبة ليلا؛ وهذا يروح ويجيء (مقاوما النوم). والقائد يسكن إلى النوم، ولكنه يعهد بتعليماته إلى الحراس. والربان يسكن إلى النوم، ولكنه يعهد بتعليماته إلى الممسك بالدفة؛ وهذا يستهدى بنجمة الليل؛ كى لا تضل السفينة فى البحر. فى الليل يعتنى بإلقاء التعليمات، وترجأ الإبداعات إلى غد.

بيد أنه فى الليل يمكن الاحتيال أيضا! فيه يجنى السارقون ثمارا محرمة، وتشعل الحرائق فى المستودعات، ويستولى الخونة على القلاع، فى اليل تصاعد الصيحات وتدوى. فى الليل قد تصطدم السفينة بالصخور، فى الليل تقع المفاجآت وتحدث الاستثناءات، فى الليل ينزل الإله بك المحن؛ فما أدراك أن محبوبتك لن تهجرك قبل نهايته؟!

فى الليل يسمع أنين عظام البدن، وكلما سمعته تذكرت أن علىَّ أن أحرر ملاكا مجهولا تفرق بين قومى شتاتا!!

فى الليل تدفن البذور حتى يتم لها نتاج.

الليل صبر الإله.

٩٦

أنا أدين غرورك، لا كبرياءك؛ فإن رقصك أفضل من رقص غيرك، فلم تقلين من فضلك، بإذلال نفسك أمام من تسيء الرقص؟ إن من بين صور الكبرياء: حب الرقص الذى يؤدى بإتقان.

إلا أن حب الرقص ليس حبك لنفسك أنت، يا من ترقصين! إن كنت تستمدين من صنيعك معناك؛ فإن صنيعك لا يستمد جلاله منك! ولن تكتملى أبدا؛ إلا بالموت. وحدها المغرورة هى التى ترضى عن نفسها؛ وتقطع مسيرتها لكى تتأمل صورتها، ويستغرقها هيامها بنفسها. ليس لها ما يمكن أن تتلقاه منك، سوى التصفيق! إلا أننا نحتقر مثل هذه الشهية؛ نحن الذين نسير ـ مثل البدو ـ نذرع الفيافى، صوب الإله؛ فما من شىء يمكن أن يرضينا.

إن المغرورة قد حكمت على نفسها بإيقاف مسيرتها، ظانة أن ملامحها قد تكتمل قبل ساعة الموت؛ ولهذا فلن تستطيع ـ بعد ـ أن تتلقى شيئا ولا أن تعطى شيئا: على غرار الموتى بالتمام والكمال!

إن تواضع القلب لا يقتضى من صاحبه إذلال نفسه؛ بل أن ينفتح. إنه مفتاح البذل. عندئذ؛ يمكن للمرء أن يعطى وأن يتلقى، عندئذ فقط! إن كلا من العطاء والتلقى كلمة تفتح ذات الطريق؛ وما أنا بقادر على التمييز

بين الكلمتين. ليس التواضع خضوعا للبشر؛ بل للإله، كذلك ليس الحجر خاضعا لغيره من الأحجار؛ بل للمعبد. من يخدم، فإنما يخدم ما أبدع: الأم تتواضع للطفل، والبستانى يتواضع للوردة.

أنا الملك، سأمضى دون حرج فأتقدم للعامل كى أتعلم منه؛ فإن ما يعرفه عن العمل يفوق ما يعرفه الملك، وفى امتنانى له؛ لأنه علمنى، سأشكره عالما أننى أظل عزيزا لا أذل؛ فإن من الطبيعى أن يكون مسار العلم بالعمل، من العامل إلى الملك. إلا أننى المحتقر لكل غرور، لن أنشد إعجابه بى؛ فإن مسار التقدير يكون من الملك إلى العامل.

من لاقى فى حياته تلك التى جعلت ـ واهمة ـ من نفسها وثنا معبودا ـ يعرف ما تتلقاه مثلها من الحب؛ إن كل شىء يبدو لها تحية، حتى بهجة المرء بلقائها. إلا أن قيمة التحية تزداد بزيادة ما تقتضيه؛ فإن رأت ملاقيها يتعذب، زاد استمتاعها.

إنها تفترس دون أن تتغذى، تستولى على رجلها؛ كى تجرح منه شرفه. إنها شبيهة بالموقد الذى تحرك فيه الجثث، إنها ـ هى البخيلة ـ تثرى من حيازات باطلة؛ ظانة أنها ستجد متعتها فى هذا التراكم. إلا أنه لا يتراكم لديها سوى الرماد؛ فإن الانتفاع الحقيقى من العطايا هو بمبادلتها بمثيلاتها، لا بحيازتها.

لأنها لا تدرك العطايا إلا كبراهين على حب الآخرين لها؛ فستحرص على ألا تهديك فى مقابلها مثيلا لها. لأنها تفتقر إلى ما يمكن أن ترضيك به؛ فإن تحفظها الزائف سيزعم لك أن التواصل لا حاجة له إلى رموز تؤكده. وفى هذا دليل على العجز عن الحب؛ لا على الارتقاء به. إن النحات إن احتقر الطين؛ فلن يشكل سوى الهواء. إن احتقر حبك الرموز المؤكدة للحب ـ بحجة بلوغ الجوهر ـ فإنه لا يعود سوى كلام. أريد لك

أمانى وهدايا ودلائل: أستستطيع مواصلة حبك لأملاكك إذا انتزعت منها ـ واحدة تلو الأخرى ـ الطاحونة والقطيع والدار، باعتبارها أشياء فائضة؛ لا تتمتع بصفة العمومية؟ كيف يشيد الحب، وهو وجه يقرأ عبر التكوين الماثل؛ إن لم يكن ماثلا تكوين يقرأ الحب عبره؟!

فإنما لا يوجد معبد بدون طقوس الأحجار.

وإنما لا يوجد حب بدون طقوس هدفها الحب. إننى لا أدرك جوهر الشجرة، إن لم تكن قد شكلت الأرض ببطء وفق طقوس الجذور والجذع والأغصان؛ وعندئذ، فها هى واحدة متوحدة، هذه الشجرة لا غيرها.

لكن تلك المرأة تحتقر البذل الذى بفضله ستولد من جديد. إنها تبحث فى الحب عن شىء يمكن الاستحواذ عليه، وهذا الحب ليست له دلالة.

إنها تظن الحب هدية تستطيع أن تحبسها فى نفسها. إن كنت تحبها؛ فإنها قد كسبتك؛ تحبسك فيها؛ ظانة أنها بهذا ستثرى. إلا أن الحب ليس كنزا يستحوذ عليه؛ بل إنه التزام على كل من الطرفين، وثمرة طقوس تم التراضى عليها، ووجه لسبل البذل.

تلك لن تولد أبدا؛ فإنما يولد من أنجبه نسيج من الصلات. ستظل هى بذرة ملفوظة وطاقة لم تستغل، يابسة النفس والقلب. ستشيخ ـ كئيبة ـ فى غرورها بمقتنصاتها.

فإن المرء غير قادر على أن ينسب إلى نفسه شيئا؛ فما هو بخزانة! إنه مربط ما فيه من تنوع، وكذلك المعبد؛ الذى هو معنى الأحجار. تحول عنها! لا أمل لك فى تجميلها ولا فى إثرائها؛ ماستك قد صارت لها شارة وتاجا وعلامة على السيطرة! من أجل الإعجاب ـ وإن بجوهرة ـ يستلزم

تواضع القلب، وهى لا تعجب؛ إنها تحسد. الإعجاب يمهد للحب، ولكن الحسد يمهد للاحتقار. وهى ستحتقر باسم ما ملكته أخيرا من بعض الماس، سائر الماس الذى فى الأرض جميعا. ولن يكون لك من أثر عليها سوى الابتعاد بها مزيدا عن الخليقة.

ستكون قد ابتعدت بها عنك أنت؛ فتلك الماسة ما هى بسبيل منك إليها، ولا بسبيل منها إليك؛ بل هى جزية فرضت عليك؛ لأنك عبد!!

لذلك فإن كل تكريم سيجعلها أكثر صلابة وعزلة.

قل لها: «يقينا، إننى أسرعت إليك؛ مبتهجا بلقياك. أوفدت إليك المراسيل، وسعيت إلى إرضائك. حلاوة الحب عندى هى هذا التطوع الذى أقوم به من أجلك. أقر لك بحقوق على؛ لكى أستشعر ارتباطى بك. أنا بحاجة إلى جذور وأغصان، ورشحت نفسى لمعاونتك، بمثلما فعلت لشجيرة الورد التى أرعاها. فإننى إذن، أخضع لشجيرتى، ولا تمس كرامتى فى شىء هذه الالتزامات التى آخذها على نفسى. إن هذا هو واجبى نحو حبى.

لم أخش التزامى، بل كنت أنا الضارع. تقدمت بكامل حريتى؛ فما من أحد فى العالم بقادر على منعى. إلا أنك أخطأت فهم دعوتى؛ فقد قرأت فى دعوتى خضوعى؛ أنا لم أكن خاضعا، أنا الكريم.

لقد أحصيت ما قمت به من خطى تجاهك، خطى لا تغتذى من حبى بل من التكريم الذى يضفيه عليك حبى. لقد أسأت فهم دلالة مناشدتى؛ إذن، فسأتحول عنك؛ لكى أكرم تلك التى وحدها ستكبر بحبى؛ مثلما سأعالج المريض؛ لكى أشفيه، لا لكى أجامله. أنا بحاجة إلى سبيل؛ لا إلى سد.

ما كان مرماك إلى حب، بل إلى تعبد. لقد سددت طريقى. قمت أمامى كأنك وثن؛ وما حاجة بى إلى هذا اللقاء، ولقد مضيت بعيدا.

ما أنا بوثن يعبده الناس، ولا بعبد يعبد الأوثان. من يدعينى لنفسه؛ سأنكره. لست شيئا تجرى المراهنة عليه؛ وما لأحد أن يودعنى كرهن. كذلك، لا أودع أنا أحدا كرهن؛ ومن تلك التى تحبنى أتلقى على الدوام.

فممن إذن، ابتعتنى لكى تدعى ملكيتك هذه لى؟ لست أنا دابة تملكينها. إن كنت مدينا للإله بولائى؛ فما أنا مدين به لك أنت.».

كذلك بشأن المملكة، عندما يدين لها الجندى بحياته. إنه رهن الإله؛ لا رهن المملكة. الإله آمر بأن يكون للإنسان معنى، ومعنى هذا الإنسان أن يكون للمملكة جنديا.

كذلك بشأن الحراس المدينين لى بالتبجيل. أنا أصر عليه وإن كنت لا أستبقى منه لنفسى شيئا. عبرى أنا يكون التبجيل للوطن، عبرى أنا تفرض على الحراس واجبات. أنا مربط واجبات الحراس.

كذلك بشأن الحب!

أما إذا لاقيت تلك التى تحمر خجلا وتتلعثم، والتى تتطلب هدايا لكى تتعلم كيف تبتسم؛ لأنها ترى الهدايا كنسيم البحر، لا كفرائس، فعندئذ، سأجعل من نفسى سبيلا إلى خلاصها.

لن أروح أذل نفسى فى الحب ولا أذلها؛ سأكون حولها كالمكان وفيها كالزمان، سأقول لها: «لا تتعجلى معرفتى. لا يوجد بى ما يمكن الاستحواذ عليه، أنا مكان وزمان: إليهما المصير.».

إذا كانت بحاجة إلى ـ مثلما البذرة إلى الأرض لكى تجعل من نفسها شجرة ـ فلن أخنقها بغرورى.

ولا كذلك سأمجدها لذاتها، سأخمشها بقسوة بمخالب الغرام. سيكون غرامى لها نسرا ذا جناحين عاتيتين. لست أنا الذى ستكتشفه، لكن بى أنا، ستكتشف الوديان والجبال والنجوم والمقدسات.

ما الأمر بمتعلق بى؛ ما أنا إلا ذلك الذى ينقل. ما الأمر بمتعلق بك؛ ما أنت إلا درب إلى المروج فى الصباح الباكر. ما الأمر بمتعلق بنا. ما نحن الاثنان معا إلا معبر نحو الإله، الذى يقترض لبرهة جيلنا؛ ويستنفده.

٩٧

الكراهية، لا للإجحاف؛ فإنما هو لحظة عابرة، ويفضى إلى الإنصاف!

الكراهية، لا لعدم المساواة؛ فإنما هى تنظيم رأسى، مرأى أو غير مرأى.

الكراهية، لا للاستهانة بالحياة؛ فإن من يخضع لمن هو أعظم منه يصير إعطاؤه حياته بذلا.

بل الكراهية للظلم المستدام؛ فإنه يخرب معنى الحياة نفسه، الذى هو الديمومة فى نفس ما يمثل من المرء بذله.

٩٨

ما كان إلا زورقا تائها على البعد فوق مياه البحر الهادئة.

رب، لا بد أنه يوجد مدرج آخر يمكن منه أن يتراءى لى ذلك الصياد النائى فى زورقه، كشعلة للحماس أو كمربط للحفيظة! وهو يستجلب من المياه خبز الحب من أجل امرأته وأطفاله، أو الدخل الذى به سيدرأ المجاعة. أو قد يتراءى لى الضر الذى قد يميته؛ والذى يفعمه، ويحرقه.

انحطاط الإنسان؟! فيم وجدت أى انحطاط؟ أنت لا تقيس الإنسان بواسطة مطمار المساح! بل على العكس؛ فعندما أدخل الزورق يصير كل شىء هائلا.

رب، يكفى ـ لكى أعرف نفسى ـ أن تغرس فىَّ مرساة الألم! أنت تجذب الحبل؛ فأستيقظ.

قد يكون ضحية الإجحاف: رجل الزورق ذاك؟ هذا لا يغير من المشهد شيئا. إنه نفس الزورق، ونفس اليوم الذى يسود فيه الهدوء على المياه؛ ونفس التبطل أثناء النهار.

ما الذى يمكن أن أتلقاه من الناس إن لم أتواضع لهم؟!

رب، وحدني بالشجرة التي هي أنا! لا يعود لي معنى إذا كنت وحيدا. فليستند الآخرون إليَّ، فلأستند إلى الآخر، فليقيدني نظامك! أنا هنا مفكك ومؤقت.

أنا بحاجة إلى أن أكون.

٩٩

لقد حدثتك عن الخباز الذى يشكل عجين الخبز، وطالما طاوعه العجين؛ فإن شيئا لا يستجد. ثم يجىء حين فيه يترابط العجين ـ كما يقولون ـ وتكتشف الأيدى ـ عبر الكتلة المختلطة ـ مسالك الطاقة، والضغوط والممانعات. يتنامى داخل عجين الخبز تكوين عضلى قوامه الجذور؛ يطلع الخبز من العجين مثلما الشجرة من الأرض.

أنت تجتر مشكلاتك ولا يتضح لك شىء. تمضى من حل إلى الآخر؛ لأن أيا من الحلول لا يرضيك. أنت تعس؛ لأن فعلا واحدا لم يبدر منك. فإن السير وحده هو الذى يبارك الإنسان. وهاك حبيس الاشمئزاز من شعورك بأنك مشتت ومنقسم؛ عندئذ، تلتفت إلىَّ حتى أفض النزاع الذى يمضك. ويقينا أننى أستطيع فضه بإيثار أى من الحلول على غيره: فإذا صرت أسيرا لقاهرك، إذا جاز لى أن أقول... إذا صرت بهذا الهوان بفعل انحيازك إلى أحد الجوانب ضد سائرها؛ فلا شك أنك متأهب لاتخاذ الفعل، ولكن الوئام الذى بلغته هو ذاك الذى للمتعصب أو للجبان أو للحشرة؛ لأن الشجاعة ليست هى إنزال الضربات بأولئك المؤتمنين على حقائق أخرى.

يقينا، إن ما تعانيه يكرهك على الخلاص مما تتعذب به من أوضاع. بيد أنه يجب عليك تقبل عذابك؛ لكى تجد ما يعينك على الترقى. وهكذا،

فبدءا من العذاب الذى يسببه عضو واحد معتل، ترغم على الاهتمام بالتداوى؛ وترفض الاستسلام لدائك.

لكن ذلك الذى يعانى من أحد أعضائه ويعمد إلى بتره بدلا من أن يجاهد لكى يداويه ـ لا أدعوه شجاعا، بل جبانا أو مجنونا. وأنا الملك، إذا اعتل أحد من رجالى؛ فإننى لا أعمد إلى بتره، بل أداويه.

لذلك، فقد توجهت إلى خالقى ـ فى أعلى الجبل الذى أشرفت منه على المدينة ـ بهذه الضراعة:

«رب، إنهم هنا؛ يلتمسون منى معناهم، ينتظرون منى حقيقتهم! رب ولكنها لم يتم إحكامها بعد! أنر بصيرتى! أنا أعجن دقيق الخبز؛ كى تتضح الجذور. بيد أن شيئا لا يترابط بعد، وما أنا بغافل عما تأتى به ليالى السهر من تبكيت الضمير. بيد أننى ـ أيضا ـ عليم بانفلات الثمار؛ فإن كل خلق ينغمس أولا فى الزمن؛ حيث المصير.

إنهم يجيئوننى بأشتات من أمانيهم ورغباتهم واحتياجاتهم، ويكومونها فى ساحتى؛ كأنما يتوقعون منى أن أخلق من موارد كهذه تجميعا يمكن أن يستوعبه المعبد، أو أن تستوعبه السفينة.

لكننى لن أضحى باحتياجات البعض فى سبيل احتياجات البعض الآخر، ولا بعظمة البعض فى سبيل عظمة البعض الآخر، ولا بوئام البعض للبعض؛ كى يصيروا جميعا معبدا أو سفينة.

فإنه قد اتضح لى أن الإخضاع هو التلقى والترتيب. أنا أخضع الأحجار للمعبد؛ فلا تظل مبعثرة فى الساحة. وما من مسمار واحد لن أفيد منه فى بناء السفينة.

لن ألقى بالا إلى ما يقوله أغلبهم؛ فإنهم لا يرون السفينة؛ التى تعلوهم.

ولو كانت الأكثرية لصانعى المسامير؛ فلأخضعوا قاطعى الألواح لما يؤمن به صانعو المسامير من حقيقة؛ ولما ولدت السفينة.

لن أخلق وئاما كوئام وكر الدود؛ فأقيم السجون وما بها من جلادين؛ حتى إن كان هذا شرطا لحلول الوئام؛ لأن الإنسان إذا قدرت له معيشة الدود فسيواصلها. وما بقاء الفصيلة على قيد الحياة همى، بل ما سينتقل عن طريقها. يقينا أن الأولوية للإناء، ولكنه لا يكتسب قيمة إلا بالرحيق الذى سيحويه.

كذلك، لن أقوم بأى توفيق؛ فإن التوفيق هو الرضا بما فى مزيج فاتر من أشربة مثلجة وأخرى ساخنة. وأنا أريد أن أحفظ للبشر مذاقا. فإن كل ما يسعون إليه مرجو، وكل حقائقهم بينة؛ فإن القاسم المشترك بين ما يؤمن به قاطعو الألواح من حقيقة، وما يؤمن به صانعو المسامير ـ هو السفينة.

لكن رب، سيجىء حين فيه تشفق علىَّ من تمزقى الذى لم أرفض منه شيئا! فإن ما أتحراه هو الرزانة التى تشع على كل ما تم احتواؤه من نزاعات، لا وئام المتحيز، المجعول من نصفين: أحدهما الحب، والثانى هو الحقد.

رب، إذا كنت قد استأت؛ فلأننى لم أفهم بعد. عندما أصدر أمرا بالسجن أو بالإعدام؛ فلأننى لم أقدر على الرأب! إن من يتمسك بحقيقة ضعيفة، مثل إيثار الحرية على الفرض أو إيثار الفرض على الحرية؛ عجزا منه عن السيطرة على لغة باطلة فيها الكلمات تتعابث ـ ذاك سيغلى من الغضب؛ إذا ووجه باتهامه بالتناقض. ومن يصيح بأعلى صوته؛ فإنما لأن لغته قاصرة، وأنه يسعى إلى حجب أصوات الآخرين. لكن رب، ما الذى سيسوءنى إذا ما بلغت ربوتك ورأيت الصنيع يتم وإن عبر لغة بديلة عن اللغة الحقيقية الصائبة! من يجيئنى؛ سأستقبله. من سيثور ضدى؛

سأفهمه، وإن بدا لى خطؤه؛ وسأحدثه برقة كى يرجع عنه. ولن يكون فى هذه الرقة أى تنازل أو تزلف أو دعوة إلى التراضى، بل عبره هو سأقرأ ما فى رغبته من شجن، بأيما وضوح! جاعلا رغبته تلك رغبتى أنا أيضا؛ بما أننى استوعبتها هى الأخرى. إن الغضب لا يعمى من يتملك منه؛ بل إنه وليد العمى أصلا. قد أستاء من تلك التى تبدى شراستها، لكنها تكشف لى عما يستره رداؤها. وأبصر ذلك السرطان، وأصفح. كيف يمكن لهذا اليأس أن يغضبنى ؟!.

إن الوئام الذى أتدبره يكون بالعذاب بلوغه. أنا أتقبل قسوة ليالى السهاد؛ لأننى سائر صوبك يا من أنت بلاغ، وقطع للأسئلة، وصمت. أنا شجرة بطيئة ولكننى شجرة. وبفضلك أنت؛ سأجتذب من الأرض عصارتها.

آه رب! لقد فهمت أن الروح تسود الذكاء؛ فإن الذكاء يختبر المواد، ولكن الروح هى وحدها التى تبصر السفينة. وإذا ما أسست السفينة؛ فسأستعين بذكائهم؛ لكى أنحت وجها من إبداعى، وأكسوه وأكسبه صلابة ووضوحا.

ولم سيأبون هذا على؟! ما أتيتهم على الإطلاق بأى مما ينغص عليهم، بل خلصت كلا منهم ليفرغ لحبه.

وما الذى سيجعل قاطع الألواح يقصر فى عمله، إذا كانت الألواح مقدرة لصنع السفينة؟!.

بل ها هم المستخفون ـ الذين لم يجدوا من قبل موضعا ملائما ـ يهتدون إلى البحر؛ فإن كل كائن يسعى لأن يهتدى ويستوعب فى ذاته ما حوله.

ومن الذى سيستطيع تقدير البشر؛ إن لم يحظ على السفينة بشرف المشاركة؟ فإن المواد لا تنبئ بشيء عن مسيرتها، وما هى بنائلة وجودها ما لم تولد من كائن. وإنما يجب أن تجمع الأحجار؛ حتى يكون لها تأثير على الإنسان فى بحر الصمت العميم.

أستطيع التنبؤ بسلوك الأرض متى استنزفتها بذرة شجرة الأرز. ومتى عرفت المهندس المغمارى؛ فقد عرفت ما يشغله، وأن طريقا طويلا ينتظر المواد الملقاه فى الساحة لكى تسلكه؛ وحتى الجزر النائية».

١٠٠

أريدك مستديما وذا أساس متين. أريد أن تكون مخلصا؛ فإن الإخلاص هو ما يكون ـ أولا ـ من المرء لنفسه. لا يوجد ما يمكن أن تتوقعه من الخيانة؛ لأن ما عليك أن تحيكهِ يستغرق وقتا طويلا. كذلك بشأن أحجار المعبد: لا أبعثرها في كل يوم؛ كي ألتمس طريقي ـ متخبطا ـ صوب معابد تفضل معبدى؛ فإن في هذا خيانة للمعبد لا تجازى بما هو خير. وهذا ما أريد أن تفهمه عنى؛ فإنك مربط لصلات. أنت توجد وفقا للصلات، والصلات توجد وفقا لك أنت. وجود المعبد هو بوجود كل من أحجاره؛ فإذا نزعت أيا منها؛ انهار المعبد. أنت للمعبد، للدار، للمملكة؛ وبك وجود المعبد والدار والمملكة. وليس لك أن تبت برأى على النحو الذى يبت به القادم من الخارج، لا المرتبط؛ الذى هو أنت. عندما تبت أنت برأى؛ فإنما تبت برأى فيك أنت. إنه حمل تنوء به، ولكنه فى الوقت نفسه انتشاء يرتفع بك

لذا، أحتقر ذلك الذى يتبرأ من ابنه؛ إذا ارتكب ابنه خطيئة. إن ابنه هو منه، من المهم أن يوبخه ويدينه، وأن يعاقب نفسه على ما فعله ابنه؛ لأنه يحبه. ومن المهم أن يكيل له الحقائق (مهما كانت موجعة) لا أن يمضى من دار إلى دار؛ شاكيا ما فعل ابنه. فعندئذ، عندما يتنصل مما فعله ابنه؛ لا يعود هو أبا، ولا يتمتع بارتياح إلا كما يتمتع الأدنون من الناس؛ أى

بارتياح، كارتياح الموتى. وطالما رثيت لأولئك الذين احتاروا فيما يجب أن يكون موضع تضامنهم، طالما راقبتهم وهم يبحثون لأنفسهم عن عقيدة أو جماعة أو معنى؛ ويتسولون كى يتم قبولهم، إلا أنهم لم يلقوا إلا شبحا للقبول.

وموضع إعجابى هو الأب الذى ينسب إلى نفسه العار؛ عندما يرتكب ابنه خطيئة، ويكفر هو نفسه عن خطيئة ابنه؛ فإن ابنه هو منه. ومن يأبى أن تنسب إليه المسئولية عن الهزائم؛ أبدا لن ينسب إليه شرف الانتصار.

١٠١

أنا الذى أحتقر الرفاهية المتخمة؛ لا أتحملها إلا كشرط لبلوغ ما هو أرقى منها: مثلما هو الحال مع الرائحة الكريهة المصاحبة لمنظفى مجارى المدينة، والتى هى شرط لحماية المدينة من الاتساخ. أنا الذى تعلمت أن التناقض ليس كائنا، وأن الكمال هو الموت، أتحمل ـ تبعا لذلك ـ صغار النحاتين؛ كشرط أساسى لوجود كبار النحاتين، والذوق الردىء؛ كشرط لوجود الذوق الجيد، والفرض الذاتى؛ كشرط للحرية، والرفاهية المتخمة؛ كشرط لارتقاء من تغذيهم وحدهم لا للارتقاء بها هى فى ذاتها؛ فإن الرفاهية إذا ما اضطلعت بدور الخزانة التى يغترف منها ما يلزم؛ لمكافأة النحاتين عن منحوتاتهم، ولإمداد الشعراء بالزاد الذى يبقيهم على قيد الحياة ـ فقد باتت لها جدوى، حتى إذا مثل دورها استغلالا جائرا لعمل العامل؛ إذ لا يتلقى فى مقابل عمله إلا قصيدة يسخر منها أو تمثالا لا تتاح له ـ فى معظم الأحوال ـ رؤيته. وفيم يهمنى احتقارى للرفاهية التى صارت خزانة، إذا كان النحاتون والشعراء يظلون أحياء ومبدعين بفضل هذا السلب؟! إن الرفاهية عندئذ، تعد مطية وسبيلا ومعبرا.

وإذا لمتنى على جمع الخزانة بين الزاد اللازم لحياة الإنسان، والحوافز اللازمة لإبداع الشاعر والنحات المزين للقصور؛ ومن ثم تصدم أسماع أبناء الشعب أو عيونهم: فسأجيبك أولا، بأنه على العكس تماما؛ يتأدى

غرور المرفه بصاحبه إلى استعراض روائعه، كما هو واضح تماما من حالة القصر الذى يفخر به مالكه؛ بما أن الحضارة لا ترتكز على استخدام الأشياء المبدعة، بل على دفء الإبداع، وليست هذه أول مرة أسترعى انتباهك فيها إلى تلك الممالك التى تتألق بفن الرقص؛ رغم أنه، لا المترف يستطيع ادخاره لمباهاة زواره به، ولا الشعب يستطيع حفظه فى متاحفه ليقوم شاهدا على تراثه؛ فالرقص لا يمكن تخزينه!!

وإذا لمتنى على تقبلى من المرفه ما يؤثره هو من بين الشعراء والنحاتين ـ وكونه فى الغالبية العظمى من الأحوال ذا ذوق ردىء؛ محبا لشعراء المناجاة والبكاء على الأطلال، ومعتدا فى النحاتين بقدرتهم على المحاكاة، لا بغيرها من المواهب ـ فسأجيبك بأننى إذا أردت من الشجرة زهرة؛ فإن علىَّ أن أتقبل الشجرة بأجمعها، وكذلك صنيع عشرة آلاف من صغار النحاتين؛ لكى يظهر لى منهم واحد يستحق التقدير. إنى إذن، ألح على وجود خزائن يصل عددها إلى عشرة آلاف؛ حتى تظهر لى منها واحدة يحسن مالكها التمييز.

لكن التناقض ليس كائنا بالتأكيد؛ وإذا كان البحر شرطا لكينونة السفينة، فإن من السفن ما يبتلعه البحر. وقد يوجد من المرفهين من يفترس الشعب، لا لشيء إلا الاستمتاع بمذاقه!! فلا يعود هذا المترف (كما أبغيه) مطية وسبيلا؛ أى شرطا أساسيا لا غنى عنه، كلا! يجب ألا يطغى البحر على السفينة، ولا الفرض على الحرية، ولا صغار النحاتين على كبارهم، ولا المرفه على المملكة.

أراك الآن، ستسألنى أن أهديك ـ بما أملك من منطق ـ إلى نظام يقينا من الخطر، بيد أن مثل هذا النظام لا وجود له! وهل لك أن تسأل عن كيفية تدبير الأحجار حتى تتجمع فى هيئة معبد؟! ليس المعبد صنيع الأحجار،

بل المعمارى الذى طرح بذرته؛ والتى اجتذبت الأحجار. على أن أكون، وأن تؤسس قصيدتى مرقاى إلى الإله؛ وعندئذ ستجتذب كلا من رضا الشعب والزاد الذى فى الخزانة إلى المجد الإلهى؛ بل وستجتذب إليه خطى المرفه!

لا تحسبن أننى أهتم بالخزانة؛ لأننى عدلت عن احتقارى للرفاهية. وهل عدلت عن اشمئزازى من رائحة كريهة تنبعث من منظفى مجارى المدينة؟! ما المنظفون إلا السبل والمطايا. لا تحسبن أننى أهتم بحقد البدائيين على كل ما يتميز عنهم، وما قومى إلا السبيل والمطية. فلا طبول البدائيين تسلبنى وعيى، ولا هتافات الحشد تستميلنى؛ فإنما خدمة الإله هدفى. أنا على الجانب الذى اخترته من الجبـل، أشد عزلة من الوعل المتخفى بين الصخور، وأكثـر ثباتا من الشجرة التى تقتصر حركتها ـ على مر الزمان ـ على تحويل ما حولها من حصى إلى حفنة من الأزهار، تطرح بذورا تنثرها الرياح؛ ليصير التراب الأصم نغما براقا، أنا أنأى بنفسى عن النزاعات الزائفة فى منفاى الاختيارى الذى لن أؤوب منه؛ حيث لا أنتصر للبعض على البعض الآخر، وأتعالى عن العشائر والأحزاب والفصائل. قتالى ليس إلا فى سبيل الشجرة ضد عناصر الشجرة، وفى سبيل الشجرة أريد الإبقاء على عناصر الشجرة!! وباسم الشجرة أدحض كل احتجاج يدفع به ضدى.

١٠٢

تستطيع البذرة أن تتأمل نفسها، وتقول: «كم أنا جميلة وقوية وشديدة! أنا شجرة أرز، بل والأفضل من هذا هو أننى شجرة أرز فى جوهرها.».

لكننى أنا أقول: «إنها ليست شيئا بعد. إنها مركبة وسبيل ومعبر. إنها فاعل: فلتنفذ فعلها! فلتجذب الأرض ببطء صوب الشجرة. ليكن إرساء شجرة الأرز من أجل مجد الإله. عندئذ؛ سأقدر قيمتها وفقا لأغصانها».

لكنهم ـ هم أيضا ـ يتأملون أنفسهم؛ والواحد منهم، يقول: «أنا هذا (أو ذاك)». يظنون أنفسهم مخزونات للروائع، بها باب يفضى إلى كنوز بالغة التنوع. يكفى اكتشافها وإن كان بالمصادفة. والأقوال التى يتفوهون بها فى اندفاعهم ـ يزعمون أنها قصائد. لكنك تسمعهم يتفوهون بها دون أن تؤثر فيك حقا.

وكذلك ساحر القبيلة الزنجية، يدعى الدقة وهو يجمع ـ كيفما اتفق ـ كما من المواد: بين أعشاب وعناصر وأدوات عجيبة، ويقلب كل ما جمعه فى إنائه الضخم. ذات ليلة غاب فيها القمر، يتمتم بكلمات وكلمات وكلمات! ينتظر انبعاث قدرة خفية مما يطهوه، قدرة توقع بجيشك الزاحف صوب وكره؛ إلا أن شيئا لا يظهر. ويتمتم بكلمات مغايرة، ويجىء بأعشاب

أخرى. ويقينا أنه لم يكن واهما فى طموحه الذى يبعث أمانيه!! فإننى قد رأيت نتاج الخشب الموشى بسائل أسود يطيح بممالك (تلك هى رسالتى الناطقة بالأمر بالقتال!!)، وعرفت الإناء الذى ينبعث منه النصر. إنه ذلك الذى يجرى فيه إعداد البارود للبنادق. وسمعت رفيف الهواء الخافت؛ خارجا فى البدء من صدر رجل واحد، ثم جاعلا أبناء شعبى يتوهجون واحدا تلو الآخر؛ فكأنما اشتعل حريق، ذاك كان المحرض على الثورة. كما أدركت أن الأحجار ـ إذا أحسن ترتيبها ـ قادرة على تكميم الأفواه وفرض الصمت.

إلا أننى ما رأيت ـ على الإطلاق ـ موادا جمعت كيفما اتفق؛ دون أن يكون بينها ـ فى ذهن إنسان ما ـ قاسم مشترك. وإذا كانت القصيدة فاقدة التأثير؛ فإنه ـ على العكس ـ لم يبكنى أى تجميع للحروف ناتج عن فوضى لألعاب الأطفال؛ ذلك أنها لا تساوى شيئا تلك البذرة المخبوءة الطامعة فى إرغامنا على الإعجاب بالشجرة فى صعودها؛ وهى لم تبذل من أجل ذا شيئا بعد.

يقينا، إنك تنحو صوب الإله، لكن لا تستنبط مما ستصير إليه كينونتك الآن. ما تتفوه به لا ينقل شيئا. وفى وهج الظهيرة هى الشجرة وحدها التى تلقى ظلالا؛ لا البذرة، حتى وإن كانت بذرة شجرة الأرز.

فى الأوقات العصيبة يستيقظ الملاك النائم؛ ليتألق لأنظارنا وينطق بأقوال أجمل من أقوالنا، يوحد لغاتنا ويربط بينها، ويصعد صيحة حقيقية، صيحة تناجى من فقدناهم، وتأتينا بالخبز، وتطرد الشراذم؛ ليفعم الحصاد وجامعه بما لهما من دلالة، وكذلك الريح التى تحرك السنابل من جذورها، والحب، وأيا مما يختمر بطيئا قبل أن ينطلق.

لكنك ـ أيها السارق!ـ تمضى فى المدينة إلى الأماكن المشبوهة؛

ساعيا ـ بفعل مناورات معقدة ـ إلى جعل الغرام يرد إليك صداه. بينما الغرام يجب أن يكون رجع صدى الزفاف، الزوجة وحدها، ويدها وحدها على كتفك.

يقينا، إنه لا وجود إلا للسحر، وأن للطقوس مهمة توجيهك صوب استحواذ لما لم تقدر على الفوز به، كاللوعة التى يستشعرها أبناء العشائر العديدة يوما من كل عام؛ بفعل خليط من الصمغ والشمع الساخن والخشب المطلى. لكن سحقك فى إنائك عناصر جمعت كيفما اتفق؛ انتظارا لمعجزة لم تقم بأى إعداد لها؛ فهذا ما أسميه دجلا وكسلا وتهافتا. ذلك أنك وقد نسيت أن تصير، تزعم أنك تمضى إلى حيث تلقى نفسك؛ ومنذئذ؛ لا يعود يوجد أمل؛ فقد أطبقت عليك أبواب ثقيلة.

١٠٣

انتابنى الحزن؛ لأننى رحت أعذب نفسى بشأن البشر. كل منهم منكفئ على ذاته، ولم يعد يعرف ما عليه أن يتمناه. فإن أردت لنفسك خيرات تملكها وتزداد بها ثراء ـ فما هى هذه الخيرات؟! يقينا أن الشجرة تبحث عن عصارة التربة لتغتذى عليها وتحولها إلى قوام لها هى نفسها. والحيوان يبحث عن العشب أو عن حيوان آخر؛ ليحوله إلى قوام له هو نفسه. وأنت ـ أيضا ـ تتغذى، لكن ما الذى ـ فضلا عن غذائك ـ تتمناه لتفيد منه أنت نفسك؟ لأن المداهنة ترضى الغرور؛ فإنك تستأجر من يهتفون لك. ويهتفون؛ فإذا الهتاف يبدو لك باطلا. لأن بسط الصوف الرفيع يجملن الديار؛ فإنك تبتاعها من متاجر المدينة، تزحم بها دارك؛ وها هى تبدو لك عقيمة. تغار من جارك؛ لأن قصره شامخ، تسلبه إياه وتقيم فيه؛ ولا يعود فيه أى مما يهمك ويلهمك. يوجد منصب تستهدفه؛ وتتآمر لشغله، وتحصل عليه ولا يعود هو نفسه سوى دار خاوية؛ لأنه لا يكفى لسعادتك أن تكون الدار فاخرة أو مريحة أو مزخرفة، وأن تستطيع التفاخر بها؛ ظانا أنك تملكها، لا يكفى أى من هذا: أولا لأنك لا تملك شيئا؛ بما أنك ستموت، وأن ما يهم ليس أن تكون الدار منك ـ فإنها هى التى بذلك ستزداد جمالا أو قبحا ـ بل أن تكون أنت منها؛ فإنها عندئذ؛ ستأخذك إلى موضع ما، مثلما الدار التى ستؤوى ذريتك. أنت لا تستمتع بالأشياء، بل بالدروب

التى تمدها لك! وثانيا لأنه من أيسر الأمور أن يستطيع متشرد أنانى كئيب أن يتيح لنفسه حياة الرخاء والبذخ بمجرد تضخيمه لما يتوهمه من أنه أمير؛ سائرًا جيئة وذهابا أمام قصر الملك، ولسيقول: «ها هو قصرى.» وبالفعل، فحتى صاحب القصر الحقيقى لن يجديه قصره بأكمله ـ على كل ما فيه من رخاء ـ بشىء فى التو واللحظة؛ فإنه لا يشغل منه إلا قاعة واحدة فى كل آن. وقد يغمض عينيه أو يستغرق فى المطالعة أو يشغله أمر آخر؛ وعندئذ، فحتى هذه القاعة نفسها لن يرى منها شيئا، وبمثلما ـ أيضا ـ عندما يتنزه فى الحديقة؛ موليا البناء ظهره. وعلى الرغم من ذلك، فإنه سيد القصر ومحيط بكل ما فيه، بل وأيضا بصمت قاعة المجلس المنسية. وحتى الغرف الصغيرة فوق سطحه، وأيضا السراديب. وهو بهذا فخور، وقد يكون من ذوى القلوب النبيلة. إذن؛ فإن فى مقدور المحتال، إذا أحكم التشبه ـ فى مظهره الخارجى ـ بسيد القصر؛ أن يتخيل أنه هو السيد. إلا أن مناورته ستعوزها الدقة على نحو بالغ، وسيتجلى فيما اختلقه من مشاعر انحراف الحلم الذى راوده. وأقصى ما تستطيع محاكاته من تأثير فى رائيه لن يتعدى الانشغال المؤقت، مثلما عند سماعه بأنباء الكوارث البعيدة، أو مشاركته الوجيزة لجمهور؛ يشاهد أداء لرقصة.

ما هو من جسدك تستطيع أن تنسبه لنفسك وتحوله إليك، لكنك تخطئ إن ظننت أنك قادر على نفس هذا الفعل بشأن الروح والقلب. فالحق أن متعك المستمدة من طعامك وشرابك لا تغنيك إلا قليلا؛ لأن المتع الحقيقية لا تؤكل ولا تشرب، لا القصر ولا الإبريق الفضى ولا صداقة الصديق؛ وسيظل القصر قصرا والإبريق إبريقا، والأصدقاء سيواصلون حياتهم.

أما أنا، فأنا الفاعل الذى يجعل من المحتال المتشبه بالملك، ملكا حقيقيا! فإنه عندما تأمل القصر؛ لم يستخلص لنفسه شيئا من هذا التأمل

الحزين؛ ولو تأمل ما هو أجمل من القصر، وهو البحر، أو ما هو أجمل من البحر؛ أى السماء وكواكبها ـ لعرف ما عليه أن يستخلصه. فإن عاونته أنا على استخلاصه وجعلته شبيها بالملك حقا؛ فلأنه ـ أصلا ـ لم يوجد فارق بين الاثنين، بل ولا فى المظهر؛ بما أن الملك والمحتال متماثلان؛ أليس أن المحب وذلك الذى يبكى حبا ضائعا، هما أيضا متماثلان؟! إن كلا منهما يجلس بباب داره فى هدأة المساء، لكن أحدهما سيذهب فى ذلك المساء نفسه ـ إن لم يمنعه أحد ـ ليغوص فى البحر. وعلى هذا، فإنه هو الأفضل من بين الاثنين، والأغنى والأكثر تحليا بسمو الروح والقلب. إذن، فإن كنت أنت أحدهما، وأردت أن أستخلص منك الآخر؛ فلا حاجة إلى إيتائك أيا مما هو مرئى أو مادى، ولا إلى تغيير أى مما بك. يكفى أن أعلمك اللغة التى تتيح لك القراءة فيما يحيط بك وما هو داخلك؛ من قبيل وجه لم تره من قبل، وبرؤيته يتوهج قلبك. مثلما أفعل إذ أراك مكتئبا؛ فأريك بضع قطع من الخشب العادى، موضوعة بلا نظام واضح على لوحة. إلا أننى إذا ارتفعت بك إلى مستوى العلم بلعبة الشطرنج؛ فإنها ستفيض عليك بإشعاعها، طارحة عليك تحديات لقدرتك الذهنية.

لذا، أتأملهم ـ مجللا بصمت حبى ـ دون أن ألومهم على ما بهم من سأم لا يرجع الأصل فيه إليهم هم، بل إلى لغتهم؛ عالما أن الملك المنتصر الذى يستنشق ريح الصحراء، لا يتميز عن المتسول الذى يشرب من نفس ماء النهر الجارى إلا باللغة. إلا أننى لصرت ظالما إن لمت المتسول على عدم استشعاره نفس ما يستشعره الملك المنتصر من نصره؛ إن لم استخرجه من نفسه أولا

أنا أهب مفاتيح البراح.

١٠٤

أولئك ليس لديهم الحس بالزمن. يريدون اقتطاف الأزهار التى لم تتم لها صيرورة؛ فلا توجد أزهار. أو يجدون ـ فى موضع آخر ـ زهرا لا يمثل لهم اكتمالا لطقوس الشجرة، بل بعضا من عاديات المتجر؛ لا أكثر ولا أقل، وأى متعة سيمدهم بها؟!

أنا أتخذ طريقى صوب الحديقة؛ إنها تخلف فى الريح عطرا، كالذى تخلفه فى البحر سفينة محملة بثمار الليمون الحلو، أو فى الصحراء قافلة محملة بثمار اليوسفى، أو فى الأفق جزيرة تبلغها بعد سباحة فى البحر؛ فإذا هى كبلسم لأدوائنا.

ما تلقيته لم يكن مئونة، بل الوعد بمئونة. إن مثل الحديقة مثل المقاطعة المستهدف غزوها، أو الزوجة التى لم تصر حليلة بعد، وإن استسلمت للأحضان؛ الحديقة تسلم نفسها لى. خلف الحائط الصغير توجد بلاد ـ من أشجار اليوسفى والليمون ـ ترحب بى نازلا عليها ومتنزها بها، إلا أن أحدا لا يقيم إقامة دائمة فى أشجار اليوسفى ولا فى أشجار الليمون ولا فى الابتسامة!! إن كل شىء يحتفظ بدلالته لى، أنا العليم. أنا فى انتظار موعدى مع الحديقة أو مع الزوجة.

أولئك لا يعرفون الانتظار، ولن يفهموا أى قصيدة؛ فإن الزمن ـ الذى

يجزى عن الصبر أو يلبس الزنبقة أو ينضج الثمرة ـ هو عدو لهم! إنهم يسعون إلى جعل الأشياء مصدر متعتهم، بينما المصدر الحقيقى للمتعة هو الطريق، الذى لا يستقرؤه قاطعه إلا بالالتفات إلى الخلف. أنا أمضى وأمضى وأمضى، وما إن أبلغ الحديقة؛ حيث أجد بلادا من العطور، إلا وأجلس على المقعد. أنا أنظر؛ أرى أوراقا تطير وزهورًا تذبل. أشعر بكل ما يموت، ثم يستعيد تكوينه. لا أعانى حزنا أيا كان. أنا الحزم! كالربان فى أعالى البحار، لا الصبر؛ لأننا لسنا بصدد هدف، طالما ظل المضى مصدر المتعة.

نحن نمضى ـ حديقتى وأنا ـ من الزهور إلى الثمار، ولكن عبر الثمار إلى البذور؛ وعبر البذور إلى زهور السنة القادمة. أنا لا أخطئ بشأن الأشياء. ألمس أدوات الطقوس وأرى فيها ما يشبه الصلاة. بيد أن أولئك يجهلون الزمن ويتخبطون فيه: الطفل نفسه يصير فى عرفهم شيئا لا يحيطون به فى كماله (فإنما هو سبيل إلى الإله؛ الذى لا يمكن إدراكه)؛ يبغون تثبيته فى رونقه الطفلى كأنه بعض المؤن. أما أنا فإننى عندما ألتقى بطفل؛ أراه يحاول الابتسام ويحمر خجلا ويحاول الفرار. أنا عليم بما يمزقه؛ وأضع على جبينه يدى. عندما نرى البحر عاصفا، ألا نتمنى أن يهدأ؟!

١٠٥

إذا عميت عن الضوء الذى لا يشع من الأشياء، بل من معنى الأشياء؛ فلا أمل لك! وأمام بابك نلتقى، وأسألك: «ماذا تفعل ثمة؟». وأنت لا تدرى، وتكرر علىَّ شكواك من الحياة، قائلا: «لم تعد الحياة تأتينى بشىء! امرأتى تنام، ودابتى سكنت، وقمحى ينضج، لم يعد فى حياتى سوى الانتظار البليد؛ وقد ضقت به.».

أيها الطفل الذى لا يجد ما يلهو به ولم يعد يستقرئ الحقائق، أنا أجلس بقربك وأعلمك. لقد جرفك الوقت الضائع، وحاصرك قلقك على مصيرك المهدد.

ذلك أن هناك من يقول: «يجب أن يوجد هدف.»؛ إن السباحة تزداد جمالا عندما تقترب بك من شاطئ يكشف عنه البحر شيئا فشيئا، وصوت الطنبور لا يعود قبيحا، متى جلب الماء لترتوى منه، والقمح يلمع كالذهب بعد عمل شاق كاد ينسيك الضياء؛ فالقمح كالشاطئ الذى تبلغه سابحا، وابتسامة الوليد شاطئ سبح إليه الزوجان المتحابان، وكذلك الثوب المرصع بخيوط ذهبية، والذى ينسج للعيد. وما الذى ستصير إليه، إذا ما أدرت الطنبور لسماع صوته فقط، أو نسجت الثوب من أجل الثوب وحده، أو مارست الغرام للاستمتاع به لا غير؟! إن ما لا يعطى شيئا يستهلك سريعا.

أما السجون، التى أودعت فيها من لم يعودوا يستحقون صفة الإنسان؛ ففيها يتوالى العمل دون هدف. أولئك يضربون الأرض بالمعاول، وضربة معول تتلو ضربة معول؛ ولا يتغير من كيانهم شيء. إنها سباحة لا تنتهى ببلوغ الشاطئ ولا تتعدى الدوران فى البحر؛ ولا يوجد إبداع، ليسوا هم سبيلا ومطية لشيء ما. أما أنت، فيكفى أن تكلف مرة واحدة كل عام باستخراج الماس الخالص؛ ليضيئك الإيمان، وإن لم تختلف حرارة الشمس ولا الطريق الوعر ولا العمل الشاق! فإن لضربة معولك معنى آخر، هو نفس معنى الماس؛ وبك سيكون للحياة معنى، وستعرف سكينة الشجرة؛ حين تعلو فى طبقات السماء، صوب مجد الإله.

أنت تعمل من أجل القمح، وتنسج من أجل العيد، وتشق الأرض من أجل الماس. وأولئك الذين يبدون لك سعداء، ما الذى يملكون منه أكثر مما تملك أنت، إن لم يكن العلم بالمربط الإلهى الجامع بين الأشياء؟!

لن تعرف السكينة، إن لم تغير شيئا فيك، إن لم تجعل من نفسك سبيلا ومطية. عندئذ؛ ستجرى الدماء فى عروق المملكة. لكنك تبغى الاعتبار والتكريم لك فى ذاتك. وتزعم أنك تنزع من العالم شيئا تستولى عليه ويصير ملكك؛ ولن تجد شيئا، لأنك أنت نفسك لست شيئا! وتلقى بأشيائك مبعثرة فى حفرة للنفايات.

طالما تطلعت إلى ذلك التجلى القادم من الخارج؛ كالذى لملاك يشابهك. وما الذى أمكن أن تربحه من زيارته بأكثر مما تربحه من زيارة الجار؟! أما أنا فأجعل من نفسى مآبا ومرفأ، أجعل من نفسى قمحا ذهبى اللون يلى العمل الشاق، ورجلا يعقب الطفل، ومنبعا يبلغه من اجتاز الصحراء، وماسة يستخرجها من بكدحه؛ تصبب جبينه عرقا، أجعل من نفسى ذلك التغيير الذى يحل بكل شيء؛ متى اجتيزت الأشياء! إذ

اكتشفت أن الذى يسير صوب الطفل المريض، ليس مماثلا لذلك الذى يسير صوب المحبوبة، ولا لذلك الذى يسير صوب الدار الشاغرة، ولا الذى يسير صوب الدار الشاغرة بمماثل لذلك الذى يسير صوب المحبوبة؛ وإن بدوا فى لحظتها جميعا متشابهين!

إنى أفرض عليك أن تشيد فى نفسك دارا؛ ومتى شيدت الدار؛ فسيجىء ليقطن بها من يضرم نيران قلبك.

١٠٦

أدركت وجود فارق كبير بين قبول المخاطرة بالموت، وبين قبول الموت! كم عرفت من شبان تحدوا الموت بروعة؛ ودائما وجد من النساء من شجعنهم! يعود الفتى من القتال، ويروقه النشيد الذى تتغنى به من أجله أعينهن. لقد قبل محنة المقاتلة وفيها جازف بحياته ورجولته؛ فما من وجود إلا لما يقدمه المرء ويخاطر بفقدانه. هذا يعرفه المغامرون بالمراهنات؛ ففى الأحوال العادية لا يرجون من ثرواتهم شيئا، ولكنها تغدو الضمان لهم عندما يراهنون، وما يلقونه على موائد القمار من نرد أو أوراق، يمثل أملاكا لهم من مروج ومراع ومحاصيل.

إذن، فإن الفتى يعود متهاديا فى ضوء انتصاره، مثقل الكتف بما سلبه من أسلحة للعدو، بل وربما مخضبة بالدماء. وها هو يتألق برهة، ليس إلا؛ فإن المرء لا يستطيع أن يعيش على انتصاره!

وإذن فإن قبول المخاطرة بالموت، هو قبول الحياة. وحب الخطر هو حب الحياة! بمثلما يكون انتصار المرء هو مخاطرته بالانهزام، التى ربحها بإبداعه. وهل رأينا ـ فى أى وقت من الأوقات ـ من يسيطر دون مخاطرة، حتى على الحيوانات المستأنسة؟! لا يستطيع التفاخر بانتصاره سوى من يتذكر المخاطرة التى انطوى عليها انتصاره.

لكننى أطلب ـ ممن أريده جنديا نافعا للملكة ـ ما هو أكثر، وحتى إن كان من الخطئ العسير اتخاذها؛ فإن قبول المخاطرة بالموت شىء، وقبول الموت شىء آخر.

أريد الفتى شجرة وخاضعا للشجرة. أريد للفتى أن يقيم فى الشجرة ما لديه من كبرياء، ومن حياة؛ لكى تكتسب معنى.

ليس قبول المخاطرة إلا هدية المرء لنفسه؛ سعيدا بملئه رئتيه بالهواء، وبخطف أبصار الفتيات ببريقه؛ وهو بحاجة إلى أن يحكى عن مغامرته؛ إنها بضاعة تصلح للمقايضة. وعلى هذا النحو من التباهى مسلك حاملى الرتب الدنيا فى جيشى، إلا أنهم لا يكرمون سوى أنفسهم.

إن فقدان المرء ثروته فى المراهنة (لأنه أراد أن يشعر بها كلها مركزة فى يده، ملموسة وجسيمة، وحاضرة بأجمعها فى اللحظة نفسها التى يقامر فيها، بكل ثقلها من زروع وحبوب مختزنة وأنعام فى مروجها وحقول تفوح منها رائحة خفيفة للدخان؛ هى دليل على حياة الإنسان) شىء، وتجرده من ثروته (بنفس ما فيها من مستودعات وأنعام وحقول؛ لكى يعيش فى مكان آخر على مبعدة) شىء آخر. شحذ المرء ثروته ـ فى لحظة المخاطرة ـ كأنها نصل، وإيقادها كأنها مخزون من الزيت ـ شىء؛ والتخلى عنها (كما يفعل ذلك الذى يخلع ثيابه شيئا فشيئا، ويلقى عن قدميه نعليه باستهانة؛ كى ينزل البحر عاريا) شىء آخر.

على المرء أن يموت؛ لكى يعقد قرانه!

عليه أن يواصل حياته على غرار العجائز التى يستهلكن أبصارهن فى نسج أقمشة الكنائس التى يكرسنها لربهن، وبمعجزات من أناملهن تصير من نبات الكتان صلاة.

ما الإنسان إلا السبيل والمعبر؛ وما هو بمستمد حياته الحقيقية إلا مما يجرى فيه تحولا: الشجرة تحول الطين إلى أغصان، والنحلة تحول الزهر إلى عسل، وعمل الإنسان يحول الأرض الموحلة إلى وهج من قمح.

همى الأول إذن، هو أن تحس إيمانك بنفس شدة إحساسك بالخبز الذى تغرس فيه أسنانك. عندئذ؛ ستبلغ بك النشوة إلى التضحية، وهى الاقتران بالحب.

لكنك خربت كل شىء، وبذرت كل شىء؛ إذ ضاع منك معنى العيد، وظننت أن تصدقك بمئوناتك أولا بأول؛ سيثريك؛ لأنك تخطئ بشأن معنى الزمن! جاءك مؤرخوك ومناطقتك ونقادك، فتأملوا الأشياء؛ وإذا لم يستقرئوا أيا منها؛ حضوك على الاستمتاع بها. وأنت أبيت أن تصوم، والصيام شرط لنوال وجبة العيد، أبيت بتر تلك السنابل التى يحقق توهجها الضياء للقمح؛ متى أشعلت للعيد!

لم تعد تدرك أنه قد يهون العمر، إلا لحظة؛ إذ أعمتك حساباتك البائسة!

١٠٧

إذن، فقد حضرنى التفكر فى تقبل الموت؛ فإن المناطقة والمؤرخين والنقاد قد احتفلوا بالمواد التى تستخدم فى بناء المعابد، احتفلوا بها لذاتها؛ وهاك ـ إذ لم يحسن إرشادك إلى الوجهة الصائبة لرغباتك ـ تظن الامتلاك مصدر سعادتك، وتلهث إذ تعلى كومة الأحجار التى كان الأنسب أن يشيد بها المعبد؛ وأنت تجعل سعادتك متوقفة على امتلاكك وحدك لها جميعا. بينما يستمد غيرك دفء قلبه وروحه من حجر واحد؛ ينقش عليه رمزا لمعبوده!

لقد ظننت الأحجار مصدر السعادة، بينما يساوى مقبض إبريق من الفضة ـ أجيد صنع منحناه ـ إبريقا ذهبيا بأجمعه؛ وبأفضل منه يؤنس روحك وقلبك.

أنت شبيه باللاعب الذى ينشد متعته ـ إذ يجهل لعبة الشطرنج ـ من تكويم قطع الذهب والعاج؛ ولا يجد فيها إلا ما يضجره. بينما الآخر؛ الذى نبهته قدسية القواعد إلى حكمة اللعبة، سيجعل نوره من قطع الخشب الخشن، دون سواها. فإن اشتهاءك إحصاء كل شىء، يربطك بالمواد، لا بالوجه الذى تكونه؛ والذى يهم ـ قبل كل شىء ـ أن تتعرف عليه. لذا، يترتب بالضرورة تمسكك بالحياة أولا مثلما تتمسك بتكويم الأيام.

على أنك إذا رأيت المعبد ومدى صفاء خطوطه؛ فسيدفعك ما بك من داء الإحصاء إلى انتقاده؛ لأن كما أكبر من الأحجار لم يستخدم في تشييده!!

إذن، فلا تحص عليَّ ـ لكي تفتنني ـ عدد الأحجار التي استخدمت في تشييد دارك، والمروج التي تشملها أملاكك، وبهائمك وقطعانك، وحليِّ امرأتك، بل ولا ذكريات غرامياتك! قليلا ما يهم هذا. ما أريد أن أعرفه هو قيمة الدار المشيدة، وتحمس العاملين بأملاكك لعقيدتهم، وما إذا كان المرح يسود لقاء العشاء بعد إنجاز العمل، وأي حب شيدته، وفي سبيل ماذا ـ مما هو أطول منك بقاء ـ بذلت وجودك؟ أريدك صائرا، أريد مطالعة إبداعك، لا المواد غير المستخدمة التي تجعل منها مجدك الباطل.

لكنك تجيئني بهذا اللجاج عن الغريزة؛ فإنها تدفعك إلى اجتناب الموت، وقد لاحظت في كل حيوان أنه يريد الحياة. ستقول لي: «إن حب الحياة يسود كل حب، إن حاضر الحياة لا يقدر بثمن؛ وحفظي نورها بداخلي هو واجب عليِّ نحو نفسي.» ويقينا أنك ستناضل ببطولة في سبيل منجاتك. ستظهر منك جرأتك على الحصار، أو على السلب. ستنتشي بشعور القوي الذي يرضى بإلقاء كل شيء في كفة الميزان؛ حتى يقيس زنته على حقيقتها. لكنك لن تمضي لتموت صامتا، مجللا بسر ما رضيت أن تهبه.

إلا أنني سأريك الأب الذي لم يتوان عن الغوص في الدوامة، مدفوعا إليها؛ لأن ابنه يصطرع فيها، ولا يزال وجهه يظهر بين حين وحين، أكثر شحوبا فأكثر، كما يتبدى وجه القمر من بين تمزقات السحاب. وسأقول لك: «إن الأب إذن، لاتسوده غريزة الحياة.».

وستقول لى: «أجل! ولكن الغريزة تمضى إلى ما هو أبعد؛ إنها تصدق على الأب وعلى الابن، تصدق على الحامية التى توفد أفرادها. الأب مرتبط بالابن.».

إننى أتطلع إلى إجابة منك؛ محملة بالكلمات بأكثر من ذى قبل، وبأكثر من ذى قبل إحكاما. لكننى بعد سأجيبك لكى أعلمك، قائلا:

«يقينا، إن لغريزة الحياة وجودا، لكنها ليست إلا من ملامح غريزة أقوى! إن الغريزة الأساسية هى غريزة البقاء. وذلك الذى شيدت حياته من لحم ودم؛ يسعى من أجل بقائه إلى بقاء لحمه ودمه. وذلك الذى شيد فى حب الطفل؛ يسعى من أجل بقائه إلى الإبقاء على الطفل. وذلك الذى شيد فى حب الإله؛ يسعى من أجل بقائه إلى الارتقاء صوب الإله. المرء لا يسعى إلى ما يجهله؛ بل يسعى إلى الإبقاء على ما يكفل له تعاظمه، بقدر ما يستشعره. وأنت ـ بقدر ما نستشعر حبك ـ سيجعلك حبك تبذل حياتك فى سبيل ما يعلوها دون أن تحرم شيئا».

١٠٨

ذلك أنك إذا ظننت أن الشجرة نفسها تحيى من أجل نفسها كشجرة، حبيسة معقلها؛ فإنك لم تفطن إلى الهناء الحقيقى! إنها مصدر بذور مجنحة، وتتحول ويزداد جمالها من جيل إلى جيل. إنها تسير!! ليس مثلما تسير أنت، بل مثل الحريق؛ على هوى الريح. تزرع شجرة أرز على الجبل، وها هى غابة ـ على طول القرون ـ ببطء تتهادى.

ما الذى تظنه الشجرة بنفسها؟! إنها تظن نفسها جذورا وجذعًا وأوراقا. إنها تظن أنها تعود على نفسها بالنفع؛ إذ ترسخ جذورها، ولكنها ليست إلا سبيلا ومعبرا. عبرها تقترن الأرض برحيق الشمس؛ تبعث البراعم وتفتح الزهور وتكون البذور. والبذرة تحمل الحياة؛ مثل الحريق المدبر، وإن لم تطلع ألسنته بعد.

متى ألقيت البذور إلى الريح؛ أشعلت الأرض. إلا أنك تنظر بإيقاع بطىء. تبصر تلك الأوراق الساكنة، وثقل تلك الأغصان التامة الاستقرار؛ وتظن الشجرة قعيدة مكانها، تحيا على ذاتها، مقيدة. لأنك أعشى وتلصق أنفك بما تريد أن تراه؛ فإنك تبصره معكوسا! يكفيك أن تتراجع وأن تسرع إيقاع الأيام؛ لترى الشعلة تندلع من البذرة، ومن الشعلة شعل أخرى، والحريق على هذا النحو، يسرى مجردا من نفاياته من الخشب المستهلك؛ فإن الغابة تحترق فى صمت، ولا تعود تبصر هذه الشجرة ولا

تلك. ويأتيك عن الجذور نبأ أكيد: هو أنها لم تجعل؛ لتخدم هذه ولا تلك، بل ذلك الحريق المفترس والمشيد فى آن واحد. وكتلة الأوراق الداكنة التى تكسو الجبل لا تعود سوى أرض تخصبها الشمس. وفى ثنايا الغابة تستقر الأرانب البرية، وفى الأغصان الطيور. ولا تعود تعرف ما الذى تخدمه الجذور قبل غيره. لا يعود فى الوجود سوى مراحل ومعابر. وما الذى سيجعلك تتقبل بشأن الشجرة حقيقة لا تتقبلها بشأن البذرة؟! إنك لا تقول: «البذرة تحيا لذاتها؛ وقد اكتملت. والعود يحيى لذاته؛ وقد اكتمل. والزهرة - فيما تحولت إليه - تحيا لذاتها؛ وقد اكتملت والبذور التى كونتها تحيا لذاتها؛ وقد اكتملت.». وبالمثل - مرة أخرى - بشأن البذرة المستجدة التى تدفع عودها - عنيدا!! - بين الأحجار؛ أى مراحلها ستنتقيها؛ لتجعل منها منتهاها؟ أنا لا أدرك سوى تصاعد للأرض تحت الشمس.

كذلك بشأن الإنسان، وبشأن شعبى الذى لا أعرف إلى أين سيمضى. بمجىء الليل؛ تغلق المستودعات، وتسود الديار، وتنام العجائز والشيوخ. ما الذى سأستطيع قوله عن دربهم؟! ما أصعب تفصيله! ما أقل ما توضحه به مسيرة الفصول، التى لا تضيف إلا تجعدا لوجه العجوز! التى لا تضيف إلا بضع كلمات فى لغة الطفل! التى لا تكاد تغير الابتسامة! التى لا تغير شيئا من كمال الإنسان، ولا من نقصانه! إلا أننى أراك يا شعبى - إذا أحاطت نظرتى بأجيال وأجيال - تنتبه لنفسك وتتعرف عليها.

لكن المؤكد، هو أن أحدا لا يفكر فيما هو خارج عنه، هذا حسن على هذا النحو. من المهم ألا يتشتت ذهن من يسبك الفضة، وألا يخطر ببال عالم الهندسة سوى الهندسة، وأن يحكم الملك؛ فإنهم شروط المسيرة. وبالمثل، أن ينشد صانعو المسامير أناشيد صانعى المسامير، وقاطعوا الألواح أناشيد قاطعى الألواح؛ وإن كانوا يهيمنون على ميلاد السفينة. لكن معرفة مولودهم بالقصيدة هى لهم مباركة. إنها لن تؤثر فى حبهم للألواح

وللمسامير؛ بل على العكس تماما؛ سيدركون أنهم على هذا النحو، يتلاقون ويكتملون بتلك البجعة المجنحة التى تحييها رياح البحر.

يجب أن تجعل المعرفة بالسفينة كل صانعيها محبين لأعمالهم الدقيقة فيها؛ فتنال الألواح من قاطعيها اعتزازا، لا احتقارا؛ وتنال المسامير من صانعيها اعتزازا، لا احتقارا؛ بمثلما لا يعفى الهدف السامى من يسعى إليه من أعماله اليومية، بل بسبب سموه ذاك نفسه ـ يحتم على طالبه أن يعيد تنظيف حجرته فى الصباح الباكر ويبذر حفنة أخرى من الشعير تلى الكثير من مثيلاتها، ويكرر الجهد الذى يبذله فى العمل، ويعلم ابنه كلمة أخرى، أو صلاة.

هكذا أريدك عالما علم اليقين، أن ما فى الأمر ليس طعامك ولا ضراعتك ولا كدحك ولا طفلك ولا احتفالك بالقرب من ذويك ولا الشىء الذى تكرم به دارك؛ فما كل هذا إلا شرط وسبيل ومعبر. مع العلم بأننى إذ أخطرك بهذا؛ أجعلك تمجد الواحد والآخر ـ مما أحصيته لك ـ بأكثر مما كنت تفعل، ولا تحتقر أيا؛ تماما مثلما ستعتز بالدرب وتحسن معرفتك به، متى كان سبيلا إلى البحر، لا تعرجا عقيما يبعث الضيق؛ بما فيه من تحولات وزهور برية فائحة ومزالق بالقرب من التلال.

أنا لا أبيح لك أن تقول: «فيم يجدينى هذا التنظيف الواجب أن أقوم به، وهذا الحمل الواجب أن أسير به، وهذا الطفل الواجب أن أغذيه، وهذا الكتاب الواجب أن أطالعه؟»؛ فإنه حسن أن تنام وتحلم بالطعام، لا بالمملكة، حسن أن تقتدى بالحراس؛ فتظل متأهبا لزيارة، هى دون سابق إنذار؛ ولكنها لبرهة تستعيد منك مضاء بصرك وحدة سمعك، وتحول كدحك التعس إلى خدمة لعبادة يستعصى معناها على أى تعبير بالكلمات.

وهكذا، فإن كل ما فيك يستمد معنى من الإله ويقرأ عبره: كل دقة لقلبك، وكل معاناة وكل رغبة، وكل اكتئاب فى المساء، وكل وجبة، وكل جهد فى العمل، وكل ابتسامة، وكل إعياء على مر الأيام، وكل استيقاظ، وكل حلاوة نوم!

لن تجدوا شيئا، إذا ما تحولتم إلى قعيدى ديار، ظانين أنكم أنفسكم قد جعلتم مئونة من بين مؤنكم؛ فإنما ليس للمؤن وجود، وما يكف عن النمو؛ يموت!

١٠٩

ليس مما يدهش أن تستهلك نفسك فى البحث عما لدى قعيد الدار من ثقافة، بلا جدوى ؛ فتلك ليس لها وجود.

قال أبى «إن الإنعام بالثقافة هو كالإنعام بالظمأ، والباقى سيأتى من تلقاء نفسه.» لكن المتخمين أصلا، يرتوون من مشروبات مصنعة.

إن الحب دعوة إلى الحب. وكذلك الثقافة؛ إن مكمنها هو الظمأ نفسه. لكن ما السبيل إلى جعل الثقافة مطلب الظامئ؟!

ما المرء بمطالب إلا بما يضمن بقاءه: ذلك الذى يظن بالكحول بقاءه؛ يطالب بالكحول؛ ليس لأنه عائد بالنفع عليه؛ فإنه يموت به. وذلك الذى أسسته حضارتك؛ يطالب ببقاء حضارتك. ما من غريزة غير غريزةالبقاء؛ هذه الغريزة تسود غريزة الحياة.

فإننى كثيرا ما رأيت من آثروا الموت على حياة تنقطع بهم عن الوطن. ولقد رأيته من الظباء نفسها أو من الطيور، التى متى وقعت فى الأسر؛ آثرت أن تموت.

وإذا ما انتزعت من امرأتك وبنيك وحياتك اليومية، وأطفئ النور الذى تحيا به فى العالم (وإن كان يشع من عمق المعبد فقط)، فعندئذ؛ قد توافيك المنية.

إذن، فإذا أردت أن أنقذك من الموت؛ يكفى أن أختلق من أجلك مملكة روحية فيها محبوبتك كالذخر؛ تتطلع لا ستقبالك. عندئذ فهاك تواصل الحياة؛ لأن صبرك لا نفاد له. الدار التى أنت منها تعينك فى الصحراء التى أنت فيها، وإن بعدت. والمحبوبة تشد أزرك، وإن بعدت، وإن نامت.

لكن انحلال المربط ـ مبعثرا ما كان يجمعه ـ هو فوق احتمالك. وعندما تفقد إيمانك؛ تموت؛ لأنه مصدر حياتك. ووحده ذلك الذى يمكن أن يميتك، هو الذى يحييك.

إذا أيقظت فيك شعورا عميقا، فسيتناقله منك الجيل بعد الجيل. ستعلم بنيك قراءة الوجه عبر الأشياء، مثلما الموئل عبر المواد المكونة للموئل؛ وهو وحده الجدير بالحب.

فإنك لا تموت فى سبيل المواد (إن عليها هى واجبا؛ لا نحوك ـ فما أنت إلا سبيل ومعبر ـ بل نحو الموئل، وأنت تخضعها له). لكنك تموت فى سبيل الموئل متى صار؛ لكى تحفظه من التفكك.

لَسَتَمُوتُنَّ فى سبيل معنى الكتاب؛ لا المداد ولا الورق.

فإنك مربط الصلات؛ وحقيقتك لا ترتكز على هذا الوجه، ولا على هذا الجسد، ولا على هذه الأملاك، ولا على هذه الابتسامة؛ بل على هذا البناء الذى اكتمل من خلالك، على وجه ظهر منك وهو الذى أسسك. توحده بذاته يستقرأ عبرك أنت. وفى المقابل أنت تنتمى إليه.

نادرا ما تستطيع الحديث عنه. لا توجد كلمات تصلح لإبلاغه إلى الغير. وكذلك بشأن محبوبتك، إذا قلت لى اسمها؛ فما لمقاطعه القدرة على إبلاغى بالغرام. يجب أن ترينى إياها؛ فإن السلطة للأفعال، لا للكلمات.

بينما تعرف أنت شجرة الأرز، ومتى أقول: «شجرة الأرز»؛ فإننى أبلغك بجلالها. ذلك أنه قد استرعى انتباهك إلى شجرة الأرز، وهى ـ بالإضافة إلى الجذع ـ أغصان وجذور وأوراق.

لا أعرف لتأسيس الحب وسيلة غير جعلك تضحى من أجل الحب. لكنهم هم يتلقون طعامهم وهم مضطجعون، بم يؤمنون؟!

واهما؛ تكثر لهم العطايا بهدف تعظيمهم، لكنهم بها يموتون. لا قدرة للإنسان على الحياة إلا بفعل ذلك الذى يغير هو ما به، وبه يموت بطيئا؛ إذ يبذل فى سبيله من نفسه قليلا، كل يوم!

هذا تعرفه جيدا العجائز من نساء شعبى؛ اللاتى يستهلكن أعينهن فى أشغال الإبرة. تقول لهن أن ينقذن أعينهن؛ وأعينهن لا تجديهن فى شىء؛ لقد أفسدت بذلهن.

لكن ما الذى فى سبيله يبذلون أنفسهم، أولئك الذين تظن ـ واهما ـ أنك تقوم بإشباعهم؟!

لك أن تؤسس الظمأ إلى الامتلاك، إلا أن الامتلاك ليس بذلا. لك أن تؤسس الظمأ إلى تكويم الأقمشة المطرزة، إلا أنك تؤسس أهمية المخزن. كيف ستؤسس الظمأ إلى استهلاك الأعين فى أشغال الإبرة؛ فإنه هو وحده الظمأ إلى الحياة الحقيقية؟!

أنا قد لاحظت جيدا ـ مجللا بصمت حبى ـ من هم لدىَّ من البستانيين؛ وأدركت أنهم أعطوا القليل وسألوا الكثير، وبالمثل غازلات الصوف، وكأنه عليهم وعليهن؛ يتوقف مصير العالم!!

إن مرادى من كل من الحراس، أن يكون مسئولا عن المملكة بأجمعها، وكذلك ممن يرعى الحديقة ويذود عنها الديدان، وتلك التى تطرز بالذهب

ثوبا للواعظ؛ قد يكون بريقه خافتا، ولكن بهو المعبد سيزدان عندما يمثل فيه بهذا الثوب، وبذا؛ ستزيد زينة المعبد عما كانت عليه فى يوم سابق.

لا أعرف ما هى تربية الإنسان؛ إن لم تكن تعليمه أن يقرأ عبر الأشياء وجوها. أنا حريص على دوام المعتنقات؛ وبالمثل فى لعبة الشطرنج؛ بالحفاظ على قواعدها أحافظ عليها. لكنك تريد إمداد الناس بعبيد يحققون لهم الانتصار فى مباريات الشطرنج!!

تريد منح هدايا من رسائل الغرام؛ إذ لاحظت أن البعض يبكون عندما يتلقون منها أحرها، وتدهش من عجز هداياك عن إسالة أى دموع.

لا يكفى أن تهب! وجب أولا أن تؤسس ذلك الذى يتلقى. للاستمتاع بالشطرنج وجب أن تؤسس اللاعب. للحب وجب أن تؤسس الظمأ إلى الحب. كذلك المحراب أولا؛ كى يتلقى المهتدون إلى الإيمان. أنا قد أسست المملكة فى قلوب حراسى؛ بفرضى عليهم أن يسيروا ـ جيئة وذهابا ـ فوق الأسوار.

١١٠

ذلك الذى يتطلب العرفان: لقد قام من أجلهم بكذا وكذا...! على أنها لا وجود لها هى الأخرى ـ الهبة التى تجنى! ولا المئونة التى تحفظ. إن هبتك تبادل بين الطرف والطرف الآخر: إن انقطعت عن العطاء؛ فإنك لم تعط قط! ستقول لى: «أمس، استحققت الثناء على ما فعلت، وما زلت جديرا به»؛ وسأجيبك، قائلا: «كلا! لو كنت قد مت أمس؛ لاستحققت هذا التقدير حتى اليوم؛ إذ مت عندئذ بعد نيلك إياه عن جدارة، لا شك فى هذا. لكنك لم تمت أمس؛ ولا يعتد إلا بماصرت إليه فى ساعة الموت. أما اليوم، فإنك لم تستبق من الكريم الذى كنت إياه أمس إلا هذا الشحيح الذى نراه اليوم. من سيموت اليوم هو الشحيح.

أنت جذر لشجرة بك تحيى. أنت مرتبط بالشجرة؛ صارت هى واجبك. لكن الجذر، يقول: «يكفى ما أمددت به من طاقة.»، وعندئذ؛ تموت الشجرة؛ فهل للجذر أن يفتخر بما يحق له على الميت من عرفان؟!

إن الحارس إذا أعيته مراقبة الأفق، وغفلت عينه؛ فإن المدينة تهلك. لا وجود لمئونات من جولات تم القيام بها أصلا. لا توجد مئونات من دقات قلبك، محفوظة فى موضع ما. إن مستودعك نفسه ليس مئونة، إنه مكيال؛ بقدر ما تزرع الأرض تسلب منه. لكنك تخطئ فى جميع الأمور. تظن أنك تستريح من الإبداع؛ بتكويمك الأشياء المبدعة فى المتحف.

تكوم فيه شعبك ذاته!! إلا أنه لا وجود للأشياء! إن لنفس الشيء معانى مختلفة فى لغات مختلفة. واللؤلؤة السوداء، لا تمثل للغواص نفس ما تمثله للمحظية ولا ما تمثله للتاجر. والماس تقدر قيمته متى استخرج، ومتى بيع، ومتى أهدى، ومتى فقد، ومتى استعيد، ومتى ازدان به الجبين فى احتفال. لا علم بى للماس المستخدم. الماسة المرئية يوميا ليست إلا حصاة جوفاء. من يملكن ماسا؛ يعرفن هذا جيدا. إنهن يغلقن عليه أكثر الخزائن سرية؛ كى يرقد بداخلها. ولا يستخرجنه منها إلا يوم الاحتفال بذكرى ميلاد الملك، عندئذ؛ يصير الماس بادرة الكبرياء. لقد تلقينه فى ليلة الزفاف؛ كان بادرة حب. ومن قلبك ـ فى يوم ما ـ كان معجزة تجلت لمن كسر عنه غلافه.

إن للزهور قيمة تدركها العيون. لكن أجمل الزهور هى التى زينت بها البحر؛ تكريما للموتى، ولن يتأملها أحد أبدا.

ذاك يتحدث باسم ماضيه، يقول لى: «أنا ذاك الذى...»، وإذن؛ فإننى أرضى بأن أكرمه؛ بشرط أن يكون ميتا. أما صديقى ـ الأصيل الوحيد بين علماء الهندسة ـ فإننى لم أسمعه يفتخر بمثلثاته قط. كان خادما للمثلثات، وبستانيا فى حديقة من العلاقات. وعندما قلت له ذات ليلة: «هاك تفخر بعملك، لقد وهبت البشر الكثير...»؛ صمت فى البدء، ثم أجابنى، قائلا: «إنه ليس ما فى الأمر أن يهب المرء. أنا أحتقر من يهب أو يتلقى. كيف لى أن أستشعر إجلالا لشهية الأمير إلى الهدايا، التى لا تنقطع؟! وبالمثل بشأن أولئك الذين يستسلمون لمفترسهم؛ فبهذا تنكر عظمة الأمير عليهم عظمتهم. يجب الاختيار بين كل منهما. لكن الأمير الذى ينحط؛ أحتقره. أنا من أهل بيته وعليه أن يزيدنى عظمة. ومتى ازددت عظمة؛ زدت عظمة أميرى.

ما الذى وهبته للبشر؟! أنا منهم. أنا نصيبهم من التأمل فى المثلثات. عبرى أنا تأمل البشر المثلثات، وعبرهم طعمت كل يوم خبزى، وشربت لبن ماعزهم، وحذائى مصنوع من جلود بقرهم.

أنا أهب البشر، ولكننى أتلقى من البشر كل شىء. فيم يتقدم الواحد الآخر؟ إذا زاد ما أهبه؛ زاد ما أتلقاه؛ فيزداد نبل المملكة التى أنتمى إليها. هذا يتضح لك من أكثر مترفيك فظاظة؛ إنهم لا يستطيعون المضى فى الحياة وهم منتسبون لأنفسهم. تحظى المحظية بزمرد سدد الواحد منهم ثروة ضخمة ليبتاعه لها؛ فتتألق به؛ ومن ساعتها يضفى تألقها عليه سناء. وها هو راضٍ بهذا البريق الذى انتقل إليه. إلا أنه ـ وأمثاله ـ من الفقراء ما هم بمنتسبينَ إلا إلى محظية. وغيرهم قد وهب كل شىء للملك. «إلى من تنتسب؟»! ويجيب، قائلا: «إلى تاج المملكة»؛ وها هو يسطع حقا.

١١١

مدعى الكتابة هذا، كل ما يفعله هو نشر المداد على الورق!! ولن يشيد شيئا أبدا، لأنه مرهف الحس؛ فإنه يؤثر نشيد السفينة على نشيد صانعى المسامير وقاطعى الألواح، وبالمثل؛ فمتى جهزت السفينة وأطلقت ونفخت الرياح فى أشرعتها؛ فبدلا من الحديث إلىّ عن نزاع لا يتوقف، بين السفينة وبين أمواج البحر؛ سيستبق الأحداث؛ فيحتفل منذ لحظتها بالجزيرة ذات الموسيقى، التى هى ـ بلا شك ـ المدلول الأقصى للألواح والمسامير، ثم للنزاع بين السفينة وبين البحر؛ ولكن بشرط ألا تهمل أيا من التحولات المتعاقبة التى ولدت الجزيرة بفضلها. إلا أن هذا ـ بمجرد رؤيته لأول مسمار ـ سيخوض فى أدران الحلم؛ ويتغنى بالطيور الملونة وبالمرجان فى ساعة الغروب، وغير هذه وذاك، مما ينفرنى أول كل شىء؛ لأننى أوثر الخبز اليابس على ما يمنينى به من حلوى.. لن تبدو لى موضع ثقة؛ فإن هناك جزرا ممطرة يغلب اللون الرمادى على طيورها، ومبغاى متى بلغتها هو سماع نشيد يجد فى قلبى صدى من واقعى لا من خيالى؛ وإنما هكذا يكون للجزيرة نصيب من حبى.

أما أنا، فإننى لا أدعى بناء معبدى بلا أحجار!! ولا أبلغ الجوهر إلا من حيث أنه تتويج للتنوع، ولا أدرك من الزهرة شيئا إن لم توجد زهرة معينة: لها هذا العدد من الأوراق لا غيره، وهذا التنوع فى الألوان لا غيره،

وأنا الذى أشرفت على صنع المسامير وعلى تقطيع الألواح، واحتملت من البحر متى زاحم السفينة، الواحدة من هزاته الرهيبة تلو الأخرى؛ وبما أننى هكذا؛ فسأتغنى بالجزيرة الكبيرة التى شكلتها بنفسى واستخرجتها من البحر بيدى.

كذلك بشأن الحب: إذا احتفل به «ناشر المداد» فى معناه العام، فما الذى سأعرفه عنه؟ ولكن تلك المحبوبة بعينها تفتح لى طريقا. إنها تتحدث على هذا النحو لا غيره، وابتسامتها لها تلك الأوصاف لا غيرها. وليس لها من شبيه.

كذلك بشأن الشفقة: لقد حدثتنى أنت يوما عن ذلك الأعرج الذى طارده بنو القرية بالسباب واللعنات.

كنت أنت تسأله: «أليس لك أب؟».

فيجيبك بأن أباه مات.

وتسأله: «أليس لك أخ؟».

وتفاجأ بإجابته: «بلى! إن لى أخا!».

وجاء أخوه وغسل عنه عاره. ورآه الآخرون بقوة أخيه وجماله؛ كان أخوه فارسا فرآه الآخرون فارسا أيضا؛ كمثلما يشع ضوء المعبد على الأحجار؛ فلا تعود تبدو أحجارا، بل انعكاسا للضوء.

١١٢

أنت تفيدنى عندما تديننى. لا شك أننى أخطأت فى وصفى للبلد الذى زرته. لم أذكر بالدقة موقع نهر ما، ونسيت قرية ما. إذن؛ فإنك أنت تسجل انتصارك مدويا؛ إذ تناقضنى وتصوب أخطائى. وأنا أقر صنيعك. وهل أملك من الوقت ما يسعنى لقياس كل شىء، ولإحصاء كل شىء؟ همى الأكبر كان أن تشهد العالم من فوق الجبل الذى اخترته أنا. وأنت تولع بهذا الصنيع وتتجاوزنى إلى وجهتى. أنت تساندنى فيما أضعف عنه وها أنا راض.

ذلك أنك تخطئ بشأن مسيرتى عندما تظن أنك تنكرنى. أنت من فصيلة المناطقة والمؤرخين والنقاد، الذين يبحثون مواد الوجه ولا يعرفون الوجه. فيم تهمنى نصوص القانون والمراسيم المخصوصة. إن عليك أنت أن تختلقها. إذا كان مبتغاى أن أؤسس فيك مهبطا صوب البحر؛ فإننى أصف الباخرة فى سيرها، والليالى المضيئة بالنجوم، وما تفرضه لنفسها الجزيرة من سيادة على حيز من البحر؛ بفضل معجزة الروائح، وأقول لك: «يجىء ذلك الصباح الذى فيه تلج عالما مسكونا، دون أن يتغير أى مما تبصره العيون. الجزيرة التى لم تظهر بعد، تقيم على البحر سوقها، كمثل سلة مليئة بالتوابل، وتجد البحارين المؤتمرين بأمرك متحرقين بفعل شهوة

رقيقة لا يعرفون هم أنفسهم سببها؛ لذلك فأنت على البحر تخبر مذاق الحب أو مذاق الموت؛ تبعا لاختلاف الرياح.».

لكنك تستوقفنى؛ إن السفينة التى وصفتها لا تصمد للإعصار؛ ويجب تعديلها وفقا لهذا أو ذاك من التفاصيل الفنية، وأنا أوافق. بدلها إذن! يهمنى فى المقام الأول أن تبنى سفينة تقتطف بها الجزر النائية فى عرض البحار.

ليس لك أن تأمل فى إثبات خطئى؛ ولا فى إنكارى حقا من حيث ما هو جوهرى. هل تزعم أن بوسعك إقناع النحات بأنه كان الأجدر به أن ينحت وجه امرأة، بدلا من النصف الأعلى لمقاتل؟! عندما أكسو جسدا حقيقيا لا تشغلنى ثنايا الرداء. لكن الجسد عندما يحيى ويتحرك ويخطو؛ فإن الرداء بكل ما فيه من ثنايا، يتحد بالجسد فى إيقاظ رغبتى.

١١٣

على سبيل المثال ستكون هديتى إليك هى المجرة الساطعة فى السماء فوق المدينة؛ بأن أحدثك عنها. فإن هداياى أولا ـ بسيطة. لقد قلت لك: «ها هى ديار البشر تعلوها الكواكب.» وبالفعل، فحيث تحيى إذا سرت إلى جهة اليسار، فستجد الحظيرة وحمارك، وإلى جهة اليمين دارك والزوجة، وأمامك حديقة الزيتون، وخلفك دار الجار. هذه هى الجهات التى تسير إليها فى الأيام الهادئة، فإذا راقك أن تعرف بمغامرة غيرك لكى تزيد من مغامرتك أنت؛ فإنما هى عندئذ تكتسب معنى؛ فإنك تمضى إلى صديقك فتقرع بابه. وابنه المعافى هو الوجهة التى تتوخاها لكى يتعافى ابنك. وفأسه التى سرقت منه فى الليلة الماضية تزيد عدد اللصوص السائرين بخطى اللصوص؛ ويصير سهرك مثالا لليقظة والعناية. وموت صاحبك يجعل منك فانيا. لكن إذا راقك أن تتبادل الغرام؛ فإنك تعود إلى دارك، وتبتسم لإحضارك هدية من قماش مطرز بخيوط الذهب، أو زجاجة من العطر، أو آنية، أو أيا مما يصير فى الدار مصدرا للمرح، مثلما تغذى المدفأة فى الشتاء بقطع من الخشب لم يسمع أنينها بعد. ومتى جاء الفجر وجب عليك الخروج للعمل؛ فتمضى متثاقلا بعض الشىء، لتوقظ الحمار الذى ينام واقفا، وتدفعه ـ بعد أن تربت على عنقه ـ أمامك صوب الطريق.

عندئذ؛ فإذا تنفست فقط، ونسيت كل شىء عن الناس؛ فإنك تغوص

بالرغم من ذلك فى مشهد جذاب فيه منزلقات ونداءات، وإغراء وإباء. وستبدل كل خطوة تخطوها حالك بحال. وستملك فى الخفاء وطنا فيه غابات وصحارى وحدائق، وسيستضيفك هذا الحفل رغم شرود قلبك.

عندئذ؛ فإننى أضيف جهة أخرى إلى مملكتك؛ حيث تنظر أمامك وخلفك ويمينا ويسارا. إذا فتحت لك محرابا فى المعبد، يتيح لك مسيرة كتلك التى تسلكها روح البحار فى البحر؛ فقد أضيف جهة لاحقة إلى الجهات الأخرى. فإذا عاودت توجهك إلى الغرام؛ فستذهب أولا ـ إلى النافذة لتغسل قلبك، ثم ستقول لامرأتك: «ها نحن وحدنا، أنا وأنت؛ والكواكب تعلونا». وطالما استنشقت الهواء فستكون نقيا؛ وستكون دلالة على الحياة كمثل النبتة الوليدة على الهضبة الجرداء، يدانيها الصوان وتعلوها الكواكب، شبيهة بالفجر، مرهفة ومتهددة، ولكنها مثقلة بأمل سيتناقل على طول القرون. ستكون حلقة من حلقات السلسلة، وستؤدى دورك على أتم ما يكون. أما إذا عاودت التوجه إلى دار جارك، واتخذت مجلسك بالقرب من مدفأته لتسمع ما يقوله الكون عن نفسه (وما أشد تواضع هذا! فالكون سيخبرك ـ على لسان جارك ـ بما جرى فى دار الجار الآخر، أو بعودة جندى، أو بزفاف فتاة)؛ فعندئذ سأكون قد شيدت فيك روحا أكثر قدرة على فهم الكون؛ إذ تتلقى المكاشفات: الزفاف، والليل، والكواكب، وعودة الجندى، والصمت، كل هذا سيكون موسيقى جديدة على أذنيك.

١١٤

على هذا النحو أنبئت بشأن العيد، وهو اللحظة التى تنتقل فيها من حال إلى الأخرى؛ وقد أهلتك مراعاة الطقوس لأن تولد. لقد ذكرت لك هذا عندما حدثتك عن السفينة: من حال كانت فيها أشبه بالدار التى تبنى بالمسامير والألواح، تنتقل متى جهزت؛ إلى حال العروس التى تزف. إنها لحظة العيد. لكن هذا الاحتفال بإطلاق السفينة لا تستقر أنت فيه إلى الأبد!

ذكرت لك هذا فيما قلته لك عن الطفل: «إن ميلاده عيد، لكنك لن تفرك يديك فرحا بميلاده كلما حل يوم الاحتفال به فى السنين التالية. ستتطلع فى العيد التالى إلى تغير فى حالته؛ بمثلما تفعل فى يوم سقوط الثمرة من شجرتك لكى تصير أصلا لشجرة جديدة؛ وتمتد بأجيال من نفس الصلب»، وذكرت لك هذا فيما قلته لك عن حصاد الحبوب: «إن عيد التخزين يجىء، ويليه عيد بذر البذور، ثم عيد الربيع؛ الذى يجعل من بذورك عشبا ناعما، مثل سطح بحيرة ماؤها ترى فيه صورة الأشجار. ومرة أخرى يحين موعد التخزين؛ وهكذا على التوالى من عيد إلى عيد، حتى الموت». ذلك أنه لا توجد مؤن. وأنا لا أعرف عيدا لا تجيئه من موضع ما، ومنه تمضى إلى موضع غيره. لقد مشيت طويلا، والباب يفتح. إنها لحظة العيد. وأنا أتقدم بطيئا؛ خطواتى ـ أنا نفسى ـ تهدهدنى؛

وإذا رفعت عينى إلى القبة وجدتها تتأرجح برقة مثل أقواس الجسور، وأمضى فى قصرى من قاعة إلى قاعة: ها هى الجدران، وها هو ما تزين به الجدران، وأدور حول المائدة الكبيرة وعليها حوامل الشموع، وألمس بيدى عمودا فى الرخام، أحس برودته، وألج جناح الخدم؛ وتبلغ أسماعى الأصوات المألوفة: صفقة باب، الخادمات يرحن ويجئن، يطوين فى سلالهن الأقمشة التى لم تجف تماما، وتستعين الواحدة منهن بزميلة لها لتعاونها فى نقل السلة.

ثم ألج مجال الروائح؛ وقصرى يشابه قبوا فيه يجرى العمل طويلا فى استقطار الرحيق من الفواكه، ومن الكروم تعد الأنبذة. وأنا أبحر كأنما فى مقاطعات ساكنة، هنا التين وهناك صناديق من خشب الصندل، وأغمض عينى؛ أتعرف على ما حولى دونما حاجة إلى رؤيته. ولا شك أن أبى ـ أيضا ـ حكم هذه المقاطعات باقتدار.

عند مرورى يلتصق العبيد بالجدران؛ وفقا للطقوس المقررة للتعامل بينهم وبينى. اجتزت قاعة الاستجمام، واجتزت قاعة الاجتماع، ثم هبطت السلم المفضى إلى خارج القصر درجة درجة.

١١٥

مضيت إلى عالم الهندسة الأصيل الوحيد، صديقى.

تأثرت برؤيته موليا اهتمامه ـ إلى أيما مدى ـ بالشاى ومعداته، بالجمر، والمغلاة وهدير الماء، ثم مذاق الرشفة الأولى بغرض الاختبار؛ فإن الشاى يبطئ فى الإفراج عن نكهته. وأكثر ما راقنى من هذا العكوف الوجيز؛ هو أنه استغرقه بأكثر ما تفعل مسألة من مسائل الهندسة.

قلت له: «أنت العليم، لا تستهين بالعمل المتواضع».

ولكنه لم يجبنى. ثم بعد أن ملأ كوبينا؛ تام الرضا عن الشاى، قال: أنا العليم، ماذا تقصد بهذا؟ لم سيستهين عازف القيثارة بطقوس الشاى؛ لسبب وحيد هو أنه يعرف شيئا عن صلة درجات السلم الموسيقى ببعضها البعض؟ إن لى بعض علم بصلات خطوط المثلث بعضها بالبعض. إلا أن هدير الماء يروقنى؛ بمثلما تروقنى الاحتفالات المقامة فى المناسبات لتكريم الملك، صديقى».

وتفكر، ثم استأنف حديثه، قائلا: «ما الذى أنا عليم به؟ لا أظن مثلثاتى بقادرة على إيضاح متعة الشاى لى؛ ولكن قد يكون للاستمتاع بالشاى الفضل فى إيضاح مثلثاتى لى شيئا ما!».

وقلت: «ما الذى تقوله هذا يا عالم الهندسة؟!!».

قال: «إذا ما عرفت الحب، فسأحس الحاجة إلى وصف من أحببتها. سأحدثك عن شعرها، وعن أهدابها، وعن شفتيها، وعن بوادرها التى هى للقلب موسيقى. لكن، هل سأتحدث عن البوادر والشفتين والأهداب والشعر إن لم يوجد وجه المرأة ذاك الذى يستقرأ عبرها؟ أنا أريك فيم يكون تبسمها رقيقا. لكن أولا وجد التبسم.

لن أقلب كوما من الأحجار لكى أبحث بينها عن سر التعبد. فعلى مستوى الأحجار لا يوجد للتعبد معنى. يجب أن يوجد المعبد (مشيدا من الأحجار)؛ وعندئذ، فها أنا قد تغير قلبى؛ وسأمضى متفكرا فى فضل الترابط بين الأحجار.

لن أسعى إلى البحث فى أملاح الأرض عن تفسير لشجرة البرتقال؛ فعلى مستوى أملاح الأرض لا يوجد لشجرة البرتقال معنى. لكن من يشهد تصاعد شجرة البرتقال؛ سيستطيع بفضله تفسير تصاعد الأملاح من الأرض.

فلأعرف الحب أولا. فلأتأمل الوحدة ولسأمضى على الأثر؛ أتفكر فى المواد وفى أساليب التجميع. لكننى لن أبدأ باستقصاء المواد إن لم يوجد ما يسودها؛ وهو ما يهمنى. لقد تأملت المثلث أولا، ثم بحثت فى المثلث عن الالتزامات التى تحكم الخطوط. أنت ـ أيضا ـ قد أحببت أولا، صورة للإنسان، فيها هذا الحماس الباطنى. وبنيت على أساسها طقوسك؛ كى تحتوى هذه الصورة مثلما الفريسة داخل الكمين، ومن ثم تستدام فى المملكة؛ ولكن من ذا الذى إذا أبدع تمثالا اهتم بأنف لذاته، أو بعين أو بلحية؟! وأى من الطقوس ستعرضه أنت لذاته؟ وما الذى سأخرج به أنا من الخطوط إن لم تكن هى أولا لمثلث؟!

إن أول ما أبدأ بالخضوع له هو التأمل، فإذا استطعت فسأصف وأسرد. وإذن، فإننى لم أنكر الحب يوما؛ فما إنكار الحب سوى ادعاء باطل».

وتركت صديقى ماضيا بخطاى البطيئة؛ أنا المعافى من سورات غضبى؛ فقد أمدنى الجبل الذى ارتقيته، بسكينة حقيقية هى أسمى من التوفيق ومن الزهد ومن الجمع ومن التفرقة. ذلك أنه حيثما يرى الناس نزاعًا أرى أنا شرطا؛ بمثلما أرى الفرض على أنه شرط للحرية، وما يجد الحب من قواعد، كشرط لوجود الحب، وعدوى المحبوب كشرط لوجودى أنا؛ فإن السفينة بدون البحر لن توجد لها صورة.

١١٦

إذن، فقد جاء الصباح. وأنا هنا كالبحار، معقود الذراعين أستنشق البحر. أنا هنا كالنحات قبالة الطين. وتوجهت إلى الإله بضراعتى: «رب، إن الصباح يطلع على مملكتى، والضوء يبزغ من البلدان وبساتين النخيل والأراضى الزراعية ومزارع البرتقال. وها إلى يمينى هذا الخليج من البحر؛ حيث ترسو السفن، وإلى يسارى الجبل الأزرق الذى تبارك سفوحه الخراف ذات الصوف، ومن خلفه الرمال الزاهية التى ليس سوى الشمس ما يزهر فيها!!

هل لى أن أشكو من جبل يقع فى هذه الجهة وليس فى غيرها؟ إنه ـ فى موقعه ذاك ـ يأبى على القبائل القادمة من الصحراء أن تغزو بلادى، كأنما يدفعها هادئا براحة يده. وفى الجهة الأخرى؛ حيث تعانى المملكة العرى؛ سأشيد قلاعى.

«رب، لقد نلت السكينة بفضل ضراعتى. أنا قادم منك. أحس بنفسى بستانيا يسير صوب الأشجار»!

يقينا، إننى أنا أيضا قد خبرت فى حياتى الغضب والمرارة والبغضاء والظمأ إلى الثأر؛ لكن من يريد تصويب الماضى هو كمن يتخذ قرارًا صالحا بعد فوات الأوان. ولصرت عقيما إذا راودنى حلم إعدام المفسدين بسبب

فسادهم، والجبناء بسبب جبنهم، والخونة لمشاركتهم فى الخيانة؛ فإن العاقبة القصوى ستكون إعدام حتى أفضل الناس، ومتى أعدم المتهمون بالتهم الخطيرة؛ فلن يتبقى غير المتهمين بالتكاسل، أو بالتهاون، أو بالغفلة.

أتذكر قول أبى: «إن البذرة التى تشكو جعل الأرض منها بعض الخضراوات لا شجرة أرز، هى بذرة جديرة بالسخرية؛ فهى إذن، بذرة للخضراوات لا لغيرها».

كذلك كان يقول: «إن الأحول قد ابتسم للفتاة. فالتفتت إلى أصحاب العيون السليمة؛ فراح الأحول يذيع أن كل من ينظر بعينين سليمتين يشارك فى إفساد الفتيات!!».

إن أولئك الذين يدعون العدل هم شديدو الغرور؛ إن كانوا يظنون أنهم لا يدينون بشىء للتخبط وللإجحاف وللأخطاء وللمخازى التى سبقتهم.

والثمرة التى تحتقر الشجرة، جديرة بالسخرية.

١١٧

مثل هذا الذى يظن أنه واجد متعته فى ثروة من كم من الأشياء، عاجزا عن استخلاصها منها؛ لأن مكمنها ليس فيها، ويضاعف ثرواته ويكوم الأشياء فى تلال، ويمضى مضطربا بينها فى سراديبه، شبيها بالهمج الذين يظنون فى الطبلة مكمن الصوت؛ فيفكونها لكى يملكوه!!

أقول إن مثله أولئك الذين يحدثون تفاعلا ـ فيه فوضى غير مفهومة ـ بكلمات القصيدة ومواد التمثال ونغمات القيثارة؛ لأنهم علموا أن ما بين كلمات القصيدة من صلات ملزمة؛ يقيدك إلى القصيدة، وأن البنى الملزمة تقيدك إلى التمثال الذى أبدعه النحات، وأن ما بين نغمات القيثارة من صلات ملزمة، يشدك إلى أحاسيس عازف القيثارة؛ وظنوا أن مكمن القوة هو فى كلمات القصيدة ومواد التمثال ونغمات القيثارة، ثم متى أخفقوا فى العثور على القوة ثمة؛ بما أنها لم تجعل ذاك مكمنها، راحوا يبالغون فى ما يحدثونه من ضجيج؛ ليكون أقصى ما يستطيعون إيصاله إليك، مساويا لما يحدثه فيك من أثر كوم من الآنية تحطم!! وأولا فإن ما يحدث عندئذ فيك من أثر هو بلا قيمة تذكر، ثم إنه بلا قوة تذكر؛ ولقد كان أبلغ على نحو مغاير، وسائدا عليك وحاكما لك، ومثيرا منك ما هو أروع؛ إن جاءك من ثقل جندى الشرطة التابع لى؛ متى وطأ إصبع قدمك.

وإذا رمت أن أحكمك بأن أقول لك «شمس الخريف» أو «سيوف

الثلوج»؛ فإن من الواجب أن أشيد كمينا يأسر فريسة، هى ليست من نفس جوهره. لكن إذا رمت التأثير فيك بنفس أشياء الكمين؛ لأننى افتقدت الجرأة على استخدام كلمات من قبيل «الحزن» و «الغسق» و «المحبوبة» وغيرها مما يباع جاهزا فى المتجر؛ فلن أرتكب خطأ مماثلا باللجوء إلى تأثير المحاكاة الضعيف؛ كى يقل ابتهاجك بكلمة «جثة» عن ذلك الذى لكلمة «سلة الورد»، رغم أنه لا الواحدة، ولا الأخرى تحكمك من الأعماق، وسأخرق العادة لكى أصف لك المعانيات فى أقصى مدى لها. ومن ناحية أخرى، فافتقارا إلى استشعار تأثير من كلمات لا تكاد تجتر منك لعابا حامضا عندما أدير آلة الذكريات؛ لأنها كلمات بلا تأثير وليس فيها مكمن الانفعال ـ ستبدأ أنت فى الانفعال بشدة، وفى مضاعفة المعاة وتفاصيل المعاناة وروائح المعاناة؛ لكى لا يكون لك من وقع علىَّ يدانى ما هو معهود من قدم جندى الشرطة التابع لى.

من يسعى على هذا النحو إلى المباغتة بفعل المداهمة بما هو غير معتاد؛ ليس إلا لصًا يسطو، ولن يجد من مصدر لضجيجه سوى الخراب!

ذلك أنه لا يوجد منفلت، لا يوجد فرد وحيد، لا يوجد إنسان ينجح حقا فى التحصن بخندق، ومن يظن أنه نجح فى هذا هو أشد سذاجة من صانعى الأشعار الرديئة الذين يخلطون الحب وضوء القمر والخريف والتنهدات والنسيم معا؛ بحجة الشعر.

ظلك يقول: «أنا ظل، وأحتقر الضوء.»، لكنه مدين له بحياته.

١١٨

أنا أتقبلك على نحو ما تكون. قد يعصف بك داء سرقة التحف الذهبية التى تقع عليها عيناك، ومن ناحية أخرى تكون شاعرا!! وإذن؛ فسأستقبلك حبا للشعر، وحبا لتحفى؛ سأخبئها!

قد تكون ممن يفشون الأسرار؛ كالمرأة التى تعد الأسرار ـ التى يعهد بها إليها ـ جواهر تتحلى بها، وبها تذهب إلى الحفل؛ مختالة بما تتحلى به، وتسبغ عليها الحلى النادرة مكانة رفيعة ومجدا. ومن ناحية أخرى قد تكون راقصا. وإذن؛ فسأستقبلك احتراما للرقص، ولكن ـ احتراما لأسرارى ـ لن أبوح بالأسرار.

إلا أنك قد تكون صديقى.. فقط! إذن؛ فسأستقبلك حبا لك، على نحو ما تكون: إذا كنت تعرج فلن أطلب إليك أن ترقص، إن كنت تمقت هذا أو ذاك فلن أفرض عليك صحبة أى منهما، إن اشتقت إلى طعام؛ فسأقدمه لك.

لن أحاول تقسيمك من أجل استكمال معرفتى بك. لست أنت هذا الفعل أو ذاك، ولا الحاصل من جمع هذا إلى ذاك. لن أحكم عليك وفقا لأقوالك ولا أفعالك؛ بل سأحكم على أقوالك وأفعالك تلك، وفقا لك أنت.

وفى المقابل سأطلب منك حسن الاستماع إلىّ. لا حاجة بى إلى الصديق الذى لا يعلم ما بى، ويطالبنى بتفسيرات. ليست لى القدرة على امتطاء ريح الأقوال المتهافتة. أنا جبل! الجبل يستطيع تأمل ذاته. قوة الجبل فى ثباته. لكن الأشياء المتنقلة تعوزها القوة.

من العسير علىَّ تفسير ما لا يفهمه قلب المحب أولا، بل إن من العسير علىَّ ـ فى معظم الأحوال ـ أن أتحدث! إن من الأقوال ما ينقصه الاحتشام. لقد ذكرت لك هذا بشأن جنودى الذين فى الصحراء. أتأملهم ـ صامتا ـ فى عشايا القتال. إن المملكة تعتمد عليهم؛ وسيموتون فى سبيل المملكة. وبهذا البذل سيجزون عن موتهم. إذن، فإنى عليم بحماسهم الأصيل. ما الذى ستفيدنى به ريح الأقوال، بأنهم يشكون من الأشواك؟! بأنهم يمقتون قوادهم المباشرين؟! بأن الزاد قليل؟! بأن التضحية شاقة؟! لا بد أن هذه هى أقوالهم! أنا أحاذر من الجندى البالغ الشاعرية. إذا كان يتمنى الموت فى سبيل قائده؛ فالأرجح أنه لن يموت؛ لبالغ انشغاله بإلقاء قصيدته عليك. أنا أحاذر من الدودة التى تظن نفسها محبة للأجنحة. تلك لن تمضى لتموت كى تصير فراشة؛ لأنها تظن أنها قد صارت كذلك فعلا. وكذلك لا أعير أذنى للجندى الذى تحمل إلى الريح أقواله؛ ولكنى أبصر فيه ما يكونه لا ما يقوله. وهو ـ فى المعركة ـ سيحمى قائده بصدره.

صديقى هو وجهة نظر. أنا بحاجة إلى سماع ما يقوله من حيث يقوله، لا عبر الريح؛ فثمة يكون هو مملكة لا مثيل لها، وموردا لا ينقطع. وقد يسكت عن الكلام ومع هذا يظل مشبعا لى. عندئذ؛ أتأمل الكون وفقا له هو، وأبصره على نحو مغاير. وبالمثل، أتطلب من صديقى أن يعرف أولا من أين يجىء قولى. عندئذ ـ ولا غير ـ سيسمعنى؛ فإن الكلمات تتعابث!!

١١٩

عاد لزيارتى مدعى النبوة ذاك ذو العينين الجامدتين، الذى يكن ـ طيلة الليل وطيلة النهار ـ حفيظة بالغة، وبالإضافة إلى ذلك هو مصاب بالحول.

قال لى: «جدير بنا تخليص الأبرياء».

وأجبته بقولى: «يقينا؛ فما من سبب جلى يبرر معاقبتهم».

قال: «وأن يتم التمييز بينهم وبين الخطاة.

أجبته بقولى: «يقينا. والأبلغ كمالاً يجب أن يتخذ قدوة؛ فإننا ننتقى أفضل ما أبدعه ـ من تماثيل أفضل النحاتين ـ لننصبه فوق قاعدته، ولا نقرأ على الأطفال إلا أجمل القصائد، ولا نتمنى ـ لملكة متوجة على شعبنا ـ إلا أكثر النساء ملاحة؛ فإنما الكمال وجهة وجدير بنا إظهارها، حتى وإن لم يكن فى مقدورنا بلوغها».

إلا أن مدعى النبوة اشتعل حماسا.

قال: «ومتى تم حصر طائفة الأبرياء ـ يجب أن يقتصر عليها التخليص؛ ومن ثم يقضى على الفساد دفعة واحدة وإلى الأبد».

قلت له: «مهلا! إنك لتبالغ؛ فإنك تزعم لى ـ بقولك هذا ـ إمكان تمييز

الزهرة من الشجرة، وتكريم الحصاد باستثناء السماد، وقصر فئة النحاتين على كبارهم؛ بضرب أعناق صغار النحاتين؛ وأنا لا أعرف من البشر من بلغوا الكمال، بل من قاربوه بدرجات متفاوتة بين الواحد منهم والآخر، ولا أدرك مراحل نمو الشجرة ـ المكتملة بظهور أزهارها ـ إلا بدءا من التربة. وأقول: إن كمال المملكة يعتمد على المتكشفين».

قال: «إذن فأنت تكرم التكشف؟!».

قلت: «ليس إلا بنفس القدر الذى أكرم به غباءك!! فإن من الخير أن يتم إظهار الفضيلة على أنها حالة من الكمال مرجوة وممكنة تماما وليكن فى إمكاننا تصور الإنسان الفاضل، رغم عدم إمكان وجوده؛ أولا ـ لأن الإنسان عاجز، ثم لأن الكمال المطلق ـ أينما وجد ـ هو والموت سواء. إلا أنه من الخير أن تتخذ الوجهة سمة الهدف، وإلا فسيزهد المرء فى السير صوب غاية يستحيل بلوغها. لقد كدحت بمشقة فى الصحراء؛ وهى تبدو فى البداية كأنها لا تقهر. بيد أننى جعلت فى تل الرمال ذاك ـ النائى ـ موقعا أروم بلوغه؛ فما إن بلغته إلا وهلك عنه سلطانه. عندئذ؛ جعلت من شق فى الأفق موقعا أروم بلوغه؛ فما إن بلغته إلا وهلك عنه سلطانه. عندئذ؛ يقع اختيارى على هدف آخر؛ ومن هدف إلى هدف، أبرح الصحراء.

التكشف هو: إما من أمارات البساطة والبراءة؛ على نحو ما يكون عرى الظباء (وإذا هفا فؤادك إليها وبغيت توجيهها؛ أضفيت على البراءة الفضيلة)، وإما خدش للحياء تستمد منه المتع. والحياء هو أساس التكشف أصلا! ومن الحياء يستمد التكشف حياته، ثم يعود فيؤسس الحياة. ألا ترى الأمهات يحجبن بناتهن عند مرور الجنود السكارى؛ ويحظرن عليهن الظهور؟! وهذا مع أن جنود مملكتك المثالية يخفضون أبصارهم متعففين؛ فكأنهم لم يوجدوا، ولن يجد أحد غضاضة حتى فى تعرى

الفتيات للسباحة أو غيرها. بيد أن احتشام مملكتى هو مختلف جدا عن عدم التكشف؛ فعندئذ، يكون الأشد احتشاما هم الموتى!! احتشام مملكتى هو حماس متكتم، هو تحفظ.. هو احترام للذات، هو شجاعة! إنه وقاية للعسل المستكمل؛ فى سبيل الحب. وإذا مر فى موضع ما جندى ثمل؛ فالحاصل أنه سيؤسس لدىَّ قيمة الاحتشام».

قال: «أفأنت إذن، تبارك صياح جنودك ببذاءاتهم؟».

قلت: «الحاصل أننى ـ على النقيض ـ أعاقبهم؛ لكى أؤسس ما يجب عليهم من احتشام. لكن الحاصل أيضا، أن الإقدام على خدش الحياء يزداد جاذبية بقدر ما أؤسس الواجب. إن المرء تستهويه القمة المرتفعة ليتسلقها؛ بأكثر مما تستهويه الربوة المستديرة، ويتوق لمنازلة الغريم الصنديد، لا المأفون الذى لا يقارعه، ولا تحرقه الرغبة فى التطلع إلى وجوه النساء إلا عندما يحجبنها. وبقدر قسوة العقاب الذى أنزله بالرجال؛ كى أحقق التوازن للمملكة، أقيس قوة خطوط الدفاع عنها. ومتى أقمت حاجزا فى الجبال لأحد الأنهار؛ حرصت على قياس سمك الجدار ـ هو أمارة على قوتى؛ فيقينا أن سورا مصنوعا من الورق المقوى يكفينى لصد ما يتسرب من مستنقع هزيل؛ أما مياه النهر..!! وفيم يرضينى أن يكون جنودى فاقدى الرجولة؟! أنا أريدهم مثقلين على السدود؛ فعندئذ، سيكون عظيما إجرامهم، أو إبداعهم؛ الذى يسمو عن الإجرام!».

قال: «أنت إذن، ترضى بهم وقد امتلأوا برغباتهم الداعرة!».

قلت: «كلا. أنت لم تفقه شيئا!».

١٢٠

جاء رجال شرطتى ـ بغبائهم المفرط ـ ينشدون الاجتماع بى.

قالوا: «لقد اكتشفنا السبب فى تهالك المملكة؛ إنه راجع إلى وجود طائفة بعينها؛ يجب استئصالها».

وسألتهم: «وكيف عرفتم أن أولئك الأفراد مرتبطون ببعضهم البعض؟».

ووصفوا لى الملابسات الخاصة بأفعالهم، والتقارب بينهم وفقا لهذه العلامة أو تلك.

وسألتهم: «ومم تبينتم أنهم يمثلون خطورة على المملكة؟»

وفصلوا لى جرائمهم والاختلاسات التى ارتكبها بعضهم، والانتهاكات التى اقترفها بعض آخر، وخسة العديد منهم، أو دمامتهم.

قلت «إننى أعرف طائفة هى ـ بعد ـ أشد خطورة. إلا أن أحدا لم ينتبه إلى ضرورة التصدى لها!».

سارع رجال شرطتى إلى الاستفسار، قائلين: «أى طائفة؟».

فإن الشرطى ـ المؤهل منذ ميلاده للقرع ـ يخمد إذا ما أعوزه الوقود.

وأجبتهم، قائلا: «طائفة أولئك الموسومين بشامات على وجناتهم اليسرى».

وإذ لم يفهم رجال شرطتى شيئا؛ فقد أقرونى على ما أقول بزمجرة؛ فإن الشرطى قادر على القراع دونما حاجة إلى الفهم. إنه يقرع بقبضتيه، وما لأى منهما ذهن تفكر به!!

إلا أن أحدهم ـ كان فيما مضى نجارا ـ سعل مرتين أو ثلاثا، ثم قال: «ما من دليل على تقارب بينهم وما من مكان يجتمعون فيه».

أجبته بقولى: «يقينا؛ وهنا مكمن الخطورة؛ فإنهم يمضون غير مثيرين للاهتمام. لكن ما إن أصدر المرسوم الذى سيعرضهم لغضب الجماهير؛ فستراهم باحثين عن بعضهم البعض، متضامنين ومقيمين فى نفس الموضع، ومناهضين لعدالة الشعب، ومفعمين بالوعى «الطائفى»!!

وقال رجال شرطتى مقرين: «إنك مصيب تماما!».

لكن النجار السابق تنحنح ثانية، وقال: «إننى أعرف أحدهم، وهو دمث وكريم وشريف. كان من نصيبه ثلاثة جراح أثناء قتاله؛ دفاعا عن المملكة».

وأجبته، قائلا: «يقينا! وهل من كون النساء ناقصات عقل تستنبط عدم تدليل أى منهن على شىء من الحكمة؟! ومن كون القواد عموما مفاخرين؛ أتستنبط استحالة وجود خجول بينهم؟! لا تدع الاستثناءات تعرقلك. متى تم فرز الموسومين بالعلامة؛ فانبش فى ماضى كل منهم. إنهم مصدر الجرائم والانتهاكات وحوادث الاغتصاب والاختلاسات والخيانات والشره والتبذل. أتزعم أنهم أبرياء من رذائل كتلك؟».

وتصايح رجال الشرطة ـ وقد دبت الشهية فى قبضاتهم ـ قائلين: «كلا؛ بلا شك»

وقلت أنا: «لكن عندما تطرح الشجرة ثمارا عفنة؛ هل تتهم بالعفن الثمار أو الشجرة؟».

وتصايح رجال الشرطة؛ قائلين: «الشجرة».

قلت: «هل تأتى بعض الثمار الصحيحة تلك العفنة بالبراءة؟»

وتصايح رجال الشرطة ـ الذين هم لحسن الحظ محبون لمهنتهم؛ التى ليس من بين اختصاصاتها الغفران ـ قائلين: «كلا! كلا!».

قلت «إنه إذن، من الإنصاف أن تطهروا المملكة من أولئك الموسومين بشامات على وجناتهم اليسرى».

إلا أن النجار السابق عاد يتنحنح.

قلت له: «عبر عن اعتراضك»؛ على حين اختلس رفاقه ـ الملهمون بقوة استشعارهم ـ نظرات محملة بالتلميحات، إلى وجنته اليسرى.

وتجاسر أحدهم فقال، ممتعضا من المشتبه فيه: «هذا الذى قال إنه يعرفه: ألا يكون أخاه أو أباه، أو أحد ذويه؟»!

وعبر الجميع عن إقرارهم هذا الافتراض بالزمجرة.

عندئذ اشتعل غضبى؛ وقلت«إن الأشد خطورة ـ بعد ـ هى طائفة الموسومين بشامات على وجناتهم اليمنى! فإنهم حتى لم يخطروا لنا على بال؛ وإذن، فإنها أقدر على التخفى. والأشد ـ بعد ـ خطورة هى طائفة غير الموسومين بشامات؛ لأن أفرادها ليسوا بحاجة إلى التخفى أصلا:

إنهم لا يرون؛ مثلهم مثل المتآمرين الخطرين. وفى نهاية الأمر فإننى ـ فى طائفة تلو طائفة ـ سأدين طائفة البشر بأجمعها؛ فإنها ـ بأوضح الدلائل ـ مصدر الجرائم والانتهاكات وحوادث الاغتصاب، والشره والتبذل. وبما أن الواقع أن رجال الشرطة هم ـ بالإضافة إلى كونهم كذلك ـ بشر أيضا فبهم وبفضلهم سأبدأ ـ مستغلا هذا التيسير الملائم ـ فى إجراء التطهير المطلوب. لهذا، أنا أصدر الأمر إلى رجل الشرطة ـ الذى فى كل منكم ـ بأن يلقى القبض على الإنسان الذى فيه، ويلقيه فى أسوأ جب داخل أى من حصونى.»

ومضى رجال شرطتى، مدارين لاضطرابهم؛ وجاهدين للتفكير دون نتيجة تذكر؛ فإنهم لا يفكرون إلا بقبضاتهم.

إلا أننى استبقيت النجار، الذى ادعى التواضع ودوام النظر إلى الأرض.

قلت له: «أنت: أعزلك! فما النجار الذى عرف الحذق وفهم التناقضات؛ بفضل مقاومة الخشب له، بمبصر الحقيقة على نحو ما يبصرها الشرطى. إذا كان «دليل الشرطة» يضع الموسومين بشامات على وجناتهم فى القائمة السوداء؛ فإنه يروق لى أن يشعر رجال شرطتى بتحفز قبضاتهم بمجرد سماعهم ذكر أولئك الموسومين، بل إنه يروقنى أن يقيمك قائد الشرطة؛ بناء على قدرتك على تنفيذ أمره القائل: «إلى اليسار در!» مثلا، دون أى معيار آخر. ذلك أن قائد الشرطة إن وهب القدرة على التقييم؛ لغفر لك هفواتك؛ لأنك شاعر مجيد، ولصفح بالمثل عن جارك؛ لأنه ورع، وعن جار جارك لأنه نموذج للعفة؛ ومن ثم فإن العدالة ستسود. لكن فليقع أثناء القتال انفلات طفيف؛ عند تنفيذ الأوامر بالاستدارة إلى

أى من الجهات، أو بالسير المعتاد؛ وعلى الفور، سيرى جنودى مختلطين بعضهم بالبعض فى حالة من الفوضى تجلب عليهم الهلاك ذبحًا. وياله من عزاء ذلك سيأتيهم به حسن تقييم قائدهم لهم! إذن، فإننى أعيدك إلى أخشابك؛ خوفا من أن يؤدى يوما ما، حبك ذاك للعدالة ـ حيثما لا يكون إليها احتياج ـ إلى إراقة الدماء عبثا.

١٢١

وإذ اعتكفت توجهت إلى خالقى بهذه الضراعة: «رب، إننى أتقبل حقيقتين تفرض كل منهما علىَّ وجودها؛ وإن كانت مناقضة للحقيقة الأخرى: حقيقة الجندى الذى مسعاه إلى الإصابة بجراح، وحقيقة الطبيب الذى مسعاه إلى معافاة البشر، أتقبلهما مؤقتا، وإن لا يسمح لى مستواى بتساؤل محله أرفع مما هو متاح لى. أنا لا أوفق ـ فى مشروب فاتر ـ بين أشربة مثلجة وأخرى ساخنة. أنا لا أقر الإصابة بجراح هينة ثم مباشرة العلاج. أنا أعاقب الطبيب الذى يأبى أن يداوى، وأعاقب الجندى الذى يأبى القتال. وقليلا ما يهمنى أن الكلمات تتعابث فيما بينها؛ فإن الحاصل هو أن الكمين المكون من مواد متباينة هو وحده الذى يقتنص ـ بفضل تكامله ـ فريستى، التى هى هذا الإنسان لا غيره، وهذه القيمة؛ لا غيرها.

أنا أتخبط فى بحثى عن مسالك الطاقة الإلهية، وافتقارا إلى دلائل هى على مستوى لم أبلغه بعد، أقول إننى محق فى اختيار طقوس الاحتفال؛ إذا كان الحاصل أننى بها أتحرر وينشرح صدرى.

أنا ماض إليك على نحو ما تفعل الشجرة التى تنمو وفقا لمسالك الطاقة التى من بذَرتها أصلا ترتسم. رب، إن الأعمى لا يعرف من النار شيئا. لكن للنار مسالك طاقة تستشعرها راحتا اليدين. وهو يسير عبر الأشواك؛

فإن لكل تحول إيلاما. رب، إنى ماض صوبك وفقا لما أنعمت به علىَّ؛ متخذا المرتقى الذى يؤدى إلى الصيرورة.

أنت لا تهبط صوب خليقتك، وليس لى ما يمكن أن آمله؛ لكى أستنير من أى شىء سوى حرارة النار، أو الطاقة التى فى البذرة، مثلى كمثل الدودة التى لا تعرف من الأجنحة شيئا. لا أمل لى فى أن ينبئنى مهرج بظهور أطياف؛ فما هذا بمبلغى أيا مما له قيمة. ما فى الحديث إلى الدودة عن الأجنحة من جدوى؛ إلا كتلك التى للحديث إلى صانع المسامير عن السفينة. يكفى أن توجد للسفينة مسالك طاقتها من حماس المعمارى، وللبذرة مسالك طاقتها من الشجرة وللأجنحة مسالك طاقتها من النطفة. وأن توجد أنت رب، فقط.

رب إن عزلتى أحيانا، موحشة بشدة. وألتمس إشارة فى صحراء الهجران. إلا أن ما أنبأتنى به قد جاءنى فى بعض أحلامى. لقد فهمت بطلان كل إشارة؛ لأنك إن كنت على مستواى فلن ترغمنى على النمو؛ وما حاجتى رب إلىَّ، أنا نفسى كما أنا؟!.

لذلك أمضى، ناطقا بضراعة لايستجاب لها، وبلا مرشد لى ـ طالما كنت أعمى ـ إلا من حرارة ضعيفة تستشعرها راحتاى الذابلتان. وعلى هذا أحمدك رب؛ لأنك لا تجيبنى! فإننى إذا وجدت رب، ما أبحث عنه فقد انتهيت من الصيرورة.

إن تفضلت رب، فقمت صوب الإنسان بخطوة ـ من قبيل تمثل الملك بشرا سويا ـ فإن الإنسان سيصير مكتملا! لن يعود يقطع ولا يصنع ولا يقاتل ولا يداوى. لن يعود يكنس مسكنه ولا يدلل المحبوبة. رب، هل سيشغله تطلعه إلى تمجيدك؛ متى رام تأملك، عن إحسانه إلى البشر؟! متى شيد المعبد؟! ما أبصره هو المعبد، لا الأحجار.

رب، ها أنذا قد مسنى الكبر، وصرت بضعف الأشجار متى عدت عليها رياح الشتاء. تعبت من أعدائى بمثلما من أصدقائى، غير راض ـ فى اعتقادى ـ عن كونى مرغما على القتل والمداواة معا فى آن واحد؛ فإنه قد انتقلت إلىَّ منك رب، الحاجة إلى السيطرة على كل المتناقضات؛ التى تجعل مصيرى بهذه القسوة البالغة، ومع هذا فمكره أنا على كتمان أسئلتى واحدا بعد الآخر؛ إذ أتقدم صوب صمتك.

رب، أنعم علينا بالتوحيد بيننا من أجل مجدك المتعالى، أنا الذى ـ للأسف ـ قد جاوز الذروة وترك خلفه جيله على منحدر من الجبل لن يعود يهبط منه أبدا، وذلك الذى يرقد فى أرض إلى الشمال من مملكتى والذى كان عدوى المحبوب، وعالم الهندسة الأصيل الوحيد، صديقى، أنعم علينا بهذا، إذ ترقدنى فى حضن الرمال المهجورة، حيث أحسنت أنا العمل»!!

١٢٢

ساكنون أنتم (فإنكم مثل سفينة حاذت الساحل فسلمت حمولتها، التى كست الميناء ألوانا زاهية، وبالفعل ترى الأقمشة المذهبة والتوابل الحمراء والصفراء وقطع العاج)، ثم ها هى الشمس تفيض على الرمال كمثل نهر من عسل؛ وتؤذن بالصباح. وتظلون بلا حراك؛ مفاجأين بروعة الشروق، على ذلك المنحدر من الربوة الذى يشرف على البئر. والحيوانات الجسيمة ساكنة هى الأخرى. ما من واحد منها يتقلقل فى موضعه؛ إنها تعرف أن الواحد منها تلو الآخر سيرتوى. إلا أنه ما زال هناك يعطل الموكب: فإن الماء لم يوزع بعد؛ لأن الأحواض الكبيرة لم تجلب. وأنت تضع يديك على خصرك وتنظر إلى مبعدة وتقول: «ما الذى هم فاعلوه؟».

إن أولئك الذين عاودوا الصعود من أعماق البئر التى أزيحت عنه الرمال، قد وضعوا عنهم أدواتهم وعقدوا أذرعهم على صدورهم. ابتساماتهم تنبئك: لقد حضر الماء! ففى الصحراء يكون الإنسان حيوانا ذا أنف أخرق؛ يتخبط فى بحثه عن ضرع يغتذى منه. إذن، فإنك أنت أيضا تبتسم؛ إذ اطمأننت، ورعاة الإبل ابتسموا بدورهم؛ إذ رأوك تبتسم. وهكذا لم يعد هناك سوى الابتسام. ساد الابتسام الرمال المتألقة بالضياء، ووجهك، ووجوه الرجال، بل وربما الحيوانات شيئا ما، خلف أقنعتها الطبيعية؛ فهى تعلم أنها ستشرب؛ وهى ثمة، ساكنة وقد استسلمت كلها

للسعادة. وإن لهذه اللحظة أثرا كذلك الذى فى البحر؛ عندما يتيح تمزق فى السحاب انهمار الشمس. وفى التو، تستشعر حضور الإله، دون أن تدرك السبب! ربما رجع إلى شيوع إرهاص بالمكافأة (فإن للبئر المكتشفة فى الصحراء فعل الهدية: لا تكون أبدا متوقعة تماما، ولا تكون أبدا موضع وعد لا يقبل الإخلال به). ورجع أيضا إلى التطلع إلى التشارك فى الماء المقبل؛ الذى يبقيكم على الدوام ساكنين؛ فإن أولئك الذين عقدوا أذرعهم على صدورهم، لم يأتوا بحركة واحدة؛ لأنك أنت على قمة الربوة - ويداك على خصرك - تواصل النظر إلى نفس النقطة من الأفق؛ فإن الحيوانات ذات الظلال الجسيمة، المنتظمة فى مواكب على منحدرات الرمال لم تبدأ السير بعد؛ بما أن أولئك الذين يجلبون الأحواض الكبيرة التى يشرب منها، لم يظهروا بعد، وأنك أنت تواصل تساؤلك: «ما الذى هم فاعلوه؟»، كل شىء يظل مرجأ وبالرغم من ذلك، فإن كل شىء قد وعد به.

وتحتويكم سكينة الابتسام. ويقينا أنكم عما قريب ستبتهجون بالارتواء. إلا أنه لن يعود ما فى الأمر هو السعادة وحدها؛ فقد آن أوان المحبة؛ إذ صار البشر والرمال والحيوانات والشمس وكأنما ارتبطت دلالة كل منها بثقب بين الأحجار ولا شىء غيره، ولم يصر ماثلا حولك إلا موضوعات لنفس العقيدة، وعناصر لنفس الطقوس، وكلمات لنفس النشيد؛ على ما فى كل منها من تنوع.

وأنت الكاهن الأعظم الذى له الرئاسة، أنت القائد الذى سيصدر الأوامر، أنت مدير المراسم، ساكنا، ويداك على خصرك؛ تُسائل الأفق عن الموضع الذى سيجلبون لك منه الأحواض الكبيرة التى يشرب منها. فإنما يظل ينقصك - بعد - بعض موضوعات العقيدة، تظل تنقصك واحدة من كلمات القصيدة، تظل تنقصك قطعة من قطع الشطرنج حتى تكسب المباراة، يظل ينقصك صنف من الطعام للمأدبة، وضيف الشرف على

الحفل، وحجر للمعبد حتى يخطف الأبصار. وفى مكان ما يسير أولئك الذين يجلبون الأحواض الكبيرة؛ فلا يعود ينقصك شىء! أولئك الذين ستهتف بهم عندما يتبدون لك: «إيه! يا من أنتم هناك! فلتعجلوا إذن!» وهم لا يجيبون. سيرتقون الربوة، سيجثون كى يحكموا تركيب أدواتهم. عندئذ؛ لن تبدر منك إلا حركة واحدة، وسيبدأ صرير الحبل الذى يستولد الأرض، وتبدأ الحيوانات موكبها الساكن باهتزازة يعقبها سير وئيد؛ والرجال يسوسونها بنظام أحكم تدبيره، مستعينين بضربات المقارع، ومصعدين من حلوقهم صيحات آمرة. وهكذا يبدأ توالى طقوس منح الماء؛ كما قدر لها أن تجرى تحت الشمس فى صعودها البطىء.

١٢٣

لقد أردت أن أؤسس فيك حبك لأخيك، بيد أننى فى نفس الوقت قد أسست الحزن على فراق الإخوان، أردت أن أؤسس فيك حبك لقرينتك، بيد أننى فى نفس الوقت قد أسست فيك الحزن على فراق القرينة، أردت أن أؤسس فيك حبك لصديقك، بيد أننى فى نفس الوقت قد أسست فيك الحزن على فراق الأصدقاء؛ بمثلما يشيد منشئ المنابع، الشوق إليها إذا غابت.

على أننى؛ إذ وجدتك معذبا بالفراق بأشد من أى ضر آخر؛ فقد أردت أن أشفيك وأدلك على ما هو نقيض الغياب. فإن المنبع الغائب أعز على الذى يكاد يموت من الظمأ، من كون خلا من المنابع. وحتى إن كنت منفيا إلى مبعدة طيلة حياتك؛ فإنك تبكى إن أتاك نبأ احتراق دارك.

إنى أعرف للحضور أحوالا بها كرم، كمثلما للأشجار التى تمد أغصانها بعيدا لتفيض بالظلال؛ فإننى أنا الذى يقيم، وبى ترى موئلك.

تذكر مذاق الغرام متى عانقت امرأتك؛ لأن الصباح الباكر قد رد اللون إلى الخضراوات التى تقيم منها على ظهر أتانك تلا، يرتج؛ لأنك ماضٍ فى طريقك إلى السوق لبيع خضراواتك. إذن، فإن امرأتك تبتسم لك. تبقى هى على عتبة الباب قليلا؛ متأهبة مثلك لعملها؛ فإنها ستكنس الدار وتجلو

الأدوات، وتتوفر على إنضاج وجبتك المقبلة، وصورتك فى ذهنها؛ بسبب صنف من الطعام تدبر لمفاجأتك به، قائلة فى نفسها: «عسى ألا يرجع قبل موعده؛ لكيلا يفسد متعتى بمفاجأته». لا شىء إذن، يفرق بينكما رغم أنك فى الظاهر تمضى بعيدا وأنها تتمنى تأخرك. وكذلك أنت؛ فإن مضيك سيعود بالنفع على الدار، التى يستوجب منك إصلاح ما استهلك فيها، وإنعاش جوها. وقد قدرت أن تبتاع من مكسبك بعضا من بسط الصوف الرفيع وعقدا من الفضة لزوجتك؛ ولذا فأنت تشدو فى الطريق، والحب يملؤك بوئامه، وإن كنت فى الظاهر تبتعد. أنت تشيد ـ قليلاً قليلاً ـ دارك؛ بكل ضربة من مقرعتك توجه بها أتانك، وكلما أصلحت وضع السلال على جانبيها، وكلما فركت عينيك، لأن الوقت ما زال مبكرا. ساعتها تكون متضامنا مع زوجتك بأكثر مما تكون فى ساعات الفراغ حين تتأمل الأفق، ملتفتا نحوه من عتبة دارك، دون أن يخطر على بالك حتى أن تعود فتلفت إلى مملكتك لكى تملى نظرك بأى مما فيها؛ فإنك عندئذ، تمنى نفسك بحضور حفل زفاف يحين موعده فى وقت لاحق، أو بأداء مهمة ما، أو بلقاء صديق.

ومتى تمت يقظتكما ـ أنت وأتانك!ـ ووجدتها تحاول بعض الشىء أن تظهر همتها؛ فسيكون لوقع خطاها ـ المتسارعة لفترة وجيزة ـ فى أذنيك ما يشابه أغنية يشارك فيها الحصى. وأنت تتفكر فيما تفعله فى نهارك؛ وتبتسم! لأنك قد اخترت المتجر الذى ستبتاع منه السوار الفضى، وستساوم صاحبه على ثمنه. ذلك المسن، تعرفه أنت جيدا؛ سيبتهج بزيارتك لأنك أعز أصدقائه، وسيستفسر منك عن زوجتك، سيسألك عن صحتها؛ فإن زوجتك عزيزة ومرهفة. وسيكثر من الثناء عليها، وبأسلوب يجعل أقل عابرى السبيل حذقا يقتنع ـ بمجرد سماعه هذا المديح ـ بأنها جديرة بالسوار الذهبى! ولكنك ستتنهد؛ فإنما هى هكذا الحياة!! لست

أنت ملكا. إنما أنت مزارع. ثروتك هى خضراواتك. وكذلك سيتنهد التاجر، ومتى تنهد كل منكما بما فيه الكفاية؛ تكريما للسوار الذهبى الذى لا سبيل إليه ـ سيبوح لك بأنه يؤثر الأساور الفضية على تلك المصنوعة من الذهب. وسيفسر لك ذلك بقوله: «إن السوار يجب ـ قبل كل شىء ـ أن يكون ثقيلا! والأساور الذهبية دائما خفيفة. إن للسوار دلالة روحية. إنما هو الحلقة الأولى من السلسلة التى تربط الواحد منكما بالآخر. وفى الحب يحلو الإحساس بثقل السلسلة. عندما ترفع الذراع بجمال؛ لتحكم اليد وضع الغلالة التى تكسو الرأس، فإن الحلية يحسن أن تكون ثقيلة؛ فبهذا هى تخاطب القلب». وسيعود إليك الرجل من عمق متجره بأثقل ما عنده، وسيطلب إليك أن تجرب تأثير ثقله عليك؛ بأن تزنه بيدك وأنت مغمض العينين وتتفكر فى مدى استمتاعك. وستمر بالتجربة، وتقره. وستتنهد مرة أخرى؛ فإنما هى هكذا الحياة!! لست أنت قائد قافلة. إنما أنت مالك لأتان. وستريه إياها، وهى واقفة بالباب، ولا تبدو عليها العافية. وستقول: «لقد بلغ من خفة بضاعتى هذا الصباح؛ أنها استطاعت مسارعة الخطى بحملها». إذن، فإن التاجر أيضا سيتنهد. وعندما يكون كل منكما قد تنهد بما فيه الكفاية؛ تكريما للسوار الثقيل الذى لا سبيل إليه ـ سيبوح لك بنبأ عن الأساور الخفيفة، وهو أنها تفوق الثقيلة بما فيها من قيمة لما وشيت به من زخارف، أتقنت بأكثر من غيرها، وسيريك ذلك الذى يلقى موافقتك؛ فإنك منذ أيام تتدبر أمورك؛ مثلما الحاكم الذى يتدبر أمور ولايته: سيخصص جانب من أرباح الشهر لبسط الصوف الرفيع، وجانب لأدوات زراعية جديدة، ثم أخيرا جانب للطعام اليومى.

حينذاك ستبدأ المباراة الحقيقية؛ فإن التاجر من أعرف الناس بالناس!! إن أدرك أنه أتقن نصب كمينه، فلن يدعك تفلت! لكنك تقول له إن السوار باهظ الثمن على نحو مبالغ فيه؛ وتستأذن فى الانصراف، ولكنه يستبقيك؛

إنه صديقك، وجمال زوجتك يجعله يرضى بالتضحية. سيحزنه حزنا شديدا أن يفرط فى كنزه؛ إكراما لأخرى تقل عنها جمالا. تبقى إذن، على مضض، وتظهر امتعاضا. تزن السوار بيدك؛ ما من قيمة تذكر لسوار خفيف الوزن، وفضته لا بريق لها! لذا تتردد بين حلية هزيلة وقماشة ملونة جميلة أبصرتها فى المتجر الآخر. على أنه يجب ـ أيضا ـ ألا تبالغ فى تبرمك؛ فإنه إذ يأس من أن يبيعك شيئا؛ فسيتركك تمضى، وستعلوك حمرة الخجل عندما تعود إليه مختلقا عذرا واهيا حيرك البحث عنه.

ويقينا، إنه إذا وجد مشاهد لهذه المباراة، ولم يكن من العارفين بطبائع البشر عن حكمة؛ فإنه سيظن محورها البخل؛ فأنت تتحدث عن الأتان والخضراوات، والتاجر عن الذهب والفضة؛ وعلى هذا النحو تؤخر موعد عودتك إلى دارك، بينما محور المباراة هو الحب، وأنت لم تتأخر عن دارك بل تقيم بها فى اللحظة نفسها التى تشهد وقوفك فى متجر يبعد عنها كثيرا؛ فإنما لا يوجد ابتعاد عن الدار ولا عن الحب، ما دمت تؤدى طقوس الحب وطقوس الدار. غيابك لا يبعد بك، بل يربطك؛ إنه لا يبترك، بل يمزجك! وهل تستطيع أن تقول فى أين يقع الحد الفاصل بين الغياب الذى هو ربط، وذلك الذى هو بتر؟ إذا ما أحكم أداء الطقوس وإذا ما أنعمت النظر فى الإله، وهو الذى فيه مربطكما، وسرت إليك حرارة الارتباط؛ فما الذى يمكن أن يفرق بينك وبين الدار، أو بينك وبين الحب؟. لقد عرفت من الأبناء من قال لى: «إن أبى قد مات دون أن يستكمل بناء الجناح الأيسر من داره؛ وأنا أستكمله»، ومن قال لى: «إن أبى قد مات دون أن يستكمل زراعة أشجاره؛ وأنا أستكملها»، ومن قال لى: «إن أبى قد مات وقد عهد إلىَّ أن أواصل استكمال صنيعه؛ وهو ما أفعله»، ومن قال لى: «إن أبى قد مات ولم تتواصل خدماته للعاهل؛ وأنا أخدمه.» ولم أشعر فى أى من الديار التى سمعت فيها هذه الأقوال، أن ربها قد مات.

إذا بحثت عن جذر مشترك لك أنت وصديقك، خارج وجود أى منكما، إذا أدركت ـ عبر شتات المواد ـ مربطا إلهيا يربط بين الأشياء؛ فما من مسافة ولا من مدة تستطيع أن تفرق بينكما. إن المقدسات هذه التى فيها تأسست الوحدة بينكما، تهزأ بالسدود والبحار.

عرفت بستانيا مسنا، طالما حدثنى عن صديقه. طويلا عاش الاثنان كأخوين قبل أن تفرق بينهما الحياة: يشربان معًا فى المساء الشاى، ويحتفلان بنفس الأعياد، والواحد منهما ينشد الآخر ملتمسا بعض النصائح؛ أو ليزيح بالمكاشفة ما يثقل ذاكرته. ويقينا أنه لم يكن لديهما الكثير من أقوال يتبادلانها؛ وبالأحرى شوهدا يتنزهان وقد فرغا من العمل، متأملين الزهور والحدائق والسماء والأشجار؛ دون أن تسمع كلمة ينطق بها أى منهما، ولكن متى أخفض أحدهما الرأس وإصبعه يجس نبتة ما؛ فسرعان ما ينحنى الآخر مطأطئا أيضا؛ إذ تعرف على أثر اليرقانة! والزهور تامة التفتح تمد كلا من الاثنين بنفس البهجة.

إلا أنه حدث أن تاجرا؛ إذ ألحق بخدمته واحدا من هذين البستانين، جعله يلازم قافلته لبضعة أسابيع. بيد أن السطاة على القوافل، والحروب التى تقوم بين الممالك، والعواصف وأمواج البحر العاتية التى تغرق السفن، والمصائب وأحزان الفراق الأبدى، والمهن الواجب احترافها لكسب القوت، وأيضا ما فى الوجود من مصادفات. كل هذا تقاذف ذلك البستانى كما تتقاذف مياه البحر برميلا أو آخر؛ وها هو يدفع به من عمل فى حديقة إلى عمل فى حديقة أخرى، فى أقصى الأرض.

ولكن، إذا البستانى الذى أعرفه يتلقى ـ بعد زمن من الصمت بلغ به الشيخوخة!ـ رسالة من صديقه؛ ترى كم من السنين استغرقتها هذه الرسالة حتى تبلغه؟! وما الذى استقلته من سفن وقوافل ومركبات تجرها الجياد

حتى تتناقل من يد إلى يد؟! على أية حال؛ فقد بلغت الرسالة المستهدف بها فى حديقته؛ بإصرار كإصرار الآلاف من أمواج البحر التى لا تهدأ إلا متى بلغت الشاطئ!

ما أشد تألق البستانى ـ عندئذ ـ بالسعادة، ورغبته أن يشاطره الآخرون إياها. رجانى أن أقرأ الرسالة التى تلقاها؛ كما يرجو المتذوق للشعر مبدعا أن يلقى قصيدة! وراح هو يطالع فى وجهى تأثير ما فى الرسالة علىَّ. ويقينا أن الرسالة لم تحو الكثير من الكلمات؛ فإن كلا من الرجلين كان أمهر فى استخدام المقراض منه فى استخدام القلم. لم يكد ما قرأته يزيد عن قول مرسل الخطاب: «فى هذا الصباح شذبت شجيرات الورد التى أرعاها»، وأنا أيضا طأطأت رأسى ـ بمثلما كانا يفعلان ـ ولكننى متفكر فيما هو أساسى، وإن بدا لى مستعصيا على التعبير عنه بالكلمات.

ها هو إذن البستانى الذى أعرفه، لا يعود يعرف الراحة. راح يسائل كل من يعرفهم عن جغرافية الأرض وعن الملاحة وعن مسالك القوافل وعن طرق البريد وعن الحروب التى تقع بين الممالك. وبعد مرور سنوات ثلاث؛ تصادف أننى كلفت وفدا بالذهاب إلى أقصى الأرض؛ فأرسلت فى طلب البستانى، وقلت له: «لك أن تكتب إلى صديقك». وقد عانت الأشجار طيلة أيام من الإهمال، وكذلك الخضراوات فى حديقتها. أما الديدان فقد احتفلت بالحرية؛ فإنه قد اعتكف لكى يكتب كلمات، ثم يكشطها ويعيد الكتابة من جديد، مضطربا كطفل يؤدى الواجب الذى كلف به فى المدرسة؛ فإنه مهتم بأن يبلغ صديقه بما يلح عليه ويريد أن يبوح به، يريد أن يمد فوق فجوة من العدم، قنطرة تصل بينه وبين الجانب الآخر فى ذاته، عبر الزمان والمكان. عليه أن يعرب عن محبته وها هو يجيئنى وحمرة الخجل تعلوه؛ ليرينى رده على رسالة صديقه، ويطالع فى وجهى ثانية تأثير الرسالة علىَّ، وأيضا على من سيقرؤها بعد أن أقرأها أنا؛ مختبرا

فيَّ أنا قيمة مكاشفاته، وقرأت ما باح به لصديقه، بعد أن عكف طويلا على «تشذيب» خط يده، هو الذى ما عكف إلا على تشذيب الأشجار. ولم أقرأ غير هذه الكلمات المتواضعة: «فى هذا الصباح شذبت أنا أيضا، شجيرات الورد التى أرعاها..»، ولذت بالصمت؛ متفكرا ثانية فيما هو أساسى وإن صار يلوح لى بأوضح من ذى قبل؛ إذ كانا يمجدانك رب! وفيك ملتقاهما ـ عبر شجيرات الورد ـ دون أن يعيا.

آه رب! سأصلى من أجلى أنا نفسى؛ فإنما لهذا قد آن الآوان بعد أن بذلت أقصى ما أستطيع من جهد لتعليم قومى. بسبب إنعامك علىَّ بأعباء شغلت بها؛ لم أستطع تكريس أى من وقتى لهذا أو ذاك ممن هم جديرون بحبى، فلم يكن لدىَّ من خيار سوى الانقطاع عما يجلب للقلب أفراحه؛ فإنما هى مفرحة العودة إلى موطن أثير، ومفرح سماع الأصوات المألوفة، والمكاشفات الساذجة، تبوح بها من تبكى حلية ضائعة؛ وإنما هى تبكى مخافة الموت الذى يضيع كل الحلى. لكنك رب، قد كتبت على الصمت؛ كى لا تحجب الكلمات المتطايرة عنى المعانى؛ بما أن مهمتى هى العكوف على ما بالبشر من كرب؛ قررت أن أشفيهم منه.

رب! يقينا أنك شئت ألا أستنفد وقتا فى الثرثرة وفى عذاب الأقوال الدائرة على الحلية المفقودة (ولن ينقطع هذا اللجاج؛ لأن الأصل فيه هو خوف الموت لا الأسف لضياع الحلية)، أو على الصداقة أو على الغرام. فما للصداقة ولا للحب من مربط إلا بك وحدك، وقد جرت مشيئتك بألا أبلغ أيا منهما إلا عبر الصمت الذى كتبته علىَّ!

ما أنا بملتمس أى لقيان؛ بما أننى أعلم أنه لا يليق بعزتك وجلالك أن تهبط إلى مستواى، وما أنابمنتظر زيارة ملاك يمتطى سحابة. إننى أنا الذى لا أوثر باهتمامى هذا أو ذاك؛ بل أوزعه على الجميع وفى مقدمتهم

الكادح والراعى المسئول عن رعيته: على أن أعطى الكثير وألا ألقى إلا القليل. وإن كان الحاصل أن تبسمى فى وجه الحارس يمثل له نعمة؛ لأننى أنا الملك، وبى وحدى مربط المملكة وهى نتاج دماء مواطنيه، فما الذى يمكن أن يعود علىَّ من تبسمه هو فى وجهى؟ إن مكانتى تربأ بى عن تطلب المحبة من أولئك المدينين لى بالتبجيل وحده. وفيم يهمنى تجاهلهم إياى أو حقدهم علىَّ؛ طالما أدوا دينهم إلىَّ باعتبارى السبيل إليك، رب؟! فإنما أتطلب لك وحدك الحب الذى هو مصدرهم ومصدرى، وبوادر عبادتهم لك أجمعها فى باقة أهديها إليك؛ بمثلما أتقبل تقرب الحارس إلىَّ، بالنيابة عن المملكة، لا بالأصالة عن نفسى. فما أنا بسد؛ بل إننى مكلف بمهمة كتلك التى على البذرة: أن تسقى من الأرض ما به ترفع الأغصان إلى الشمس.

إذن، فإنه يخطر لى أحيانا أنه يجدر بى أن أمضى فى اتجاه الملتقى الذى ستكرمنى به ربِّ، وترضى لى بالامتزاج فيه بأولئك الذين تجمعنى بهم المحبة. أحيانا يعيينى كونى وحيدا؛ وأستشعر الحاجة إلى صحبة قومى؛ فما أنا بعد، بهذا النقاء الذى يؤهلنى لأن أكون وحدى ربِّ، معك وحدك.

عندما أدركت مدى سعادة البستانى الذى استطاع التواصل بصديقه؛ رغبت أنا أيضا أن أرتبط ـ على نفس النحو ـ بمن فى مملكتى من أمثالهما. وأحيانا أهبط ـ بخطى بطيئة ـ سلم قصرى حتى الحديقة، وأتخذ طريقى صوب شجيرات الورد؛ أوزع اهتمامى هنا وهناك، وأعكف بكل انتباهى على وردة ما. أنا الذى أتصدر فى الظهيرة مجلسا أقرر فيه العفو أو الموت، والسلام أو الحرب وبقاء ممالك بأكملها على قيد الحياة أو القضاء عليها!! ثم متى فرغت من عملى بجهد شديد ـ فإن الكبر قد مسنى ـ أقول فى نفسى: «فى هذا الصباح قد شذبت أنا أيضا شجيرات الورد التى أرعاها». وقليلا

ما يهمنى أن تصل هذه الرسالة (التى أريدها أن تبلغ جميع البستانيين، الأحياء منهم والأموات) بعد سنين عديدة، أو إلى هذا أو ذاك من الناس. ما الرسالة بهدف فى حد ذاته. إننى حين استهدفت ما يجمعنى بأولئك لم أجد حاجة سوى إلى تقديس ما قدسوه هم؛ أى الورد الذى شذبوا فى الصباح الباكر شجيراته.

رب، وكذلك عدوى المحبوب الذى لن أتواصل به إلا إذا تجاوزت ذاتى، وعلى نفس النحو حاله هو أيضا؛ لأنه يشابهنى. إذن، فإننى أطبق العدالة وفقا لما أوتيته من حكمة، وهو يطبقها وفقا لما أوتيه. عدالتى وعدالته تبدوان متناقضتين فيما بينهما ولكنهما متى تجابهتا، غذتا ما بيننا من حروب. لكن كلا منا يجابه الآخر قادما من طريق، يبدأ من أبعد بعد عنه. لكن كلا منا يمد راحتيه مستهديا نفس الوهج؛ الذى تبعثه نار واحدة، وإن فى اتجاهات عدة. وفيك وحدك رب، ملتقاها.

إذن، فإننى ـ إذ أنجزت عملى ـ قد أسهمت فى تجميل نفوس شعبى، وهو ـ إذ أنجز عمله ـ قد أسهم فى تجميل نفوس شعبه. ولنا ـ أنا الذى أخطر بباله، وهو الذى يخطر ببالى، وإن لم تتح لنا لغة نتواصل من خلالها ـ أن يقول كل منا للآخر؛ متى قضى بحكم أو فرض طقوسا أو عاقب من أدانه أو غفر لمن وجده مستحقا للمغفرة: إننى فى هذا الصباح قد شذبت شجيراتى».

رب، فإنك القاسم المشترك بين الواحد منا والآخر. أنت المعقد الأساسى لمختلف الأفعال.

عن المترجم

أحمد على بدوي مترجم وناقد درس بجامعات القاهرة وليون والسوربون، وعمل محررًا بالأهرام، ومحاضرا في دراسات الإعلام بوازرة الخارجية المصرية وجامعة القاهرة، عمل مترجما إعلاميا لدى البعثة الدبلوماسية الفرنسية بالقاهرة. كما يعمل باحثا استشاريا بالجامعة الأمريكية.

وقد صدرت له عدة ترجمات عن الإنجليزية والفرنسية أهمها: «النساء والنوع في الشرق الأوسط الحديث» عن الإنجليزية لنخبة من أعلام السوسيولوجيا (المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٤)، «رحلة فى آخر الليل» ترجمة عن الفرنسية لرواية «لويس فردينان اسلين» (دار شرقيات ٢٠٠٥).

القلعة

«القلعة» هي حكاية أمير ورث مملكة عن أبيه. ومن خلال تأملاته في أحوال شعبه يصحبنا في رحلة فلسفية ممتعة في أغوار النفس الإنسانية يقدم لنا فيها خلاصة خبرته وتجاربه.

ومع أن أنطوان دي سانت إكسوبري اشتهر بروايته الجميلة «الأمير الصغير» والتي نشرت بأكثر من مائة وخمسين لغة عبر العالم كله إلا أن كثيرا من النقاد يعتبرون رواية «القلعة» هي رائعته الحقيقية والتي جمع فيها فلسفته وحكمته التي استغرقت عمرا بطوله.

ولد أنطوان دي سانت إكسوبري عام ١٩٠٠ بفرنسا وكان طيارا ومغامرا جاب بقاع العالم كله بطائرته الصغيرة، وكتب العديد من القصص والروايات. نشر له منها ١٠ روايات قبل أن يلقى حتفه إثر سقوط طائرته أثناء رحلة جوية في شمال أفريقيا عام ١٩٤٤.

وقد نشرت روايته «القلعة» بعد وفاته فأكدت مكانته الأدبية البارزة على الساحة العالمية؛ حتى قيل إن حجم ما كتب عنه في السنوات العشر التي أعقبت وفاته قد بلغ ضعف ما نشره وهو على قيد الحياة.

6 221102 022880

بالتعاون مع

دار الشروق
www.shorouk.com